القرن الأول بعد بياتريس



القرن الأول بعد بياتريس

أمين معلوف

ولد في لبنان عام ١٩٤٩، وهو يعيش في فرنسا منذ العام ١٩٧٦.

أهم مؤلفاته :

- الحروب الصليبية كما رآها العرب
- ليون الافريقي
- سمرقند
- حدائق النور
- صخرة طانيوس
- بوابة المشرق

أمين معلوف

القرن الأول بعد بياتريس

ترجمة: نهلة بيضون

الكتاب : القرن الأول بعد بياتريس

LE PREMIER SIÈCLE
APRÈS BÉATRICE

التأليف : أمين معلوف

الترجمة : نهلة بيضون

الناشر : دار الفارابي – بيروت – لبنان

ص.ب. ١١/٣١٨١ – ت: ٣٠١٤٦١ – فاكس: ٣٠٧٧٧٥

التنضيد : شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

تصميم الغلاف : فارس غصوب

الطبعة : الأولى أيلول ١٩٩٧

الى أمي

أنتَ جالسٌ في حديقةِ نُزُلٍ بضواحي براغ
تغمرُك السعادةُ وأمامك وردةٌ على الطاولة
وبـدلاً من كتابـــة قصتِّكَ المنثـورة
تتأمَّلُ الحشرةَ الراقدةَ في قلب الوردة .

أبولينير
" كحول "

أ

كنتُ مجرّدَ شاهدٍ على الأحداثِ التي أدوّنُها على هذه الصفحات ، شاهد من بين الشهود ، أقرب إلى مسرح الأحداث من النظّارة ، غير أنّني مثلهم لا أملكُ القدرةَ على تغييرِ مجراها. أعرفُ أن اسمي وَرَدَ في الكتب . وكان ذلك يشعرني بالزهوِ والاعتزازِ فيما مضى . غير أن هذا الشعور تبدّدَ الآن . قد تفرحُ ذبابةُ الأسطورة بما أنّ العربةَ قد وصلتْ إلى برّ الأمان ، وإلا فبماذا كانت لتتشدّق لو انتهتْ الرحلةُ في قعر الهاوية ؟ كان هذا هو دوري في الحقيقة ، مجرّدُ ذبابةٍ حوّامةٍ ، متطفّلةٍ وسيئةِ الطالع . وعلى الأقلّ ، لم أكن مخادعاً ولا متواطئاً .

لم أسعَ أبداً وراءَ المغامرةِ ولكنّ المغامرةَ سعتْ ورائي أحياناً . ولو قُدّرَ لي أن أختارَ ، لاخترْتُ خوضَ المغامرةِ في العالم الوحيدِ الذي يستهويني منذ الصِّغر، والذي لا يزال يستهويني دون هوادةٍ وقد بلغتُ الثالثةَ والثمانينَ من العمر، عالم الحشرات ، تلك الأقزام الرائعة التي تتميّزُ بأجسادها الدقيقة الأنيقة وببراعتِها وحِكْمَتِها الأزليّة .

اعتدتُ أن أوضّحَ للأشخاصِ الذين أُحادِثُهم بأنني لستُ أبداً من المدافعين عن الحشرات ؛ فنحن البشر نستطيعُ أن نَسْمَحَ لأنفسنا بموقفٍ نبيلٍ من الحيواناتِ الأرقى التي سرعان ما قُمْنَا بتدجينها وذبحها بالآلاف وانتصرنا عليها انتصاراً نهائياً . ولكنّ الوضعَ يختلفُ بالنسبة إلى الحشرات . فالصراعُ اليوميُّ يستمرُّ بيننا وبينها بدون رحمةٍ ، ولا شيء يدعو للتكهّن بأن الإنسانَ سيخرجُ ظافراً من تلك المعركة . لقد وُجِدَتْ الحشراتُ على هذه الأرض قبلنا وستبقى بعد رحيلنا . ومتى تسنّى لنا استكشافُ كواكبَ نائيةٍ ، سنصادفُ أخواتها عوضاً عن أبناءِ جلدنا . وأعتقدُ أنّ هذا اللقاءَ سيبعثُ في نفوسنا الطمأنينة .

سَبَقَ وقُلْتُ إنني لستُ بنصيرٍ للحشراتِ بل أحدُ الغلاةِ في إعجابي بها دونما شكٌ . وكيف لا أكونُ كذلك ؟ فهل من مخلوقٍ عرفَ مثلها استخراجَ مواد أعظم شأناً من الحرير والعسل والمنّ والسَّلْوَى ؟ لقد دأبَ الإنسانُ منذ القِدَم على تقليدِ عناصرَ وطعمِ هذه المنتجاتِ التي تصنعُها الحشرات . وماذا عن طيرانِ الذبابةِ " الحقيرة " ؟ كم من القرونِ نحتاجُ لنقلِّدَهُ ؟ وحَدِّثْ ولا حَرَجَ عن التحوُّلاتِ التي تصيبُ يرقانةً " بائسةً " .

قد أسوقُ الأمثلةَ إلى ما لا نهاية . ولكن هذا ليس بيتَ القصيد . ففي الصفحاتِ التالية ، لن أتحدّثَ عن شغفي بالحشرات بل عن اللحظاتِ الوحيدةِ في حياتي التي اقْتَصَرَ فيها اهتمامي على البشر .

قد يخالُ القارئُ أنني أشبهُ بدبٍّ مستوحدٍ يمقتُ البشرَ ، ولكنّ هذا الاعتقادَ بعيدٌ كلَّ البُعْدِ عن الحقيقة ؛ فقد احتفظَ طلابي عني بأجملِ الذكريات ، ولم يذمَّني زملائي إلا قليلاً ؛ وكنت أحياناً عشوراً بدون غُلُوٍّ ، بل وحافظتُ على بعض الصداقات لساعاتِ الصفاءِ والسكينة ، وكانت هناك بشكلٍ خاصٍّ كلارنس، ثمّ بياتريس ، وسأتحدّثُ عنهما لاحقاً .

لنقلْ باختصارٍ وبدون رياءٍ أنني نادراً ما تحمّلتُ طنينَ المآسي اليومية ، غير أنني كنت أعيرُ أذناً صاغيةً لأهمِّ قضايا العصر .

لقد عَشِقْتُ حتى الثُّمَالةِ عصرَ شبابي وحماسَهُ الساذج ومخاوفَه البسيطةَ على مشارفِ الألفيَّةِ القادمة ، الحرب النووية التي تهدّدُنا مراراً وتكراراً ، ومن ثمّ الوباء وتلك الثقوب المسلَّطة كالسيوف على أعناقنا فوق المناطق القطبية . لقد كان هذا القرنُ عظيماً بل الأعظمَ في اعتقادي ، وربما القرنَ العظيمَ الأخير . كان قرنَ كلِّ الأزمات وكلِّ المشاكل . أما اليوم ، في قرن شيخوختي، فالحديثُ يدورُ حول الحلول فحسب . لطالما اعتقدتُ أن السماءَ قد اخترعت المشاكلَ وأن الجحيمَ وَضَعَ الحلولَ ، فالمشاكلُ تدفع بنا، تقضُّ مضاجعنا ، تطيحُ بنا وتفقدُنا صوابَنا . إنه لخللٌ حميدٌ فكلُّ الفضائل

تتطوّرُ عبر المشاكل، وبالحلول تَتَحجّرُ وتخْمُدُ . أمن قبيل الصدفة أن أسوأ جريمةٍ اقترفتها ذاكرتُنا اسمُها "حلّ " و" نهائيّ " ؟

كلُّ ما أتأمّلُهُ الآن حولي ، هذا الكوكبُ الضامرُ والمتجهّمُ والمكفهّرُ ، هذا السيلُ من الأحقاد ، هذا الصقيعُ الكونيُّ الذي يغمرُ كلّ شيءٍ وكأنّه طورٌ جليديٌّ جديدٌ ... أليسَ ثمرةَ حلٍّ عبقريٍّ ؟

ومع ذلك ، كانت نهايةُ الألفيّةِ عظيمةً ، فغمرتنا نشوةً نبيلةً ، معديةً، عارمةً ، مسيحيةً ، واعتقدنا جميعاً أن النعمةَ الإلهيةَ ستحلُّ على الأرض جمعاء وأن كلّ الأممِ والشعوبِ سوف تعيشُ في سلامٍ وحريّةٍ ووفرةٍ وأن التاريخَ ، من الآن فصاعداً ، لن يكتبَهُ الجنرالات والإيديولوجيون والطغاة بل الفيزيائيون والبيولوجيون . لن يكون للبشريةِ المتخَمَةِ أبطالٌ سوى المخترعين والفكاهيين . لقد داعبني هذا الحلمُ طويلاً ، وعلى غرار كلّ أبناءِ جيلي ، كنت لأهزّ كتفيّ مشكّكاً لو قيل لي إن كل هذا التقدّمَ الأخلاقيَّ والتقنيَّ سيتقهقر ، وأن كلّ دروبِ التواصل ستوصَدُ ، وكلّ الحواجزِ ستنتصبُ من جديد ، كلّ ذلك بسبب شرٍ ماثلٍ أبداً لا ترقى إليه الشكوك .

بأيةِ خدعةٍ فظيعةٍ من القدر تداعى حلمُنا ؟ كيف انتهى بنا الأمر إلى هذا الدرك ؟ لماذا أُكْرِهْتُ على الهروبِ من المدينة بعيداً عن كلّ حياةٍ مدنيةٍ ؟ ما أريدُ أن أرويه هنا ، بكلّ دقةٍ وأمانةٍ ، هو التفشّي البطيء لذاك الوباء الذي اجتاحنا منذ السنواتِ الأولى من القرن الجديد ، وجَرَفَنا، كما يتراءى ليَ ، في تقهقرٍ لا مثيلَ له بشدّتِهِ وطبيعته على حدٍ سواء .

بالرغم من الرعبِ السائدِ ، سوف أسعى جاهداً للكتابةِ حتى النهايةِ في جوٍّ من السكينة . في هذه اللحظة ، أشعرُ بالأمانِ في ملاذي الجبلي ، ويدي لا ترتعشُ أبداً فوق هذه المفكّرةِ القديمةِ البِكر التي سأسرّ لها بنُتَفٍ من الحقيقة بل إنني أسترجعُ ، لدى استحضاري بعضَ صور الماضي ، فرحةً تطيبُ لي ، لدرجةِ أنني أنسى ، بين الحين والآخر ، المأساةَ التي يُفترضُ بي

أن أرويها . أليست إحدى فضائل الكتابة أننا نضعُ على الصفحةِ الأفقيةِ نفسها الغثَّ والثمينَ معاً ؟ فكلُّ التفاصيل تكتسبُ بين دفّتي الكتابِ الثخانةَ التافهةَ للحبر المسحوق .

ولكن لندع المقدّمات جانباً ! لقد عاهدتُ نفسي على الالتزام بسردِ الوقائع .

ب

بدأ كلُّ شيءٍ في القـاهرة ، خـلال أسبوعٍ دراسـيٍ رصينٍ فـي شـهر شباط ، منذ أربعةٍ وأربعين عاماً خلت ، فقد دوّنتُ اليومَ والساعة . ولكن ، لـمَ الخوضُ في التواريخ ، لنقُلْ إنها فترةٌ قريبـةٌ مـن السنة ذات الصفور الثلاثـة. هل كتبتُ أن كل شيء "بدأ" في تلك الفترة ؟ ما أعنيه هو أنه بدأ بالنسبة لي. غير أن المؤرخين يرجعون أصولَ المأساة إلى حقبةٍ سحيقةٍ . ولكنني أتحـدّثُ هنا من وجهة نظرِ الشاهدِ علـى الأحداثِ فحسب ، فقد بدأت القضيـةُ عندمـا صادفتُها للمرّة الأولى .

قد تحملُ هذه المقدّمةُ على الاعتقاد بأنني أنتمي إلى فصيلـةِ الرحّالـة العظـام الذيــن يتنقّلـون بيـن ضفـافِ النيـل وأدغـال الأمــازون أو مجـاهل البراهمابوترا... ولكنني ، على عكس ذلك ، أمضيتُ كـلّ حيـاتي إلـى طاولـةِ عملي واقتصرتْ أسفاري على التنقّلِ بين حديقتي ومختـبري . ولا أشـعر بـأيّ أسى لذلك ، إذ كنتُ ، كلما التصقتُ بعين المجهر ، أبحرُ إلى عالمٍ جديد . وعندما حدثَ أن أقلّتني الطائرةُ فعلاً ، فكان ذلـك وعلـى الـدوام تقريبـاً بداعـي الذهاب لمراقبةِ إحدى الحشرات عن كثب .

كان سفري إلى مصر من أجل الجُعْرَان . غير أن موضـوع البحـث لم يكن مألوفاً لي . فعادةً ، عندمـا أشـاركُ فـي نـدوةٍ يـدور موضوعُـها حـول الزراعةِ أو أحد الأوبئة ، يكـونُ ضيـوفُ الشـرف فيهـا حشـرةَ الفيلوكسـرا أو القمـلَ اليابـاني ، بعوضــةَ الملاريـا أو حشـرةَ تسـي تسـي ، وتتنــوّعُ فيهـا المداخلاتُ المملّة حول موضوعٍ قديمٍ قِدَم الزمن : " أعداؤنا الحشرات " . أمـا ندوةُ القاهرة ، فكانت تبدو مختلفةً عن غيرهـا مـن النـدوات إذ تحدّثت رسـالةُ الدعوة ، وأسوق هنا النصّ حرفياً ، عن " تقويم مكانة الجُعران فـي الحضـارةِ الفرعونية : الفن والدين والميثولوجيا والأساطير .

غنيٌّ عن البيان ، كما أعتقد ، التذكير بأن الفراعنة كانوا يقدّسون الجُعْران لا سيّما تلك الفصيلةَ المعروفةَ باسم " الجُعْران المقدّس " ، و كلّ فصائل هذه الحشرة الشجاعة ، إذ كانوا يعتقدون أنها تتمتّعُ بمزايا سحرية وتختزنُ أسرارَ الحياة . وخلال سنوات الدراسة ، أكّدَ لي ذلك كلٌّ أساتذتي ، وما أن حصلتُ على مختبري الخاص في متحف التاريخ الطبيعي حتى ردّدْتُ بدوري أمام طلاّبي الخطابَ السنويَّ والتقريظيَّ والمتحمّسَ حول الجُعْران . فهل يتصوّرُ المرء ماذا يعني لاختصاصيٍّ في الحشرات المُغمّدَةِ الأجنحة أن يعرفَ بأن رمسيسَ الثاني جثا أمام إحدى هذه الحشرات الصغيرة التي تلتهمُ الرَوْثَ ؟ لقد تجاوزتْ عبادةُ الجُعْران حدودَ مصر القديمة وانتقلتْ إلى اليونان وفينيقيا وبلاد ما بين النهرين ؛ وكان الجنود الرومان يحفرون شكلَ الجُعْران على مقابضَ سيوفهم ، والأتروريُّون ينقشون رسمَهُ على حليّهم الثمينةِ المصنوعةِ من حجر المعشوق .

وأكرّرُ أن الجُعْران في ميدانِ اختصاصي هو رمزُ العظمةِ والنُّبل ، بل أكاد أقول إنه سَلَفٌ جليلُ المقام . فكان من الطبيعيِّ أن أقومَ ببعض القراءات والأبحاث حوله، إذ لا يسعني مقارنته بعُثٍّ السقيفة لأن الحشرات لا تتحدّرُ كلُّها من الرَوْثِ نفسه.

وعلى الرغم من البحث والتمحيص اللذين قمتُ بهما ، شعرتُ على الفور بأنني غريبٌ بعض الشيء في ندوة القاهرة . فمن أصلِ المشاركين الخمسة والعشرين الذين وفدوا من ثماني دولٍ ، كنتُ الوحيدَ غير القادر على قراءة الحروف الهيروغليفية وتعداد كل سلالة تحوتمس أو أمينوفيس ، والوحيدَ الذي كان يجهلُ ، علاوةً على ذلك ، القبطيةَ الصعيديةَ أو القبطيةَ الأخْميميّة . ولا يطلبنّ مني أحدٌ الاستفسارَ عنهما ، فأنا لم أصادفُ هذين المصطلحين منذ ذلك الحين ، وأعتقد أنني دوّنتُهما بالشكلِ الصحيح .

لقد قامَ كلُّ المحاضرين ، كما لو أجمعوا على إذلالي ، بترصيع مداخلاتهم بعباراتٍ فرعونية بدت في غاية الطرافة ، ولم يفكّر أحدُهم بالطبع أن يترجمها، فهذا لا يجوز في أجوائهم ، لأنّه من غير اللائق التشكيك بسعةِ معرفةِ السامعين . عندما أُعْطيتُ الكلمةَ ، حاولتُ ان أمازحَ الحضورَ وقلتُ إنني لستُ عالمَ آثارٍ مصريةٍ ولا عالمَ آثارٍ أصلاً ، ولستُ جاهلاً بكل معنى الكلمة بما أنّ اختصاصي يشمل ٣٦٠ ألفَ فصيلةٍ من الحشرات المُغْمَدَةِ الأجنحة التي تمَّ إحصاؤها حتى الساعة ، أي ثلث المخلوقات الحية، فعذراً لهذا العدد الضئيل ، وعذراً لنفحةِ التبجُّح هذه التي ليست من شِيَمِي وعاداتي ، ولكنني كنتُ بحاجةٍ ماسّةٍ وحيويةٍ لها في ذلك اليوم للتحرّر من شعورٍ خانقٍ بالجهل والأمية .

وإذ قمتُ بهذا التوضيح وتحقّقتُ خفيةً من وَقْعِهِ على وجوه الحضور، أصبح بمقدوري عرض مداخلتي ، وهي وصفٌ لعادات الجُعْران الغذائية والتناسلية بهدفِ المساعدةِ على فهم ما تتضمّنُهُ من جوانبَ مُلهِمَةٍ وغامضةٍ وغنيةٍ بالتعاليم للملوك الفراعنة ورعاياهم .

من نافل القول إن المصريينَ القدامى لم يكونوا شعباً بدائياً بالرغم من مجيئهم قبلنا بأربعة آلاف سنة، فقد كانوا قد شيّدوا الهرمَ الأكبر ، ولئن تأمّلوا مشدوهين حشرةً منهمكةً في جَبْلِ رَوْث الثيران ، فحريٌّ بنا أن ننظرَ إلى دهشتهم بإجلال .

ماذا كان الجُعْران يفعل ؟ أو بالأحرى ، ماذا يفعل ؟ بما أن عبادتَه لم تغيّر شيئاً في سلوكه .

يقطعُ الجُعْرانُ بقدميه الأماميتين قطعةً من الرَوْث ثم يدحرجُها أمامه لرصّها وتدويرِها . ويكون قبل ذلك قد حَفَرَ وكْراً في التراب ، وما أن ينتهي من صنع عَفيرَتِهِ حتى يدفعُها داخلَ الوكر ، بل يقومُ بأعجوبةٍ أولى ، فبدلاً من أن يدفع بالعفيرة مباشرةً إلى الوكر ، يُسيِّرُها في الاتجاه المعاكس نحو جبلٍ

رملـيٍ صغيرٍ حتـى القمَّـة ، وهنـاك يتركُـها تتدحـرجُ إلـى أسـفل لِتَلِـجَ الوكـرَ مباشرةً.

أمام هذا الوصف ، لا يسعنا إلا أن نفكّرَ بسيزيف . وفي الواقع ، تُدعى أكثر فصائل الجعران شـهرةً " سيزيفوس " . غير أن المصريين رأوا في هذا السلوك أسطورةً أخرى ورمزاً مختلفاً ، ذلك أن الجُعْران، ما أن ينتهي من تثبيت عفيرته في الوكر جيداً حتى يقولبُها على شكلِ إجاصةٍ للتأكد من عدم مبارحتها مكانها ، ثم يضعُ في الجزءِ المستدّق من الإجاصة بيضةً تخرج منها يرقانةٌ لاحقاً . وتجدُ هذه اليرقانةُ ، عند ولادتها ، في العفيرة ما تتقوّتُ به وتعيشُ فيها عيشةَ اكتفاءٍ ذاتيٍ حتى تنمو ، أي حتى يترك جُعْرانٌ آخر "قوقعتَه"ويكرّر الحركات نفسها ...

وقد اعتبر المصريون هذه العفيرةَ المتدحرجةَ رمزاً لحركةِ الشمس في كبد السماء، والجُعْران الذي يحطّمُ تابوتَـهُ المؤلّفُ من الرَوْثِ كنايةً عن القيامة بعد الموت . أليست الأهراماتُ عبارةً عن إجاصاتٍ عملاقةٍ مزخرفةٍ بالرَوْث ؟ ألم يكن الفراعنةُ يأملون أن يخرجَ الميتَ منها يوماً على غرار الجُعْران ، وقد رُدّت إليه الروحُ ليستأنفَ سعيَهُ ؟

ولئن عجزتْ مداخلتي عن إشباعِ فضولِ الحضور ، فالمداخلةُ التي أعقَبَتْها وألقاها عالمُ آثارٍ مصريةٍ لامعٍ من الدانمرك ، البروفسور كريستنسن ، جاءت لتدعمَ كلامي وتَرْفِدُهُ بمعلوماتٍ قيّمة .

وبعد أن أثنى العالمُ الدانمركيُ على التفاصيلِ الحيوانيةِ التي قدّمتُها ، تحدّثَ بإسهابٍ عن الجانبِ الرمزي . فانطلاقاً من الدورِ المفترضِ الذي يضطلعُ به الجُعْران كرسولٍ للقيامة ، نُسِبَتْ إليه في الدين كما في المعتقدات الشعبية كلُّ الفضائل . فقد تحوّلَ إلى رمزٍ للخلود أي رمزٍ للحياة والصحة والخصوبة ؛ وصُنِعَتْ جعارينُ حجريةٌ لتوضعَ في النواويس ، فضلاً عن جعارينَ من الطينِ الصلب استعملتْ كأختام .

وأشارَ المحاضرُ : – كان الختمُ يوضعُ في أسفلِ الوثيقةِ للتأكيدِ على أصالتها وضمان عدم انتهاكِهـا وخلودِهـا . وكـانت الجعـارينُ التـي ترمـزُ إلـى الخلود مهيّئةً لهذا الغرض . ولو قُدِّرَ للفراعنة العودةُ إلى الحيـاة لتبيَّـنَ لهـم أن مخطوطـاتِهم الثمينـةَ المجموعـةَ طـوال آلاف السنين علـى ورقِ الـبردى قـد تحوّلت إلى غبارٍ بعكسِ أختامِ الطينِ الصلبِ التـي قـاومت الزمـن . لقـد وَفَـتْ هذه الحشرةُ المقدّسةُ ، على طريقتها ، بوعدها بالخلود .

وقد عُـثِرَ علـى آلاف الجعـارين – الأختـام التـي جمـعَ حولهـا علمـاءُ الآثار المصرية طائفةً من المعلومات . وراحَ العالمُ الدانمركيُّ الـذي يبـدو أنـه تفحّصَ كلَّ قطعةٍ في متاحفَ العالم قاطبةً ، مِن شيكاغو إلى طشقند ، يحصـي لنا كلَّ تواقيع الملوك الفراعنة والقيّمين على الخزينة أو كهنةِ أوزيريس فضلاً عـن الأدعيـةِ المرافقـةِ لهـا . وكـان دعـاءٌ يتكـرّرُ دائمـاً كمـا لـو أنـه جملـةٌ سحريةٌ:"فليتخلّد اسمُكَ وليرزقك اللهُ إبناً".

وللترويحِ عن الحضـورِ الذيـن ربمـا سئموا هـذا التكـرار ، أخـرج كريستنسن من جيبِـه فجـأةً حـرزاً صغيراً مـن الـورق المقـوّى أمسـكَ بـه بيـن الإبهام والسبابة وعرضَـهُ أمـام ناظرينـا . كـان لهـذا الشـيء الحديث والخشـن الصنـع مظهرٌ مزعـجٌ بعـد مداخلـةٍ تمحورت حـول الذهـبِ والزمـردِ والنقـشِ والترصيع . وكان هذا بالضبط الوقعُ الذي أرادَهُ الدانمركيُّ .

– لقد ابتعتُ هذا الشيء البارحةَ مساءً في ميدان التحرير . أنظروا ، إنهـا برشـاناتٌ مسطّحةٌ علـى شـكل حبّـاتِ فـولٍ كبيـرةٍ تسـمى تحديـداً " فـول الجُعران"، وهي تحتوي على مسحوقٍ تقول طريقةُ الاستعمال أن الرجـلَ الـذي يبتلعه يزداد فحولةً وتُكافأ رجولتُهُ بطفلٍ ذكر .

وقَصَمَ عالم الآثار وهو يتكلّمُ إحـدى حبـاتِ الفـول وتـرك المسـحوقَ ينهالُ منها على نصِّ محاضرته .

– كما ترون ، يرى البعضُ اليومَ أن للجُعْران الفضائلَ السحريةَ نفسها التي كانت تُنسبُ إليه فيما مضى . والجدير بالذكر أن صانعَ هذه البرشانة ليس جاهلاً ، فقد وضعَ عليها رسماً للجُعْران بالغَ الإتقانِ ، والحقُّ يقال ، وكذلك الترجمةَ الإنكليزيةَ والعربيةَ للدعاءِ الهيروغليفيِّ القديم الذي حفظتموه عن ظهر قلب : " فليتخلّد اسمُكَ وليرزقك اللهُ ابناً " .

وانفجرَ الحضورُ ضاحكين ، ولكن كريستنسن ، ببراعةِ الفكاهيِّ ، هدّأهُم بإصبعٍ حازمٍ وحاجبٍ مرفوعٍ كما لو أنه يتهيأ للإدلاءِ بتصريحٍ خطيرٍ :

– أرى من واجبي أن أُعلمكم بأن حباتِ الفولِ هذه قد كلّفتْني مئةَ دولار . ولا أعتقد أن هذا هو ثمنها عادةً ، غير أنني كنت قد أخرجتُ الورقةَ النقديةَ، فما كان من الفتى الذي يبيعها إلا أن انتزعها من بين يديَّ بابتسامةٍ ملائكيةٍ قبل أن يلوذَ بالفرار . وهذا لَعَمْري مبلغٌ لن يقبلَ المحاسبُ في جامعة أرهوس أن يسدّدَهُ لي أبداً !

في ذلك المساء ، قصدتُ ميدانَ التحرير عاقداً العزمَ على عدم العودة إلى الفندق قبل اقتناءِ نموذجي الخاص من " فول الجُعْران" للذكرى ، ومصمّماً على عدم الوقوعِ ضحيةَ الإحتيال . وإذ كنتُ على وشك مغادرة غرفتي ، حرصتُ على إخراجِ قطعةٍ من فئة عشرة دولارات من محفظتي ووضعتها في جيب سترتي قبل أن أزرّرَها بعنايةٍ .

بهذا الزيِّ ، كنتُ مستعداً لغزوِ ميدان التحرير ، وهو فسحةٌ متراميةُ الأطراف لا تخلو من الحياة ، تتداخلُ فيها الجسورُ المعلّقةُ المشيّدةُ أصلاً للحدِّ من الزحام البشري ، والتي كانت، على العكس ، تقوم بتضخيمه وتضيفُ إليه بعداً ثالثاً . وسط هذه الكتلة البشرية المؤلفة من الجنود المتسكّعين والموظّفين المستعجلين ، وسط هذه الغابة من المارّةِ والمتسوّلين و شتّى أصناف المهرّبين ، رحتُ أبحثُ عن بائع البرشانات ، أو أحاولُ بالأحرى أن أظهرَ بمظهرِ السائحِ الساذجِ لإيقاعه في حبائلي .

بعد دقائقَ معْدودةٍ ، لاحظني فتَيان من الباعـة ودسَّ أصغرُهمـا علـى الفور علبةً في يدي . لوّحْتُ بورقةِ العشرة دولارات ، مصمّماً علـى التظـاهر بالاستهجان الحقيقيِّ لو طالبني بالمزيد . وكـم فوجئـتُ عندمـا وضـعَ يـدَهُ فـي جيبه ليعيدَ لي الفكّةَ . حاولتُ إفهامَهُ أنه يستطيعُ الاحتفاظَ ببقيةِ النقود ، ولكنـه أصرَّ على أن يرجـعَ لـي حقّـي حتـى آخر " مليم " . فلمـاذا أتّتيـه عـن نوايـاه الحميدة ؟ وانتظرتُ راضياً وسط زحمةٍ خانقة ، أن يجمعَ في راحةِ يدِهِ المبلـغَ الذي يريـدُ إرجاعَـهُ لـي . لـم تكـن سـوى قطـعٍ نقديـةٍ خفيفـةٍ ولكـن الأعمـالَ بالنوايا، أليس كذلك ؟ شكرتُهُ مربّتاً على كتفه ، وقفلتُ عائداً إلى الفنـدق باحثـاً عن الزميل الدانمركي .

وجدتُهُ في حانةِ الفندق ، جالسـاً وأمامـه كـأسٌ مـن جعـةِ بـلاده . وإذ استعرضتُ أمامه مزهُواً ما اشتريت ، أعلمتُهُ بالسعر الذي دفعت . فأثنى على نباهتي ، متذّمراً من سذاجته التامة ما أن يكون مسافراً إلى بلدٍ غريب، وعندما همَّ بدفع ثمن الشراب ، رجوتُهُ بأنَفَـةٍ وكبريـاء أن يسـمحَ لـي بتسـديد الحسـاب قائلاً :

– لقد دَفَعْتَ بما فيه الكفاية اليوم .

وفتحتُ زرَّ سترتي ، ولكنّني لم أجدْ شيئاً . كانت محفظتي قد اختفت و ربمـا كنـتُ أغفلـتُ ذكـرَ هـذه الحادثـةَ المضحكـةَ والمخزيـةَ لـولا أنهـا ألقتْ بوطأتها على بقيةِ الأحداث .

وبالفعل ، عندما تحدّثَ كريستنسـن عـن هـذه البرشـانات ، أعجبنـي الأمر لدرجة أنني عاهدتُ نفسي ، فور عودتي إلى بـاريس ، علـى سـردِ هـذه النادرةِ أمام طلاّبي وزملائي . وقد يقالُ إنها دعابةٌ أكاديميةٌ صرفـةٌ ، وأنا أقـرُّ بذلك ، غير أن الأهمَّ لا يكمنُ في هذه النقطة . فحبّات الفولِ هذه كانت لتدورُ علـى الأرجـحِ فـي ظـرفِ سـاعاتٍ قليلـة علـى المتحـفِ بكاملـه ، ومـن بيـن

الممازحين ، ربما وُجِدَ واحدٌ على الأقل لينظرَ إليها عن كثـبٍ ، وربمـا انجلـى الغموضُ واتّقينا شرّ الكارثةِ قبل وقوعها ...

وبدلاً من كلّ ذلك ، سارعتُ فور عودتي إلى باريس إلـى إلقـاءِ هـذا الشيء المشؤوم في قعر أحد دروجِ المهمـلات عـاقداً العـزمَ علـى عـدم النظـر إلى هذا الدليل المادي على سذاجتي .

بعد عشرةِ أيام ، نسيتُ الحادثـةَ ، فالمـالُ الـذي أكسبُهُ أو أخسـرُهُ لـم يُشعرنّي يوماً بالسعادةِ أو القنوطِ على الدوام . ولكن ، في تلك اللحظـة ، كنـتُ أتميّزُ غيظاً . فقد نويتُ شراءَ كتبٍ قديمـة مـن مكتبـةٍ فـي شـارعِ قصـر النيـل حصلتُ على عنوانها ، وأردتُ شراء رسمٍ للجُعران علـى ورقـةِ بـردى رأيتُـهُ في بهوِ الفندق من أجل وضعه في إطارٍ لدى عودتـي . أمـا وقـد نُشِلْتُ ، فقد وجدتُ نفسي مرغماً على العدولِ عـن هـذه المشـتريات وأمضيـتُ اليـومَ الحـرّ الأخيرَ في غرفتي بالفندق ، أقرأُ المرّةَ تلو الأخرى وثـائقَ النـدوة . وبالتـالي ، بقي " فول الجُعْران" " مطموراً في ذلك الدرج وانـزوى فـي مكـانٍ مهمـلٍ مـن الذاكرةِ لن يخرجَ منه ، للأسف ، إلا في فترةٍ متأخرةٍ.

وفي غضون ذلك ، كان وصولُ– وأكادُ أقولُ حلولُ – كلارنس .

ت

كان يومُ الإثنين ، الأولُّ منذ عودتي من القاهرة ، ومع ذلك ، فقد استأ نفتُ عاداتي، ونسيتُ كلَّ ما جرى .وعندما جاءَ البروفسور هوبير فافر-بونتي لزيارتي كعادتِهِ كلَّ أسبوعٍ بقميصه الأبيض ، حاملاً كوباً من القهوة الساخنة في كل يدٍ ، لم يَدُرْ حديثُنا أبداً عن الجُعْران وعلم الآثار الفرعونية بل عن الصحافيين والجراد المهاجر .

تحدَّثنا عن الجراد لأن زميلي هذا قد تخصَّصَ في هذا الوباء ، وعن الصحافيين لأنه كلما غزا الجرادُ منطقةً في العالم – أفريقيا الساحلية عموماً بمعدَّل كلِّ خريفٍ من أصلِ ثلاثة – أقبلَ هؤلاء لمقابلة فافر-بونتي . ولذا، كان العديدُ من الزملاءِ يرونَ أنه يتمتعُ بامتيازٍ عن غير حقٍّ ، لا سيَّما وأنهم مثلي قد اختاروا موضوعاتِ بحثٍ أقلَّ ضرراً للبشرية ، فحُكِمَ عليهم بحياةٍ مهنيةٍ لامعةٍ ومغمورةٍ .

وإذا كان فافر- بونتي مدركاً حظَّه والحسدَ الذي يثيرُهُ لدى الآخرين، فقد كان حريصاً على عدم إظهار ذلك . وعندما يتفشّى "وباؤه" ، يمضي نصفَ الوقتِ مستقبلاً الصحافةَ والنصفَ الآخر يتذمَّرُ منها .

– ها أنت ترى أمامك ، يا زميلي العزيز ، شاباً في عمرِ طلاّبك ، وما أن تنطلقَ في شرحٍ علميٍّ رصينٍ حتى يتوقف عن تدوينِ الملاحظات ويتأمل السقفَ والرفوفَ أو يقاطعك لينتقلَ إلى موضوعٍ آخر . والأدهى من ذلك أنك لا تدري ما هي الترهات التي قد ينسبُها إليك في اليوم التالي . فإذا قُلْتَ :"جراديات في الطورِ القطيعيِّ " ، قال هو:" سرب من الجنادب " .

وربما سعى فافر-بونتي فقط للتقليلِ من شأنِ الامتيازِ الذي يتمتعُ به للتخفيف من نقمةِ زملائه . غير أنني في ذلك الصباح لم أستشف في كلامه

سوى دلالٍ مزعجٍ وغير لائق . وأردتُ أن أفحِمَه دون أن أخلّ باللياقات ، فبادرتُهُ قائلاً :

– لم أُعطِ تصريحاتٍ كثيرةً للصحافة فقط لأنه لم يُطلبْ مني ذلك .

وفي المرات القليلة التي اهتمّت بي الصحافة ، أجبتُ عن أسئلتها برحابةِ صدرٍ ربما ، كغيري ، من أجل إرضاءِ غروري . ولكن السببَ لا يقتصرُ على ذلك. فلطالما اعتقدتُ أنني ، وبداعي الحفاظِ علىصحّةِ العقل ، يجب أن أتوجّهَ قدر المستطاع إلى جمهورٍ غير متخصّصٍ ، إلى مستمعين لا ينتظرون مني علامةً في نهاية السنة . وهكذا نتنّبهُ إلى عاداتنا الكلامية ونتخلّصُ من رطانتنا العلميةِ الغامضة . أنا لا أرى بأساً في أن أقول " سرب من الجنادب " بدلاً من "جراديات " . لن أقولها لطلابي في علم الحشرات . ولكن ما ضيرَ أن أقولَها للجمهورِ العريض ؟

– هل أنت مستعدٌ لقول " سربٍ من الجنادب ترمُقُ بعيونها النَهِمَةِ الحقولَ الخضراءَ المنشودةَ " ؟ . هيا ، قُلْها ! هناك صحافيةٌ سوف تأتي لمقابلتي الساعة الحادية عشرة ، سأُرسلُها إليك . أجل ، سأُرسلُها إليك ، هذا ما سأفعَلُهُ .

– دَعْكَ من المزاح يا هوبير ، أنتَ تعرفُ تماماً أنني لستُ اختصاصياً في هذا المجال .

– أو تعتقدُ أنها ستلْحَظُ الفرقَ ؟

لم أكن متأكّداً إذا كانت هذه الكلمات أو العبوسُ المصاحبُ لها تحملُ ذرّةً من المديح لي . وقام زميلي سريعاً بإلقاءِ كوبِ القهوةِ الفارغِ في سلّةِ المهملات خاصّتي باحتقارٍ وخرجَ من مكتبي مقهقهاً .

لم أحاولْ أن أستبْقيه ، لقد تحدّاني وتظاهرَ بأنه يجدُ الأمرَ طريفاً ، وأنا بدوري وجدتُ قبولَ التحدي ممتعاً .

هكذا دخلتْ كلارنس حياتي ، الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق ، مع تحيّات البروفسور فافر–بونتي " المنشغل" . هذا الحضور غير المفتون ، هذا الحضور غير المتسامح الذي كنت أتمنّاه بكلّ جوارحي ، سوف أمتلِكُهُ طوال حياتي دون تسامحٍ ، ولكن دون ازدراءٍ ، ودون سأمٍ على وجه الخصوص.

أشعر بنفسي مضطّراً ، عند هذا الحّد ، أن أستعملَ كلمة " حب " بالرغم من أنها ليست علميةً شأنها شأن "جنادب" ...

لم أكن قد التقيتُ في حياتي حتىتلك الساعة سوى شخص آخر إسمه كلارنس ، وكان رجلاً ، عالمَ حشرات اسكتلندي ، بحاثةً مرموقاً ومتقدماً جداً في السنّ ؛ أما كلارنس خاصتي فكانت أقلّ درايةً وأصغرَ سناً . وكانت أنثى بكل ما للأنوثةِ من معنى .

أذكرُ أن نظري وقعَ للوهلةِ الأولى على شفتيها اللتين تشبهان زورقين ورديين داكنين يبحران بعيداً كما نرى على بعض الجداريات الفرعونية ، وأنني تأملتُ كتفيها طويلاً فأنا أركّزُ دائماً على الكتفين ، فهما اللذان يضفيان الأناقةَ على الذراع والعنق والصدر والبشرة ، ويحدّدان الهيئةَ والشكلَ وانتصابَ الرأسِ والتناسقَ العامّ للحركات والأشكال ؛ أي أنهما ، باختصارٍ ، يحدّدان الجمال .كانت زائرتي ترتدي كنزةً من صوفِ الأنغورا الأبيض ، متألقةً ومتحفظةً معاً ، تتهدّلُ من كل طرفٍ على أعلى الذراعين ، وتلتفُّ حول كتفين يانعين ، شامخين ، ناعمين ، سمراوين وعاريين . كان الكتفان العاريان غالباً ما يثيران فيّ بأناقةٍ كالهبةِ الخجولةِ حناناً جارفاً ورغبةً عارمةً في مداعبتهما وتوقاً لضمّهما ...

بالرغم من كلّ هذا الوصف ، لن أكذبَ أبداً إذ أؤكّدُ أن جمالَ كلارنس لم يؤثرّ كثيراً في مستقبل علاقتنا . وهذا لا يعني أنني لاأكترثُ أو لم أكترثُ قط للجماليات. لا ، أبداً ، وحقّ الله ! غير أن ما يستهويني دائماً هو

ذكاءُ الروح الذي يصبحُ نعمةً حين يقترنُ بالجمال ، ويغدو نقمةً حين يكون محروماً منه .

عند وصولِ " الصحافية " ، كان جلُّ همّي هو الرهان مع فافر- بونتي . ولذا فقد انتهزتُ الدقائقَ السابقةَ للمقابلة لأحضّرَ في ذهني ما سأقوله وأنتقي المفردات وأنظّمَ تسلسلَها المنطقيَّ . كان عليَّ أن أكونَ واضحاً أمام الجمهور وألا ارتكبَ خطأً يعرّضُني لتقريعِ زملائي . كنت أعرفُ أن لا أحد سيغفر لي أيةَ زلّةِ لسانٍ .

جلستْ كلارنس أمامي ، مضمومةَ الركبتين كأكثر طالباتي خَفَراً . غير أنني كنت أشعرُ أنني الطالبُ وأنها تمتحِنُني . وعندما توقفَتْ فجأةً عن تدوين الملاحظات على غرار هؤلاء الصحافيين الفتيان الذين يثيرون غيظَ زميلي ، شعرتُ بنفسي قد تزعزعتُ ، وراحت الكلماتُ تتعثّرُ في حلقي ، فأنهيتُ بجملتين خطابيَ المسهَبَ ، وتلعثمتُ قائلاً :

– ... ربما ابتعدتُ عن الموضوع الذي يهمُّ قراءَك .

– لا ، أبداً ، أؤكّدُ لك .

وانحنيتُ من فوق مكتبي ، محَمّلِقاً في كرّاسها .

– إذا لم تفهمي كلمةً ما ، أُطلبي مني أن أعيدَها دون ترددٍ . فكما تعلمين ، ليسَ من السهلِ التخلُّصُ من الرطانةِ العلمية .

– أنا أفهمُ تماماً ما تقول، فأرجوك ، لا تتوقّفْ عن الكلام !

كانت ابتسامتُها مشعةً واعتراضُها صادقاً ومؤثراً . كل ما في الأمر أن "أرجوك ، لا تتوقف عن الكلام ! " التي تلفّظتْ بها لم تكن تعني " تابعْ تحليلَكَ " بل "لا توقِفْ الموسيقى ، إنها تهدهدني " . وسوف تعترفُ لي لاحقاً أنها وجدتني "مهيباً ورخيماً". لم تتجاسر في تلك اللحظة استعمال هذه الصفات غير اللائقة ، ولكن كلامها أفصحَ عن مشاعرها . لم أكن معتاداً على أن

يتفحّصني الآخرون هكذا ، وانتابني شعورٌ فظيعٌ بأنني موجودٌ تحت عين المجهر الفاحصة .

وأخيراً ، قلتُ لها : – لستُ متأكداً إذا كان هذا هو الشرحُ الذي يناسبُ قراءتَك.

– شرحُكَ يناسبني تماماً ولكنني كنتُ أفكّرُ بشيء آخر .

أجبتُ بلهجةٍ أبويةٍ : – كان ذهنُكِ يسافرُ بعيداً .

– أبداً ، فذهني يُبْحرُ هنا . كلُّ ما أراهُ حولي يدهشني ويلهبُ مخيّلتي: هذا المختبر ، هذه الحديقة والنباتات والحشرات ، وقميصُ العالِمِ الذي ترتديه، ونظاراتك القديمة الطراز ، وخاصةً هذا المكتبُ الجليلُ بدروجِهِ التي تختزنُ علماً غامضاً وقابعاً تحت الغبار سأبقى طوال حياتي غريبةً عنه .

التقطتْ أنفاسها ونفضتْ شعرها الكستنائي كما لو أنها أرادت أن تصحوَ من سباتٍ عميقٍ :

– ها قد بحتُ لك بما يحملُني على الشرود . أما أنتَ ، فكلُّ ما يحيط بك يبدو لك مألوفاً دون سحرٍ أو شاعرية .

– أعترف أن هذا المكان لم يعد يؤثّر فيَّ . أما هذا المكتب ، فأصارحك أنه يثير قلقي . أنتِ ترينَهُ جليلاً ومتراصاً غير أنه ، وراء هذا المظهر الخادع، منخورٌ من الداخل بشبكةٍ من الأروقة التي تمرحُ فيها قطعانٌ من النقّارات المرحة . عندما أعملُ مساءً لساعةٍ متأخرةٍ ، أ تخيّلُ أنني أسمعُ صرير فكّيها . وفي يومٍ من الأيام ، ستكون قد نهشتْ المكانَ لدرجةِ أنني ، ما أن أضعَ محفظتي هنا حتى ينهار كل شيء حولي ويتداعى هذا المكتبُ المحترمُ والمتراصُ من كلّ الجهات ويتحولُ إلى كومةٍ من النشارةِ والغائط. وعندها فقط ، قد تفكّرُ الإدارةُ بإعطائي مكتباً آخر ، هذا ما لم يتهاوى هذا المبنى المتقادمُ عند الإشارةِ نفسها .

وأطلقتْ زائرتي ضحكةً صافيةً ورمقتْني بتلك النظرةِ التي يرغبُ كلُّ رجلٍ أن ترمقَهُ بها النساء . وإذ تملّكتني النشوةُ والحماس وهدأ روعي خفيةً بعد أن رأيتُها تضعُ القلمَ جانباً ، انطلقتُ في خطابٍ صريحٍ حول المتحفِ والأساتذةِ والطلابِ والمديرِ ، ورسمتُ لوحةً هزليةً مضخّمةً وغنيةً كانت لتمتعَ الحضورَ في اجتماعٍ لقُدامى الطلاب . ولكن هل يليقُ بي أن ألقيَهُ على مسامع صحافيةٍ ألتقيها للمرّةِ الأولى ...

- لن تنشري هذا الكلامَ ، أليس كذلك ؟

جاءت الابتسامةُ التي اغتصبتُها في نهايةِ المطاف لتخفّفَ من صرختي المعذّبة. ورمقتني كلارنس دون أن تنبسَ ببنتِ شفةٍ . لم يسبقْ لعينٍ ثاقبةٍ أن تفحّصتْ روحَ حشرةٍ عن كثبٍ كما فعلتْ نظرتُها معي . لا ريبَ أنني ندمْتُ على ثرثرتي ، و أدركتُ أن أيةَ كلمةٍ تنشرُها ستحدثُ القطيعةَ نهائياً بيني وبين طلابي وزملائي وكلّ هذا العالَم الذي اخترتُ ان أضعَ فيه حياتي المفيدةَ. ولكنّ الأمور لم تأخذْ هذا المنحى بعد . لاحقاً ، خلال دقيقةٍ أو ساعةٍ ، سوف أستسلمُ للندمِ وتأنيبِ الضميرِ ، لاحقاً ، سوف أشعرُ بالخجل . أما في هذه اللحظة ، فقد كنت أرى أمامي هذه النظرةَ الأنثويةَ ، ولم أكن قادراً على رؤيةِ بريقِ الاحترامِ فيها يخبو ، ولم أكن أريدُ بأيِّ ثمنٍ أن أفقدَ هيبتي بسبب توسّلٍ دنيءٍ ورعديد .

وتمطيّتُ قائلاً : - أما الآن وقد عهدتُ إليك بوصيتي ، أستطيع أن أرحلَ بسلامٍ عن هذا العالم .

وعندما ضحكتْ ، فهمتُ أنني ربحتُ المعركة .

فاق انتصاري كلَّ توقعاتي ، فقد كان مقالُها الذي نشرَ بعد عشرة أيام قصيدةَ حبٍ تتغنّى بالمتحف وحديقته ، "تلك الواحة المغمورة وسط صحراء المدينة"، و"الملاذ الأخير للغزلان ... ولعلماءٍ تجاوزهم الزمن يلبسون سترةً متهدّلةَ الأطراف أو ما شابه " . كنتُ أنا نموذجاً لهؤلاء العلماء ، وقد أسمتني

بتحفظٍ "البروفسور ج . "، ووصفتْ بعباراتٍ ودودةٍ " هامتَهُ المنتصبةَ حتى طرفِ خصلةِ شعره والمنحنيةَ إلى الأمام لدرجةٍ أنه يكاد لا يقوى على الوقوف منتصباً لو لم يساعدْهُ حذاؤُه الثقيل على التوازن " . وبنفحةٍ شاعرية ، لم تصنع مني باحثاً وأستاذاً فحسب بل أضافت أنني أتفقدُ الحديقةَ والحيوانات كلَّ يوم ، وربما اعتقد القراءُ أنني أطعمُ الغزلانَ بنفسي .

لا شكَّ أنها كانت بحاجةٍ لرسم صورةِ العبقريِّ الفلاّح لتبرِّرَ عنوان المقال : "في جنة البروفسور ج. " . وخلاصةُ القول إنَّ مقالها كان مزيجاً من الخيال والواقع خرجْتُ منه ، والحقُّ يقال ، مُعظَّماً بصورةٍ لا تخلو من المغالاة .

وبالطبع ، فقد أغفلَتْ ذكرَ اعترافاتي لها ، ولكنها لم تذكرْ أيضاً ، ولو تلميحاً ، خطابيَ الرصينَ حول الجرادِ المهاجر !

ث

في غضون ذلك ، كانت العلبةُ التي جلبتُها من القاهرة ترقدُ في درجي بجانب كسَّارةِ بندقٍ مقطَّعةِ الأوصال . وقد اكتشفَتْها كلارنس يومَ أحدٍ يكتسبُ أهميةً خاصةً في حياتي إنما لسببٍ لا يمتُ لهذا الاكتشاف بصلة . فمنذ أشهرٍ طويلةٍ وأنا أسعى جاهداً لإقناعها بالإنتقال للعيش معي في شقتي الفسيحة الكائنة في شارع جوفروا سانت هيلار مقابل حديقة النباتات . وأخيراً، حسمت أمرها في ذلك الأحد .

كنتُ قد اتصلتُ بها بعد نشرِ مقالها ، ثم تلاقينا وتحادثنا وتهامسنا وتعانقنا وتلاصقنا وتحاببنا دون عجلةٍ ودون موعدٍ كما لو أننا تواعَدْنا منذ فجرِ الخليقة. كنا عاشقين ، مسحورين ، منبهرين ، لعوبين حيناً وراشدين ماكرين في فردوسِ الأطفال . أعرفُ بحكم مراقبتي للحشرات أن الحبّ ليس سوىحيلةٍ للبقاء ؛ ولكن كم من الممتعِ أن نتعامى عن هذه الحقيقة .

كنت أجدُ كلَّ شيء في هذه المغامرة عجائبياً وساحراً ومطلقاً ، وأعتقد أن كلارنس كانت تقاسمُني الشعورَ نفسَه ولكنها لا ترغبُ ولا تريدُ الانغماسَ كلياً في حديقةِ رجلٍ غريبٍ .

ربما أخطأتُ عندما استعرضتُ أمامها منذ لقائنا الثاني مجموعةَ الحشرات المُغْمَدَةِ الأجنحة التي أملِكُها . كان لديَّ وقتئذٍ ثلاث مئة نموذجٍ من بينها حشرةٌ عملاقةٌ أفتخر بها ، وكذلك أمُّ أربعٍ وأربعين ذات حجم ملفتٍ ورتيلاءٌ قزمةٌ خارج المجموعة . وأدركتُ من ردَّةِ الفعل الأولى لكلارنس أنني أحتاج لبعض الوقت لأقنعها " بالتعايش مع هذه الأشياء" ، وأنه كان يجدر بي التمهيدَ لهذا اللقاء بمزيدٍ من اللباقة . وبالرغم من أنني كرَّرتُ على مسامعها أن هذه الحشرات التعيسةَ والبائدةَ غير مخيفة شأنها في ذلك شأن مجموعة من العملات القديمة ، وأنها بنظري ثمينةٌ مثلها وتتميّزُ عنها بأنها لا

تجذب اللصوص ... بالرغم من كل هذه التطمينات ، أرغمتني صديقتي، دون أن تحاولَ معارضتي ، على أن أقطعَ لها وعداً ، بصورةٍ رسميةٍ ومضحكةٍ ، بأن علاقتنا مع عالمِ الحشرات ، منذ تلك الليلة وإلى الأبد ، ستكون من نطاق اختصاصي حصراً .

تطلّب الأمرُ أشهراً من التودُّد والحيلة لتتغلبَ على رُهابها المفرطِ وتقبلَ بأن تطأ بقدميها عتبةَ شقتي . أصرّت بأنها لن تطأها إلا بقدم واحدة . غير أنني لم أعد قلقاً، فقد استملتُها إلى دوّامة الحياة المشتركة ، ورحتُ أبتدعُ غريزياً ، يوماً بعد يوم ، كلّ الحيل القادرة على إبقائها بقربي .

جاءت كلارنس لتحتلَّ زاويةً في الخزانة ورفّين في الحمّام ودرجاً لثيابها الداخلية .

وكان هذا الدرجُ يجمعُ كلّ ما هو تافه بمختلف أشكاله : الصدىء والعفن والمهمَل والبالي ... وقد فوّضَتْ رفيقتي إلقاءَ كلّ شيء في سلة المهملات ولكنها حرصت على التحققِ من بطاقاتِ الأدوية .

– لا يوجد تاريخٌ على هذا الدواء ، لا بد أنه موجودٌ هنا منذ زمنٍ بعيد .

نظرتُ إلى العلبة التي أرتني إياها :

– أنتِ على حق ، فهذه وصفةٌ من أيام الفراعنة .

وحكيتُ لها رحلتي إلى القاهرة والندوة حول الجُعْران ، ولم أنسَ الولدين النصّابين في ميدان التحرير .

أصغتْ إلي بكلّ جوارحها ، ثم أفرغتْ في حضنها محتوى العلبة وبدأت تقرأ طريقةَ الاستعمال :

– لقد سمعتُ عن حبّات الفول العجيبة هذه ، ولكنني أراها للمرة الأولى . لقد عرَضَتْ علي صديقةٌ مغربيةٌ في الصيف الماضي أن تجلبَ لي

بعضاً منها ، غير أنني خجلتُ من إظهـار اهتمـامي بهـا . كنـتُ أتوقّـعُ مزيجـاً سحرياً ولكنها تبدو معلّبةً تعليباً جيداً .

وتابعتْ القراءة :

– هل أنتَ متأكدٌ أنك لم تشترها للحصولِ على وريثٍ ؟

كانت نظرتُها تنمُّ عن ريبةٍ ماكرةٍ تجاه الذكور . فرفعتُ يدي اليمنـى أقسمُ قسماً مثيراً للشفقة جاءت ضحكةُ كلارنس لتزيدَه هزْراً . فـاغتنمتُ الفرصة وبادرتُ بالهجوم :

–أخبرني عالم الآثار الدانمركـي أن الرجـال غالبـاً مـا يحجمـون عن ابتلاع حبات الفول هذه ، فتفتح زوجاتهم البرشانة خفيةً وينثرن المسحوق في الحساء .

– أعرف أن المشـاعرَ المعاديـةَ للمـرأة تنتقلُ بالوراثـةِ مـن الأمّ إلـى ابنتها . وعندما يكون المرءُ قد ترعرعَ على ضفافِ المتوسّط مثلـي، لا ينسـى بسهولة هذا الأمر .

كـانت عائلتهـا المتحـدّرةُ مـن مولدافيـا قـد تنقّلـت بيـن سـالونيكا والإسكندرية وطنجة ثم سيت حيث أبصرت كلارنس النور . وقد أصـاب إسمُ عائلتها التحريف والحذف والإضافـة قبل أن يصبـح " نسـميغلو " . وهـل كـان بوسعي الإمتناع عن تسميتها " إيغلو " في خلواتنا الحميمة ؟ وفي أحد الأيام ، شرحتُ لها ممازحاً عن خبثٍ أن هذا اللقبَ يليقُ بها تماماً : " ما هو الإيغلو ؟ إنه كتلةٌ جليدية يشعرُ المرء داخلها بالدفـاء ..." .

احتفظت كلارنس ، بالإضافة إلى اسم عائلتها ، بأكثر ملامح التهجين نبلاً نظراً للهجرات القديمة التي قامت بها عائلتها ، فبدت لـي فينوسـاً إغريقيـةً سمراء ذات لكنةٍ نديّةٍ أتخيّلها، في كل لحظةٍ ، مستلقيةً علـى أحد الشطآن، تنظر إلى الأفق البعيد ، عاريةً ، مبللةً برذاذ الماء .

في يوم الأحد ذاك ، نهَضَتْ دون أن تـترك علبـة " الفـول " وراحـت تـذرع الغرفـة رواحـاً ومجيئـاً ، مشـدودةَ الوجـه ، بخطـى وئيدةٍ كمـا لـو أنهـا متفككةٌ. كم مرة احتضنتْ عيناي مشيتَها وتملّكتني الرغبـةُ بـاعتراض طريقها فاتحاً لها ذراعي. ولكنني لن أحاول ذلك أبداً ، لن أقطعَ ولو مـرةً واحدة حبلَ أفكارها مكتفياً بتأملها وانتظارها ، ذلك أن هذا التوقّدَ يولّدُ دائماً فكرةً عميقةً أو سطحيةً ، وغالباً الإثنتين معاً ، أعرف أنها ستعرضهما أمامي .

– ألا تعتقد أنها تلائمُ مزاجي؟

فول الجُعْران ، ملائمٌ لمزاج كلارنس ؟

وضحكتْ قائلةً :

– إنها لغتنا الخاصة ، نحن الصحافيين . ففي الصحيفة ، يوقّـعُ كبـارُ المحرّرين ، كلٌ بدوره ، زاويةً مرفقةً بصورتـه يطلـقُ فيهـا العنـانَ لمزاجـه . وقد مُنِحْتُ هذا الأسبوع ، وللمرة الأولى ، الحقَّ فـي التعبير عن " مزاجي". لقد ناضلتُ من أجـل ذلـك ، ومنـذ أن أعطتنـي رئيسـة التحريـر موافقتها وأنـا أبحث عبثاً عن فكرة خارجةٍ عن المألوف . وها قد وجدتُها .

كانت تحتضنُ العلبةَ كما لو أنها دليلُ إثباتٍ .

ومن جديد ، راحت تذرع غرفتنـا طويـلاً بخطـى الوحـوش الضاريـةِ المتوثّبةِ قبل أن تتوقفَ فجأةً وتصرخَ منتصرةً :

– أصبح مقالي جاهزاً وما علي سوى كتابته .

وتهاوت على السرير منهكةً متخمةً مشرعةَ الذراعين .

فتوثبتُ بدوري للإنقضاض عليها .

كان " مزاج كلارنس نسميغلو " عبارة عن بعض الفقـرات المحبوكـة جيداً والتي تدورُ حول فكرةٍ بسيطةٍ تتصاعدُ حتى الخاتمة .

لا يوجد هذا المقال بين يديَّ ، ولكنني سأختصره بلغتي النثرية ، كما يلـي تقريبـاً : " لـو تسنّـى للرجـال والنسـاء غـداً بوسـيلةٍ بسـيطةٍ تحديـدَ جنــسِ

أولادهم ، لاختارَ بعضُ الشعوب إنجابَ الذكور، وتوقّف بالتالي عن التناسل وانتهى به الأمر إلى الاندثار . إن تأليهَ الذكر الذي هو حالياً آفةٌ اجتماعيةٌ سيغدو انتحاراً جماعياً. ونظراً للتقدّم العلمي السريع وجمود العقليات ، سوف تتحقق هذه الفرضية في مستقبلٍ قريب . ولئن صدّقنا جُعران القاهرة ، فالأمر قد أصبح حقيقةً واقعة".

لو أردتُ ، لاستحضرتُ بالضبط الكلمات التي استعملتها كلارنس ، وهي كلماتٌ أكثر بلاغةً من كلماتي . غير أنني أغفلتُ ذلك عمداً . فقد قالتها بنبرةٍ انفعالية ومرحة على حدٍ سواء قد تُظهرُ قراءتُها مجدّداً مدى فظاعتها بعد كلّ ما حدث .

فظاعتها ؟ كم هذه الصفةُ بعيدةٌ كلَّ البُعد عن كلارنس . لا شك أن موقفها كان سطحياً بعض الشيء ، ولكن نوعيةَ المقال ، " رسالة مزاجية " ، تحتّمُ ذلك ، فهو كالفراشة يجب أن يكون هوائياً وعابثاً . وقد عبّر موقفها أيضاً عن بعض اللاوعي، ولكن ألم يكن ذلك حالنا جميعاً ؟ نحن نعرف ذلك الآن ، نعرف أن وسائل الإعلام تنشر اللاوعي كالضوء الذي ينشر الظلال ، وكلما كان الضوء الكاشف حاداً ، كلما تكثّفت الظلال . لقد أفادت الصحف ، بين الحين والآخر ، عن بعض الظواهر الغريبة . فقد شهدت الصين ، منذ الثمانينات ، ولادة ذكور أكثر من ولادة الإناث في بعض الأقاليم ، وقد فسّر لنا الإختصاصيون تلك الظاهرة بهدوء آنئذٍ معتبرين أن العائلات التي ترغمها السلطات على الاكتفاء بطفل واحد تتخلّصُ من المولود إذا صدف أن أساء اختيارَ عضوه الجنسي . وقد أعرب العالم عن تعاطفه لمدة ٤٨ ساعة ، ثم وقع الخبر في طاحونة الابتذال العالمية .

لا أسعى إلى تبرئة ساحة كلارنس فأنا أعرف أنها أخطأت بالتهكم من " الإبادة الذاتية التي تقوم بها الشعوب المعادية للمرأة " ، ولكن الأمر

يقتضي استعادة ذهنية تلك الفترة ، فقد كانت حقبة يجب الإنفعال فيها فوراً من كلّ شيء وعدم الاهتمام بأيّ شيء لفترةٍ طويلةٍ .

فقد دوّت الصرخةُ ذات يومٍ بأن تلك الحاضرةَ الأفريقيةَ سوف تبادُ عن بكرة أبيها بسبب الوباء . هل كان ذلك صحيحاً ؟ أم خطأً ؟ وشيكاً ؟ أو افتراضياً ؟ كان كل شيء يعومُ في الضجيج المألوف عينه . وقد بقيتُ بدوري مذهولاً لفترةٍ طويلةٍ بالرغم من معاشرتي الصحية لحشراتي .

أقول ذلك لأؤكّدَ أن لا أحد يحقُّ له رجمَ كلارنس بالحجارة . كانت تتهكّم ، وقد ابتسم قراؤها ، والرسالة اليتيمة التي تلقّتها بعد نشر مقالها جاءت من سيدةٍ طلبت منها العنوان الدقيق للحصول على " فول الجُعران" والمكان الذي يمكن العثور عليه.

أما أنا فقد وجدتُ في الموضوع الذي تناولته صديقتي الذريعة المثلى لطرح مسألةٍ أخرى عزيزةٍ على قلبي : أما آن الأوانُ لننجبَ طفلاً ؟ كنت وقتئذٍ في الواحدة والأربعين من العمر ، وهي في التاسعة والعشرين . لم يكن الزمن يقضُّ مضاجعنا ، أعني من الناحية الفيزيولوجية ؛ غير أن المسألة كانت تستحق أن تطرح على بساط البحث . لم تكن كلارنس تعارضُ مبدأ إنجابِ طفلٍ ، أو إنجابِهِ معي ، ولكنّها كانت تقول لنفسها إنها ترغبُ ، بسبب " ارتقائها" في الصحيفة ، أن تكتبَ وتصبحَ معروفةً لدى القراء ، ترغبُ بالتجوال حول العالم. أليس العالم حافلاً بعجائبَ تستحقُّ الوصفَ وبانتهاكاتٍ فاضحةٍ يجب التنديدُ بها ؟ كانت تعتزم إجراءَ تحقيقاتٍ في روسيا والبرازيل وأفريقيا وغينيا الجديدة ... وفكرةُ الحملِ في القريب العاجل هي "حجرُ عثرةٍ" حسب تعبيرها وكذلك العناية بطفلٍ رضيعٍ . ووعدتني أنها ، عندما تصبح مشهورةً ولا يمكن الإستغناء عنها تقريباً في المستقبل ، قد تسمح لنفسها بإجازةٍ لسنةٍ من أجل رعايةِ طفلنا .

قبلتُ بهذه التسوية عاقداً العـزم علـى إثـارةِ الموضـوعِ مجدّداً مـا أن أستشف أقلّ فرصةٍ سانحة . لم أكن أستطيعُ الإلحاحَ على كلارنـس غـير أنّنـي رأيتُ من واجبي أن ألحظَ نفاذَ صبري . لا أدري إذا كان الكثـيرُ مـن الرجـال يشبهونني في ذلك ، فلطالما رغبتُ ، حتى في سـنّ المراهقـة ، أن أحمـل بيـن ذراعيَّ إبنةً من لحمي ودمي . ولطالما اعتقدتُ أن ذلك سوف يمنحنـي سـعادةً عارمةً لن تكتمل بدونها حياتي كرجل . لطالما حلمتُ بتلك الإبنة التي رسـمتُ ملامحَها وصوتَها وأسميتُها بياتريس . لماذا بياتريس ؟ لا بدَّ من سببٍ لذلـك ، غير أنني ، عندما أسترجعُ ذكرياتي ، لا أكتشـف أيّ مـبرّرٍ للإسـم الـذي كـان موجوداً فقط كنبتةٍ يانعة .

عندما لفظتُ هذا الإسم للمرة الأولـى أمـام كلارنـس ، أعربـت عـن غيرتها وقهقهتْ لحَمْلي علـى الاعتقاد بأنهـا تداعبنـي . ولكـن ضحكَتهـا كـانت مفتعلةً ، فقد أدركتْ أنني لن أحبَّها إلى الأبد لو أرغمتني على العدول عن هـذا الحلم، وأن عليها القبول بالتعايش إلى الأبد مع عالمي الصغير برفقة بيـاتريس، بصـورةٍ أكـثر حميميـةً مـن حيـاتي مـع عـالم الحشـرات . لقد أصبحت هاتـان المرأتان من الآن فصاعداً موضعَ عشقٍ وتأليهٍ عندي . وصمّمتُ ، ما أن تأخذ كلارنـس هـذه السـنة الموعـودة ، علـى أن أطلـب بـدوري سـنةً سـابعةً بداعـي الأبوّة.

وقبل أن أعرف موعدَ حلولِ هذه السـنة ، أطلقتُ عليهـا إسـم " سـنة بياتريس".

ج

صبرتْ كلارنس طويلاً وناضلت وفاوضت قبل أن تقرّرَ صحيفتُها إرسالها في أولِّ مهمةٍ صحفيةٍ مهمةٍ لها في الخارج ، وتحديداً في الهند ، وذلك للعودة بتحقيقٍ حول النساء اللواتي يُحْرَقْنَ أحياءً ، وهن لسنَ فقط تلك النساء اللواتي كانت تحكمُ عليهنّ عاداتٌ وموروثاتٌ جائرةٌ فيما مضى بالموت حرقاً لدى وفاة أزواجهن ، بل أيضاً النساء اللواتي غالباً ما يكنّ يافعات وتصب عليهن أسرةُ الزوج الكيروسين وتعمد إلى إحراقهنّ أحياءً بسبب حسابات إرثٍ دنيئةٍ ، وهي عادةٌ أحدثُ عهداً ولكنها للأسف لا تزال تمارَسُ بحقهنّ .

كان من المفروض أن يستمرَّ التحقيقُ عشرةَ أيام وينتهي في بومباي حيث تقلُّ الطائرةُ كلارنس ليلاً فتصل إلى باريس الساعة السادسة صباح يوم الجمعة .

عشيةَ يوم الجمعة ، وبينما كنت أعتقد أن طائرتها على وشك الإقلاع، سمعتُ صوتها عبر الهاتف ، وسط صريرٍ وهديرٍ ، يطلبُ مني ، بعد تحيةٍ عجولة ، إذا كنت أذكرُ أين وضعتُ " فول الجُعران " الذي اشتريته من القاهرة .

وإذ وضعتُ السماعة جانباً ، ذهبتُ لأحضر العلبة من الدرج حيث نجَتْ وحدها من حملة التنظيف وأصبحت محاطةً بثياب كلارنس الداخلية الناعمة والمعطّرة .

– أريدُ منك أن تقرأ لي طريقَة الاستعمال ، النصَّ الإنكليزي .

ـ هكذا ، على الفور ، عبر الهاتف من باريس إلى بومباي .

وتذمّرتُ قائلاً : – كم أنت بعيدةٌ يا كلارنس !

- هذه الليلة ، عندما تغلقُ عينيك ، تخيَّلني بقربك وضُمَّني بقوة ، أعني إذا كنتَ وحدك .

- أعدُك بذلك ، إذا كنتُ وحدي .

- وإذا لم تكن وحدكَ فأعلِمني بالأمر حتى لا أمثّل بغباءٍ دورَ الزوجة المخلصة!

وصدحت ضحكتان متواطئتان أعقبهما صمتٌ طويلٌ حميمٌ ، ثم عادت فوراً إلى الموضوع الذي يشغلها :

- أرجو أن تلفظ بوضوحٍ قدر الإمكان وبصوتٍ مرتفعٍ . سوف أسجّلُ صوتك وأعيدُ سماعَهُ بهدوء .

وبعد أن طلبتْ مني أن أعيدَ لفظَ أكثر الكلمات تعقيداً ، أخبرتني أنها تنوي تمديدَ إقامتها قليلاً وطلبت إعلامَ الصحيفة .

وهذا ما أسرعتُ القيامَ به صباح اليوم التالي . وبدت موريل فاست، رئيسة التحرير مدهوشةً وحانقةً . كانت كلارنس قد اتصلت بها قبيل ذلك وأخبرتها أن التحقيق قد انتهى وأصبح لديها مقالٌ من ستّ صفحاتٍ على أقلّ تقديرٍ وصور لم تنشرْ من قبل .

- ... وها هي تتصلُ عشيةَ طبعِ الصحيفة لتقولَ إنها لن تصلَ في الموعد المقرّر . هل ترى أن تصرّفها يليق بصحافيةٍ ممتهنةٍ ؟

أجبتُ متلعثماً كوالد تلميذٍ مشاغبٍ :

- أفترضُ أنها حصلتْ في اللحظة الأخيرة على معلوماتٍ جديدةٍ ومهمة .

- أرجو ذلك ، من أجلها .

وأنا بدوري كنت أرجو ذلك من أجلها ، وأخشى العداءَ الذي يتربَّص بها عند عودتها .

لم ألتقِ قط موريبل فاست ، ولم أكن أعرفها إلا من خلال الوصف المقتضب الذي قامت به كلارنس ، " إنها أشبه بوكيل عمّالٍ بدينٍ يلبس تنانيرَ مجعَّدةً"، وأعترف أن هذ الاتصال الهاتفي الأول لم يشعرني بحرارةٍ إنسانيةٍ متأجّجةٍ . كنتُ أعرف أن صديقتي لن تتوقّعَ منها لا الصبرَ ولا التسامحَ ، ولكنها قد تحظى باحترامها لو عادت من بومباي بسبقٍ صحفيٍّ...

ولم أفهَم سوءَ تقديري سوى مساء الأربعاء عندما لمحتُ الدموعَ في عيني كلارنس للمرة الأولى منذ بداية علاقتنا .

وصلت إلى باريس بعد الظهر وأقلّتها سيارة الأجرة مباشرةً إلى الصحيفة حيث كان مجلس التحرير ملتئماً .

دفعتْ الباب بحماسٍ على الرغم من وعثاء السفر ضاحكةً وحيَّت الحضور بانحناءةٍ شرقية ويدين مضمومتين . قرَّبت مقعداً محدثةً ضجيجاً وبدأت تخرج أوراقها ... لتفاجأ بزمجرةٍ متضجّرةٍ :

– فلنستعدْ باختصارٍ ما فعلتِ ! كنتِ في بومباي ومعك مقالٌ وصورٌ ننتظرها في باريس وحجزنا لها بناءً على طلبك ستَّ صفحاتٍ كاملة . وفجأةً ، في اللحظة الأخيرة ، تقرّرين تغييرَ مشروعك ومشروعنا . أفترض أن حدثاً استثنائياً قد وقع ؟ فما هو ؟ أنا أتشوّقُ لمعرفته .

لم تعد كلارنس ترغبُ بتبرير موقفها بعد أن باغتها هذا اللقاء . نظرتْ طويلاً إلى رئيسة التحرير وزملائها والسقف والباب ووضعت يدها على أوراقها كما لو أنها تهمُّ بجمعها . أحجمتْ مرةً أخرى قبل أن تقرر أخيراً تقديم التبرير المطلوب منها . وأعتقد أنها أخطأت ، فبعد هذا التمهيد ، كان كلُّ ما ستقوله سيبدو تافهاً وسطحياً وغثاً . وما أرادت قولَهُ لم يكن في الواقع لا مذهلاً ولا فريداً . ومع ذلك ، فلو كان الحضور يتمتعون برحابةِ الصدرِ وذرَّةٍ من الخيال وبعضِ التفهُّم لاستشفّوا وراء كلام صديقتي المتعثِّر الخيوطَ الأولى للمأساة التي تتحضَّر .

مـاذا أخبرتْهُم كلارنس ؟ لقد قرَّرت لملء الساعات الأخـيرة فـي بومبـاي التنزهَ فـي شـارع "مـارين درايـف" قـرب حـي " تشـوباتي"حيـث اصطدمت عن غـير قصـدٍ ، وسط الزحام البشري المبرقش ، ببسطةِ بـائعٍ صغير السن فأوقعت أرضـاً أكوامَ العلبِ التي كـان يعرضُها علـى المـارَّة المتهافتين على شرائها . ومن قبيل الفضـول ، وربمـا الرغبـة بـالتعويض عن تصرّفها الأخرق ، اشترت بدورها علبةً فاكتشفت في داخلها نسخةً شبه مطابقة لما اشتريتُهُ في القاهرة العام المنصرم، مـع فـارقٍ وحيدٍ أنهـا تحملُ صـورةً لأفعى كوبـرا ملتفةٍ حـول الجُعْران . وعندئذٍ ، اتّصلتْ بـي لنقـارن طريقتي الاستعمال اللتين كانتا متطابقتين ما عدا بعض الاختلافات الطفيفة .

لم تكن دون شكٍ لتعيرَ هـذه المصادفـة أهميـةً لـو لا أنهـا التقـت، قبل يومين، خـلال قيامهـا بـالتحقيق الصحفي فـي قريـة غوجـارات، امـرأةً هرمـةً متغضنةَ البشرة قالت لها أشياءً مذهلةً . فبعـد أن تحسَّرَتْ علـى حفيدتهـا التـي ماتت حَرَقاً بعد أسابيع قليلة على زواجها ، تنبأت بأن هـذه المأسـاة لـن تتكرَّرَ لاحقاً لأن كل النساء فـي القريـة وجوارهـا أصبحن ينجبن ذكـوراً كمـا لـو أن الإناثَ فضّلن عدم المجيء إلى هذا العالم بعد أن تنبّهن للنوائـب التـي تـتربّص بهنّ".

وإذ تفحّصـت كلارنـس العلبتين اللتيـن تحمـلان بحـروفٍ عريضـةٍ الشعار التفخيمي التالي بالإنكليزية " المسحوق العجائبي لتنشيط النسل " والـذي اختصره البائع بصورةٍ معبّرةٍ بـ " فول الذكـور " ، تذكّرتْ علـى الفـور الجدةَ المسنّة التي حدّثتها بصوت العرّافة اللاهـث الـذي يفلـت مـن فمهـا الخـالي مـن الأسنان. وقد اعترفت كلارنس أن الفضول تملّكها وشعرت بنفسها " مصدومـةً على نحوٍ غريـب" وراغبـةً فـي متابعـة التحقيـق ؛ ولـذا قـررت تـأجيل سفرها وقصدت في اليوم التالي دارَ توليـدٍ كبيرةٍ فـي بومبـاي علـى أمـل اللقـاء بـأحد الأطباء النسائيين عساه يؤكد حيرتها على الأقل .

كان المبنى مدهوناً حديثاً ويقع وسط حديقةٍ رائعة ، مرتبة بعناية فائقة ، لا يشبه لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ المشافي والمستوصفات التي صادفتها في هذه البلاد حتى الساعة . وقد استقبلوها في بادىء الأمر على أنها أميرةُ "ماهاراني" ، وما أن لفظت كلمة " صحافية " ، وحتى قبل أن تسنح لها الفرصة لتقول بأنها جاءت لتحقق بشأن الخلل في الولادات ، تجهّمت الوجوه، ولم يعد أيُّ طبيبٍ قادرٍ على استقبالها، لا في ذلك اليوم ، ولا يوم الإثنين ، ولا في الأسابيع القادمة . ورضي شخصٌ واحدٌ التحدث معها قليلاً ، وهو أحد الممرضين ذو شاربٍ كثٍ أسعفها الحظ في مصادفته لدى مغادرتها قرب البوابة ، ولم يجد حرجاً في إخبارها بأن " هذا المركز الطبي مباركٌ من السماوات لا ريب بما أن كل المواليد فيه هم ذكورٌ في أغلب الأحيان " .

وعندما وصلت كلارنس إلى هذا الحدّ من روايتها ، كان أعضاء مجلس التحرير منقسمي الآراء ، والثلث لم يخفِ امتعاضه والثلثان الباقيان طفقوا يسخرون ، وهتف أحد الزملاء المتعاطفين : " ها قد حصلنا على سبقٍ صحفي! إعترافات ممرّضٍ في بومباي : أعضاءٌ ذكريةٌ في كل مكان " .

وعلّقت رئيسة التحرير مقطبةً حاجبيها باستياءٍ إزاء أكثر الضاحكين هزراً : " إذا فهمتُ جيداً ما قلتِهِ ، فقد انطلقتِ من استنتاجٍ مفاده أن البرشانات نفسها تباع في القاهرة وبومباي . أود أن ألفتَ انتباهَك لما في ذلك من فائدة أننا نجد في ماكاو وتايبيه وكذلك في مدن آسيا الشرقية الأخرى المئات من صانعي المراهم والمساحيق واللصقات والأكاسير التي يعتقد بأنها كلها سحريةٌ، وهي مصنوعة من حجر القمر أو أظافر الغوريلا أو قشور الجعران أو قرون وحيد القرن ويجري تداولها في شتى الصفقات الحقيرة والمربحة والمشبوهة . ولطالما وُجِدَ الملايين من الجهلة لتصديق هذه الأكاذيب وإثراء الدجّالين . وأتمنى يا كلارنس أن يكون الأمر بالنسبة لك مجرّد ضياعٍ عابرٍ ، فنحن نعتمد عليك لمعالجة موضوعاتٍ تهمُّ النساء ، والله وحده يعلم كم هـ

كثيرةٌ ومثيرةٌ ومؤثّرة . أما إذا كنتِ تنوين خداعنا بروايات العجائز ، فذلك يعني أننا لم نعد نفكّر على نفس الموجة ".

كان بوسع صديقتي أن تدافع عن نفسها ، أن تبين لهم سوء تقديرهم لنواياها... ولكن ما فائدة الكلام في هذا الجوّ ؟ كان كلُّ همّها ألا تنهار أمامهم لفرط ما كانت تشعر بوطأة السفر على ساقيها وكتفيها . ولكنها حافظت على رباطة جأشها بشجاعةٍ دون أية نظرةٍ متوسّلةٍ ، ولزمت الصمت . وفي كل الأحوال ، خانَها حلقُها .

هل كتبتُ أنها ذَرَفَتْ دموعاً سخيةً ؟ حدث ذلك ليلاً في سريرنا ، بين ذراعيَّ، كما لو أنها أرادت أن تنأى عن كل أضواء العالم . وإذ شعرتُ بنفسي أكثر تأثراً منها لسماع نحيبها الصامت ، رأيتُ أن أخفّف عنها هامساً في أذنها بصوت الذكر الحنون :

– إذرفي الدمع ما طاب لك هذه الليلة ولكن عودي إلىالمواجهة غداً فوحدها المرارة كفيلةٌ بهزيمة الإنسان .

ثم تابعتُ معلناً بفخامةٍ ساذجة أملاها عليَّ انفعاليَ الشديد :

– سأساعدك إن لزم الأمر .

وجدتْ في نفسها القوة على الإبتسام ، ونهضت متكئةً على مرفقيها، وطبعت على شفتيَّ قبلةً حنونةً ثم استلقت من جديد .

– حتى ولو كان كلامي نابعاً من شدة تأثري ، يجب ان تأخذي اقتراحي على محمل الجدّ ، فأنا مقتنعٌ أن مهنتك ، في بعض جوانبها ، لا تختلف عن مهنتي .

– عجباً ، وما هو وجه الشبه بين صحافيةٍ وعالم حشرات ؟! إنتبه لما ستقوله ، فأنا اخترتك تحديداً لأنك تنتمي إلى عالمٍ مختلفٍ عن عالمي . وإذا برهنتَ لي العكس ، سأهجرُكَ .

وهذه المرّة ، انتصبتْ على السرير وظهر على وجنتيها أن دموعها بدأت تجف.

وقلتُ بشيء من المبالغة عمداً : – أنا مقتنعٌ بأننا نمارس المهنة نفسها ، مع بعض الاختلافات . فأنا أمضيَ الوقت في مراقبة الحشرات وتوصيفها وتحديد أسمائها . ولكن ما هو أكثر إثارةً هو دراسة طور الانتقال من اليرقانة إلى الحشرة مروراً بالحَوْراء .

" لقد اكتسبت كلمةُ يرقانة في اللغة المتداولة إيحاءاتٍ لزجةً مع أن أصلها باليونانية يعني القناع بكل بساطة ، فاليرقانة مجرد تنكُر ، والحشرة تخلع تنكُرها في يوم من الأيام وتُظهرُ وجهَها الحقيقي . وربما تعرفين أن الإسم العلميّ للحشرة التي اكتملتْ هو " إيماجو " أو " صورة" .

من اليرقانة إلى الحشرة ، من الدودة القبيحة والزاحفة إلى الفراشة البهية ذات الألوان الزاهية ، نشعر أننا ننتقل من حقيقةٍ إلى أخرى علماً أن الدودة تحتوي أصلاً على كل المقوّمات الجمالية للفراشة .

ومهنتي تتيحُ لي من خلال اليرقانة قراءةَ صورة الفراشة أو الجعران أو الرتيلاء. أراقب الحاضر وأستقرىء المستقبل ، أوليس الأمر رائعاً ؟

والصحافي ، أين يكمن شغفه ؟ هل هو يقتصر على مراقبة الفراشة والرتيلاء البشرية ودراسة طريقة قنصهما وتناسلهما ؟ لا . إن مهنتك تصبح راقيةً وفريدةً عندما تسمح لك باستشراف المستقبل من خلال الحاضر ، ذلك أن المستقبل كله موجود في الحاضر و لكنه مقنّعٌ ومرمّزٌ ومشتّتٌ .

ألستُ محقاً عندما أقول إننا شبه زميلين ؟ " .

ولئن عجز تحليلي عن إقناع كلارنس ، فلقد تمكّن على الأقل من إعادة البسمة إلى ثغرها .

وبعد ثوانٍ قليلة ، استَسْلَمَتْ للرقاد ، ووجهها مطمورٌ في باطن كتفي، وتركتني فريسةً لأرقى أنواع الأرق ، وأعني به ذاك الأرق الذي

تتلاطم فيه الأفكار وتنبجس في أكثر أسراره غموضاً أقباسٌ خاطفةٌ كمغارةٍ وسط العاصفة.

لن أزعمَ إنني أدركتُ كل شيء في تلك الليلة ، بل سأقول بتواضعٍ، حتى لو بدا كلامي مشوشاً ، انني فهمتُ فجأةً أن هناك شيئاً يجب إدراكه بينما كنتُ أصغي إلى صديقتي الراقدة وأشمُّ حرارة جسدها الدبقة وأتأمل بحنانٍ أخاديدَ الدموع الباقية على وجنتيها . فهمتُ أنه شيءٌ جوهري على ما يبدو.

ولذا قررتُ استشارةَ شخصٍ أشعر تجاهه منذ فترةٍ طويلةٍ بثقةٍ عمياء.

ح

لا أذكر أن كلارَنَس التقت أندريه فالوريس . كـان صديقـي الحميـم ، ولكن صداقته لم تكن تطيقُ تطفُّلَ شخصٍ ثـالثٍ حتـى ولـو كـان هـذا الشـخصُ المرأةَ التي نحبُّ .

كانت صداقتنا قديمةً قـدمَ الطفولـة ، فهـو كـان أصـلاً صديقـاً لوالـدي وبمثابة عرّابي . وأقولُ " بمثابة " لأن الأمر لا يتعلّـق بعمـادةٍ بـل برعايـةٍ فـي الحياة وهو دورٌ كان يضطلع به بمزيجٍ من الحرارة والإجلال .

اعتدنا اللقاءَ مرتين في العام ، في آخرِ أحدٍ مـن شـهر تشـرين الأول بمناسبة عيد ميلادي ، أي في ٣١ ت١ ، وفي أول أحدٍ من شـهر أذار بمناسبة عيد ميلاده بما أنه ولد في ٢٩ شباط ، ذاك الموطن اللعـوب الـذي تنتمـي إليـه قلةٌ من الأشخاص . لم يكن أحدنا يحتاج للإتصال بـالآخر أو للتذكير بـالموعد أو تأكيده ... أو إلغائه أو تغيير الساعة أو المكان ... ففي اليوم المحدّد ، كنتُ أصلُ عنده الساعة الرابعة عصراً ، ويكون هو قد حـرص علـى البقـاء وحيـداً في الشقة الفسيحة ذات الجدران الخشبية الفاتحة والأروقـة اللامتناهيـة ، أتبعـهُ وأجـد إبريـقَ الشـاي علـى الطاولـة ، وعطـر البرغـاموت يتضـوّع مـن الشـاي المسكوب في فنجانين قرب أريكتينا التوأمين.

كنتُ ، عندما أهمُّ بالجلوس، أضع قرب فنجانه علبةً من الزلابية التي اشـتريتها مـن بـائع الحلـوى المفضّـل عنـده ؛ فيحـلُّ الشـريط المعقـود قـائلاً علىالدوام:"لماذا تكبّدتَ هذا العناء! " . ولكن ، بالتأكيد ، كان عليَّ أن أتكبّده ، فقد كانت الزلابية جزءاً من طقوسنا ، والوقود الذي يغذّي أحاديثنا. وكـان هـو عـاجزاً عـن مقاومتهـا إلا عندمـا تبقـى قطعـةٌ واحـدةٌ يعرضـها علـيَّ وأرفـض فيلتهمُها ، أنا متأكد ، فور انصرافي .

لن أفاجيء أحداً بالقول إن أندريه سـمين ، وقد تكون صفة " بدين" أصحّ لوصف شكله الخارجي . كان طويلَ القامة ، ملتحياً وبديناً . ولكن هذه الكلمـة ليست بنظـري وفـي وصفـي إنتقاصيـةً ، فـالبدينون علـى أشـكالهم لا يتشابهون ، وأندريه كان بديناً يانعاً ، رجلاً من هؤلاء الرجال الذين نموا حول هامـةٍ عاديـةٍ وتوسّـعوا توسُّعاً متناغمـاً ، وهـم يتمتعـون ، داخـل هـذا الغـلاف الخارجي ، وربما لتكذيبه ، برهافة الذوق والحسّ أكثر من غيرهم. غير أننـي أشـعر ببعـض الخجـل لأننـي وصفـتُ أندريـه فـالوريس بهـذا الاسـتطراد حـول الزلابية بدلاً من الحديث عن الهدايا التي كان هو يقدمها لي بالمقابل .

أذكر أنه توجّهَ إلى مكتبته في الطـرف الآخـر مـن البهـو عنـد انتهـاء زيارتي الأولى.كانت كلُّ الكتب مجلّدةً تجليداً قديماً ومتشابهةً للنـاظر إليهـا مـن بعيد. انتقى كتاباً وناولني إياه . "رحلات جليفر " . وسمح لي بالاحتفـاظ بـه . كنتُ في التاسعة من العمر ، ولا أدري إذا كنتُ قد لاحظتُ أن موضعَ الكتـاب بقي فارغاً في الزيارة التالية .وعلى مرّ السنين ، تزايدت الفراغات في المكتبـة التي كادت تبدو خاويةً . لم نتحدّث أبداً عن ذلك الأمر ، غير أنني فهمـتُ فـي نهاية المطـاف أن هـذه الأمـاكن الخاويـة سـتبقى كذلـك ، وأنـه يعتبرهـا مقدسـةً شأنها شأن الكتب ، وأن هذه المجلّـدات الداكنـة المحفـورة فـي الجلـد الأصهـب تحتضنُ كلَّ حبّ البشر الصامت وبحثهم الفخور .

عندما كان والـدي علـى قيـد الحيـاة ، كنـتُ ألتقـي أندريـه أحيانـاً فـي مناسباتٍ أخرى ، ولكن علاقتنا لم تختلف حينئذٍ عن علاقته ببقيـة المدعويـن . فلا شيء يذكّر ، ولـو تلميحـاً ، "بحديثنـا" ، حديثنـا بصيغـة المفـرد كـان هـو القاعدة ، وغالباً ما يستمرُّ من فصلٍ إلى آخر ، فيستقبلني أندريه بعبـارة " أيـن كنّا ؟ " فيها تحدٍ مبطّن أو بعبارة "كنت أقول إذن" . كان الأمرُ لعبةً وكل شـيء معه كان لعبةً ، ولكن اللعبة التي تستمرُّ حياةً بكاملها بدون أن تتخلّلها ضحكـةٌ

واحدةً ، هل تبقى لعبةً ؟ كنت أعتمد عليه ليحافظ إلىالأبد على هذا الغموض المثير .

عمّا كان يدورُ حديثنا ؟ غالباً ما كان يدور حول الكتب التي أهداني إياها . ففي ما يتعلق برحلات جليفر ، تحدثنا مطولاً عن معركة الأقزام الطاحنة والدموية حول طريقة كسر البيضة ، وهل يجب كسرها من طرفها الدقيق أو طرفها الأدقّ ، وحاولنا تعدادَ النزاعات التي نعرفها في أرجاء العالم والتي قد تذكّر بالمشاجرات بين أنصار الطرف الدقيق وأنصار الطرف الأدقّ. وكان موضوع الحديث يختلف باختلاف الكتب وتنوّعها ، من "دون كيشوت" إلى"أفضل العوالم " و " الكوميديا الإلهية " ، ولكن الأمر لم يقتصر على الكتب. فقد كنت أكتشفُ كلَّ شيء ، وأندريه يمتلك تلك القدرة القديمة التي يتمتع بها المربُّون الذين يوهمونك بأنك كنت تعرفُ دائماً ما يعلمُّونك إياه لتوّهم .

وفي السنوات الأخيرة ، كنا نتحدّث بشكلٍ خاصٍ عن النساء والزمن أي عمر الكائنات والأفكار . وكنا نتحدث أيضاً عن مهنتي التي تثير فضوله ، وعن مهنته في أغلب الأحيان .

كان يحلم في طفولته أن يكون مخترعاً ، ولكن والده أراده أن يدرس المحاماة وقد أذعنَ لمشيئته . غير أنه عاد بحيلةٍ عبقريةٍ إلى شغفه الأول ، فتخصّص في التقنيات الحديثة ، وهو مبحثٌ قانوني أسهم هو في إرساء أصوله ، من البطاقاتِ المُمَغْنَطَة إلى التخصيب الاصطناعي، من آثار الإشعاعات إلى المحطات الفضائية ، كانت كلُّها حقائق جديدة أدّت إلى خلافاتٍ قانونيةٍ لم يلحَظْها أيُّ نص قانوني ، ففقدت عبارات مثل " قرصنة" و"انتحال" و"ملكية" و" ضرر" دلالتها الشائعة حتى أن بعض الكلمات مثل"حياة" أو "موت" أصبح بحاجةٍ للتعريف من جديد . كانت كلُّ قضيةٍ بالنسبة لأندريه فالوريس ذريعةً للقيام بتحقيقاتٍ مطوّلةٍ غالباً ما تستمرُّ حتى بعد صدور الحكم،

ولم تكن دائماً علميةً أو قانونيةً . كان يزعم أن ملفاته تتضمن أحياناً معضلاتٍ نفسيةً أكثر تعقيداً من المحاكمات الجنائية .

كان يحدّثني عن كل هذه الجوانب فـي مهنتـه، ويحـاول أحيانـاً سـبر شعوري، وأعتقد أنه كان يـأخذه فـي الحسبان . وغنـيٌّ عن القول إنني كنت أحترم أفكاره وآراءه . غير أنني ، حين أعرض أمامه مشكلةً تقضُّ مضجعي، لا أفعل ذلك دائمـاً طلباً للمشورة بل بدافعٍ آخر لم أستطع في ذلك الوقت تحديده، ولكنه يبدو لي اليوم بدهياً وجلياً ؛ فأنا أعتقد أنني ، خلال صداقتنا، "أودعتُ" بعض الأفكار في أذنيّ أندريه كما نزيح حملاً ثقيلاً عن كاهلنا أو نلقي بذرةً على تربةٍ مألوفة . ففي رأسه ، لا تضلُّ الأشياء السبيل بل تتابع مسارها ، وعندما كنتُ أصادف فكرتي من جديد ، تكون قد أينعت وصارت لها جذورٌ وأغصانٌ ، وغالباً ما تكون قد صُقِلَتْ حتى أكاد لا أعرفها .

شاءت الصدف أن أزورَ صديقي يوم الأحـد الـذي أعقـبَ عـودةَ كلارنس . كنتُ قد حدّثتُه عن علاقتي بها ، وهذه المرّة صارحته برغبتنا في إنجابِ طفلة . ثم تحدّثتُ مطوّلاً عن الرحلة التي قامت بها صديقتي إلى الهند، وتحقيقاتها ومتاعبها مع الصحيفة ، وأسهبتُ في التفاصيل وكنتُ أسرد الوقـائع بحماسٍ واندفاع .

أصغى إليّ أندريه بانتباهٍ كعادته ، وبقي ساهماً لبضع لحظات خِلْتُهَا دهراً ، ثم سألني بنبرةٍ جدية :

– وماذا لو كان الطفل ذكراً ، هل فكّرتَ باسمٍ غير بياتريس ؟

كان سؤالاً لم أتوقعه أبداً . ولكنّ لعبتنا تقضي أيضاً عدم إظهار الدهشة من أيّ شيء . وأجبته بالنبرة نفسها : – لا ، لم أفكّر بأيّ اسمٍ آخر .

تناول فنجانه وارتشف قليلاً من الشاي قبل أن يخوضَ في نقاشٍ آخر لا يمت لسؤاله بصلة . انتهت الجملة الاعتراضية ، أو هذا ما اعتقدته بسذاجة...

بعد مضي شهرٍ ونيّف على لقائنا ، وصلتني رسالةٌ بخطّ فالوريس .

" أردتُ أن أرسل لك هذا " . كان "هذا" عبارة عن نسخةٍ لصفحةٍ في موسوعةٍ إنكليزيةٍ أُحيطت فقرةٌ منها بدائرةٍ من الحبر البنيّ العريض . وتقول هذه الفقرة : " في السبعينيات ، وإثر تفشّي وباء الجدري في بعض قرى السنغال ، سُجِلَ خللٌ مفاجىء في الولادات ، ولوحظت ولادة أنثى واحدة من أصل عشرة ذكور ، وشهدت مناطقُ أخرى من العالم الظاهرةَ الغريبةَ نفسها".

ناولتُ الرسالة إلى كلارنس التي كانت تفتح بريدها إلى جانبي . كانت الساعة حوالي التاسعة صباحاً ، وكنا جالسين منذ برهةٍ نتناول الفطور أمام الواجهةِ الزجاجيةِ المطلّةِ على حديقة النباتات . كانت هذه أكثرُ ساعاتِ النهار صفاءً ، ولم نشأ استبدالها بأيّ غدٍ آخر .

– إقرأي هذه السطور ، قد تجدين فيها التبريرَ لما جرى في قرية المرأة العجوز في غوجارات .

أخذت الرسالة وقرأتها :

– ربما .

لفظتها بالنبرة ذاتها التي قد تستعملها لو قلتُ لها مثلاً إن العسلَ اليوم أطيب من العسل الذي أشتريه عادةً . نعم ، اللامبالاة اللبقة نفسها مع فارقٍ وحيد أنها نهضت على الفور وقالت : – سوف أستحمُ قبلك .

ابتسمتُ وأنا أراها تلوذ بالفرار . ذكّرتني بامرأةٍ أثيرت أمامها علاقةٌ غراميةٌ قديمةٌ لا تتنكّر لها ولكنها لا ترغب أبداً بالتحدّثِ عنها .

هكذا فسّرتُ موقفها . وعندما بعثَ لي أندريه برسالةٍ ثانية ، بعد عشرة أيام، تحاشيتُ أن أثيرَ الموضوع أمام كلارنس . وتكرّرت الرسائل لاحقاً ، ولم أعجب للأمر ، ففالوريس كان يمضي أعواماً دون أن يراسلني أو يتصل بي ، مكتفياً بلقاءاتنا الفصلية الطقوسية ، ويحدث فجأةً أن ينهال عليَّ

بصفحاتٍ منسوخةٍ بالكاد مفسَّرةٍ ردّاً على إحدى المسائل التي أطرحها أمامه .
وبالرغم من ذلك ، فهو لم يظهر هذا الحماس وتلك المثابرة في المرّات السابقة التي راسلني فيها . لقد انهالت علـي رسـائله كالسيل الجـارف! ووصلتنـي فـي غضون ثلاثة أشهر عشرُ رسائل قبل أن أقرّر إطلاع كلارنس على إحداها من جديد .

كانت هذه الرسالة عبارة عن مقالٍ من صحيفـة " تـايمز أوف إنديـا " نشرَ في صحيفةٍ بريطانية في عددها الصادر يوم الأحد ، ويفيـد أن فريقـاً مـن الأطباء الهنود قد دان " ممارسةً مشينةً تنتشر بمعرفة الجميع ، ولا يفكـر أحـدٌ بالقضاء عليها ...فآلاف النساء الحوامل اللواتـي يعلمـنَ بـاكراً بجنـس المولـود يجهضنَ إذا كان المولود أنثى ، والجدير بالذكر أن بعض دور التوليـد تتبـاهى بأنها لا تنجب سوى الذكور " .

وأبدت كلارنس هذه المرّة الاهتمام الذي كنتُ أرتقبه غير أنها علّقت قائلةً: – لقد أخطأتُ .

– كيف ذلك ؟ أخطأتِ ؟

كنتُ أريد هزّها من كتفيها !

– كنـت مقتنعـةً أن كـل مـا شـاهدتُه فـي الهنـد هـو بسـبب " فـول الجعران"، وعلى ما يبدو فما جرى في غوجارات كان بسبب وبـاء الجـدري ، وما حدث في دار التوليد في بومباي هو حالاتٌ من الإجهاض التعسّفي .

– فليذهبْ الجعران إلى الجحيم ! ما أستنتجه مـن كـل مـا قـرأتُ هـو أنك عدتِ من رحلتك بطائفةٍ من المعلومات والتكهُنات التي لم يأخذْها زملاؤك على محمل الجد ، ومن ثمّ تحقّقتْ كلُها . نحـن أمـام ظواهـر مرعبـةٍ تسـتحقُ تحقيقاً جدياً في الهند كما في دولٍ أخرى . ألا يفوق الأمر أهميةً قصصنـا عـن " فول الجعران " ؟

– نحن لا نتحدّث عن الشيء نفسه . كنتُ أريد أن ...

وتوقّفت عن الكلام كما لو اعتراها العياء والسأم . وكنتُ على وشك انتهاز صمتها لوعظها من جديد ، حين التقت نظرتي بنظرتها ، فلذتُ بالصمت . لمحتُ في عينيها رصانةً – لا بل ما هو أسوأ من ذلك ، رأيت يأساً – لم أكن قد لمحته من ذي قبل . وإذ احتضنتُ يدها بين راحتي وطبعتُ عليها قبلةً رقيقةً بحركةٍ تعوّدت القيام بها ، كنتُ أهمُّ بسؤالها بكثير من الحذر عما يحزنها، ولكنها تمالكت نفسها وابتسمت كما لو أن همّها الوحيد هو العثور على الكلمات المناسبة .

– ما يعجبني في " فول الجعران " هو أن هذه البرشانات تمكنني ، بصورةٍ راقيةٍ ، من إفحام كلّ الرجال الذين يمقتون النساء . ولكنني لن أتوغّل أبداً في السجال الأزليّ حول الإجهاض .

أوَتفهم ، هناك بعض الكلمات يكون التلفّظ بها أشبه بسكب قطرةٍ من الحامض في كوبٍ من الحليب الساخن ، فسرعان ما يتخثّر الحليب وينفصل اللبن عنه . قلْ " إجهاض" ، وسترى الناس يتشنّجون وينزعون إلى التحريف والإنفعال ؛ ومهما حاولتَ شرحَ وجهة نظرك ، لن يصغي إليك الآخرون ، وعليك أن تحدّد موقفك بسرعة . فالبعض يصنفك في عداد المتدينين والبعض الآخر يضعك في خانة " باقري البطون ". وفي اعتقادي أن "المتدينين" ليسوا أفضل من واهبي الحياة : ألم يخترعوا فكرة الخطيئة التي تدعي أن المرأة هي أصل البلاء وأنه ، لولا جشعها وحماقتها ، لكانت البشرية ترتع في الفردوس؟ ألم يدّعوا أن المرأة ولدت من ضلع الرجل وأن الله الذي كان من المفروض منطقياً أن يكون أباً وأماً للخليقة ، كان أباً لها فقط ؟

منذ آلاف السنين والعالم لا يتوقف عن تعظيم الذكر ، والبشرية جمعاء لم تشأ إنجاب غير الذكور . وها هي الأمنية تتحقق اليوم بأعجوبة ، وأصبح بالإمكان تصريف الإناث مع المياه المبتذلة . ومن يعارض ؟

المتدينون أنفسهم . ومن بين دعـاة المسـاواة بيـن الرجـل والمـرأة ، هنـاك مـن يشيحُ بنظره .

وأنت تريدني أن أخوض في سجال المجانين هذا !

خ

نظراً للحالة النفسية التي تقوقعت صديقتي داخلها منذ عودتها من السفر ، حرصتُ على عدم إطلاعها على الرسائل الأخرى التي بعثها فالوريس، لا سيما وأنها تتعلق بأحداثٍ جرت بمعظمها في أوائل التسعينيات . وأنا بدوري لم أعد ألقي عليها سوى نظرةٍ عابرة قبل أن أودعها في ملفٍ وذلك احتراماً لصديقي وإرضاءً لضميري .

غير أنني فرضتُ على نفسي أن أعيدَ قراءتها ملياً عندما حان موعد زيارتي المعهودة لأندريه . كنتُ أشعر بالخجل بعض الشيء لهذا " الإهمال" الطفولي الذي قمتُ به ، لا سيما وأن عرّابي لجوجٌ أحياناً في أسئلته ، فهو لبقٌ وودودٌ ولكنه عنيد . ومنذ طفولتي ، كلما أهداني كتاباً ، كان يتوقع مني أن أقرأه عن كثبٍ و "بتؤدةٍ" قبل لقائنا التالي ، وينصحني" بعدم استعمال القلم لتدوين الملاحظات ، ذلك أننا غالباً ما نغفلُ بخربشةٍ غير مقروءة ما يجب أن يبقى مزروعاً ومتجذّراً هنا" ، ضاغطاً بسبابته على جبهته . وكان يدرك بسهولة أنني لم أتصفّح غير هذا الكتاب في الفترة الفاصلة بين زيارةٍ وأخرى ويقول لي :" إذا قرأتَ قراءةً فعليةً أربعين كتاباً حقيقياً خلال عشرين عاماً ، فبوسعك مواجهة العالم " .

وهكذا قرأت " قراءةً فعليةً " ، أي أعدتُ قراءة واختزنتُ عشرات الرسائل التي أتحفني بها .

- يهمني أن أعرف ، من بين كل ما أرسلتُه لك ، ما الذي استرعى انتباهك.

بهذه الكلمات ، استقبلني أندريه عند الباب . و ما أن جلسنا في مكاننا المعهود، أخبرته عن نقاشي مع كلارنس قبل أن أضيفَ موضّحاً :

– عموماً، لدي الانطباع بأننا أمام أحجيةٍ غريبة ، لا أعرف إذا كانت حروفها مرتّبةً بالشكل الصحيح ، كما لا أدري إذا كان هناك من حلٍ لها في نهاية المطاف.

– لو التقينا يوم الأحد الماضي ، لاعترفتُ لك بالحيرة نفسها . لم أفعل سوى جمع المعلومات غريزياً. ولكنني استيقظت يوم الخميس وفي ذهني فكرةٌ تلاحقني ، أمضيت سحابة نهاري في المكتبة ، مبحراً بين جداول الأرقام والنسب المئوية التي تتكرّر الصفحة تلو الأخرى ولا تتغير إلا بعد الفاصلة.

كنت على وشك الاستسلام عندما لمحتُ على أحد الرفوف دراسةً حول عشر مدنٍ متوسّطيةٍ كبرى من بينها القاهرة و نابولي وأثينا واسطمبول. وكانت هذه الدراسة تتضمن أرقاماً يتوه المرء فيها ولكنها مرفقةً أيضاً بتعليقاتٍ مسهبة . ويشير فيها المؤلفون إلى أنهم لاحظوا ارتفاعاً ملموساً في عدد المواليد الذكور وانحساراً بارزاً في عدد المواليد الإناث . فعادةً ، يولد ١٠٥ ذكورٍ مقابل١٠٠ أنثى كمعدلٍ وسطيٍّ ، غير أن الأرقام الإحصائية تشير إلى ما يتراوح بين ١١٢ و ١١٩ ذكراً مقابل ١٠٠ أنثى حسب المدن . وهي لا تبدو ظاهرةً فريدة بالنسبة إلىالشخص العادي ، أما واضعو هذه الدراسة فيعتبرون أنها تدلُّ على فارقٍ لا مثيل له وبهذا الحجم.

فهل يتعلّق الأمر بظاهرةٍ مماثلة لما ندّد به الأطباء الهنود ؟ لم أتوصّل بعد إلى الكلمة الفصل . وكل ما أعرفه منذ يوم "الخميس هو وجود لغزٍ يحيّر عقولاً أخرى غيري .

لم يسبق لي أن غادرتُ شقة أندريه بمثل هذا الشعور من الخواء . فعَادَةً ، عندما أصغي إلى الباب يغلق ورائي دون عجلةٍ مصحوباً بالجرس الخافت للآليات التي تلطّفُ من انغلاقه ، كنتُ أمضي ساهماً ، مستغرقاً في التفكير ولكن بخطى متحررةٍ تطفو أكثر مما تنوءُ بثقلها . لم يتملّكني ذاك الشعور بسبب كل ما أطلعني عليه عرّابي ، فقد كانت لدي مصادرُ أخرى

للحصول على المعرفة ، وكنتُ لا أحسده على سعة معارفه بقدر ما أحسده على هذه السهولة في التنقُّل من ميدانٍ إلى آخر ، متفحّصاً بعينٍ ثاقبةٍ همومَ العالم .

لا يعتقدنّ البعض أنني كنت أنخدع بمواهبه الكلامية أو بحذاقة المحامي التي يتمتع بها ؛ فلقاءاتنا لم تكن من هذا القبيل ، بل سأقول بكلّ بساطةٍ ودون تهكُّم ، إنّ أندريه يتمتع بذكاءٍ يضاهي وزنَه ، وأعني به هذا اليقين الهائل المُعلَن دون حياءٍ مزيفٍ بأن كلّ شيء في هذا العالم ، القوانين والعلوم والأديان والدول ، من صنع رجالٍ مثله ومثلي ، وبأن كلّ شيء قابلٌ بالتالي للدراسة والنقد والتقويض والبناء . " لسنا ضيوفاً على هذا الكوكب ، فنحن لننتمي إليه بقدر ما ينتمي إلينا ، وماضيه ملكٌ لنا وكذلك مستقبله ".

لم تكن هذه الأفكار تلائمُ طبعي . فقد كنت مدركاً دائماً لتفاهتي ، وأقول ذلك بدوري دون حياءٍ مزيف أو خجلٍ ، فأنا لم أفتح عيني على هذا العالم مصمّماً على قلبه رأساً على عقب ، ولست بمشرّعٍ بل مجرَّد مراقبٍ ، سعيد باكتشاف أحد البنود المنسية في قوانين علم الحيوان ، وسعيد بالمشاركة، بوصفي فرداً من بين بلايين الأفراد من أبناء جنسي ، في لعبة البقاء والتناسل، في حدود قواي والوقت المتاح لي . ففي مجال اختصاصي ، يكتسب المرء حساً متعاظماً بالزوال ويتعلّم الانصياع له . وبسبب هذه المقاربة المغايرة بالضبط ، كانت الصداقة التي تربطني بفالوريس بمثابة خشبة خلاص. فلطالما نهلتُ إلى جانبه جرعة الثقة ورباطة الجأش التي أحتاجها . وغداة لقاءاتنا ، كنت أنصرف إلى أشغالي تحدوني رغبةٌ جامحة بالنجاح .

ولكن الوضع اختلف هذه المرة ، فقد غادرتُ شقته وكأنني ألوذ بالفرار . مكثتُ كالعادة حتى الزلابية ما قبل الأخيرة ، ثلاث ساعات طويلة غير أنني كنت مجرد ممثل صامت . لقد وجه لي أندريه عشرة نداءات للمساعدة ، على طريقته الشامخة المتعالية ، عشر رسائل لم تُثِرْ إحداها أي

فضولٍ حقيقي لدي. لم أقم بأيّ بحثٍ حول أيّ موضوعٍ ، لم أعبّر عن أيّ رأيٍ فيه شيء من الجدّة ، وخلال لقائنا ، اكتفيتُ بمراقبة صديقي ودراسة تجرياته وتردّده في حين كنتُ أنا من طلب منه المساعدة في البداية . أعرف أنه يجد متعةً في القيام بالتحريات ، غير أن كلامه في ذلك اليوم لم يعبّر عن حماسٍ فكريٍّ بل عن قلقٍ وشعورٍ طارىء لا يتلائمان مع الصورة التي كونتها عنه .

كان تبريري الفوري دنيئاً إذ عزوتُ موقفه إلى تقدُّمه في السن .

كان أندريه في الواحدة والسبعين من العمر ، توقف عن المرافعة منذ زمنٍ طويلٍ ولم يفارق مكتبه سوى مؤخراً . غالباً ما انتقدتُ لدى أبناء جنسي نزعتهم لاعتبار كلّ الأعمار الأخرى حالاتٍ استثنائية ،ويعتبر كلٌّ منهم نفسه في كل مرحلةٍ من مراحل العمر القاعدة العامة والمركز الدائم للإتزان . أنتقدُ وأتهكّمُ غير أنه لا بدّ لي الإقرار بأني لست بمأمنٍ من هذا العيب . وفي ذلك اليوم ، كان مزاجي يدفعني للإكتفاء بهذا التبرير المقتضب .وإذ اكتفيتُ بهذا القدر من الإطمئنان ، عاهدتُ نفسي ، بالرغم من ذلك ، على تخصيص المزيد من الوقت لرسائل أندريه وعلى إتحافه بدوري ، بين الحين والآخر ، بقصاصةِ جريدةٍ .

هذا إذا سمحَ لي الوقت، فقد كنت منهمكاً آنئذٍ في التحضير لمحاضرةٍ عامة تحدَّدَ موعدُها في الثامن من كانون الأول ، وكنا قد دخلنا في شهر تشرين الثاني ولم أكتب سطراً واحداً .

لم يكن تصرُّفي هذا بسبب الإهمال، بل على العكس ، فقد أدّى بي حماسي المفرط إلى التشتّت في أبحاثي لدرجةٍ أنني ما برحتُ أؤجّل كتابة نص المحاضرة . وكان موضوعها – يا إلهي، كم يبدو الأمر بعيداً عن الواقع الآن، غير أنني حريصٌ على التحدُّث عنه ولو قليلاً ، على الأقل لأبينَ كم كان فكري بعيداً عن همومي اللاحقة .

– كنت أقول إذن إن موضوع المحاضرة يدور باختصار حول ما يلي : بعد أن قلّدت السيارة في بداياتها عربةَ الخيل، بدأت تحاكي الحشرات المُغْمَدَةَ الأجنحة –الخنافس والجعارين والزيزان –على غرار الطائرة المروحيةالتي استلهمت حركتها من اليعسوب أو الزنبور . وقد يقول قائلٌ إن هذا الموضوع تافهٌ. ومع ذلك ، فقد استغرقت مني هذه الدراسة أشهراً عديدة، وجلبت لي متعةً فائقةً ، فلم يكن الأمر يتعلق بالعلم فقط بل بالفن والتصميم والعادات، وقد حضّرتُ مجموعةً من الصور الشفافة لإظهار الشبه بين بعض السيارات والحشرة التي ربما كانت لها نموذجاً ، بل وعثرتُ على شريطٍ صُوِّرَ على علوٍ شاهق، يظهرُ الحياة اليومية في مدينةٍ كبيرةٍ عصريةٍ تبدو وكأنها مسكونةٌ حصراً بقطعانٍ من الحشرات المعدنية .

كان كل شيءٍ جاهزاً ما عدا الشيء الجوهري أي نص المحاضرة . ولذا فقد خصصتُ لنفسي يوم أحدٍ في منتصف شهر تشرين الثاني ، كانت كلارنس قد قررت الذهاب فيه لزيارة عائلتها في مدينة سيت ، لأنصرف للكتابة من الصباح وحتى المساء. استيقظتُ الساعة السابعة صباحاً ، وضحيْت بشجاعةٍ بالفطور مكتفياً بإبريقٍ متقشّفٍ من القهوة وضعتُه على مكتبي . وقبل الساعة الثامنة ، كنت قد باشرتُ الكتابة ، وكتبتُ ومزّقت إحدى عشرة مرةً الفقرة الأولى عندما اتصل بي فالوريس في الساعة التاسعة تماماً – فالدقة من شِيَمِهِ .

– خطرت لي فكرةٌ بشأن تحقيقنا . فإذا كان لديك بعض الوقت خلال النهار...

كيف لي أن أرفض الدعوة ؟ كان إتصاله استثنائياً جداً. وإذ وضعتُ السماعة ، ألقيتُ على أوراقي التي لا تزال بيضاء نظرةً يشوبها الأسف والفرح ، تلك النظرة المنافقة للطالب الذي يتذمّر بسبب إزعاج الآخرين ما أن

يكون قد بدأ كتابة فرضه، وهو يشكر السماء سراً بكل جبنٍ لهذا اللهو الذي منّ عليه به القدر .

عندما وصلتُ بسيارتي إلى الشارع الذي يقطن فيه أندريه ، رأيته ينتظر أمام المبنى، مدجّجاً بلثامٍ أبيض طويلٍ، فقد أبكرَ الشتاءُ هذا العام .

أخذ مكانه في السيارة بجانبي وقال :

–إذا شعرتَ ، لدى عودتك من هذه النزهة أنني قد ضيّعتُ عليك النهار بدون سببٍ وجيهٍ، فلا تلُمني ،لأنني سأنزعج ، ولكن اعذرني في أعماقك.

ارتسمت على شفتيّ ابتسامة الإبن لأبيه .

–في أيّ إتجاه نذهب ؟

– إلى أورليان .هناك صديق ينتظرنا ، إنه صديقٌ قديمٌ جداً ، وقد لجأت أسرتانا في الفترة نفسها إلى جنيف إبان الحرب العالمية الثانية . كنا شابين مولعين بالبحث العلمي ، والفرق بيننا أن والده لم يجبره على دراسة المحاماة .

قلّما إلتقينا في السنوات الأخيرة ، فقد عاش ومارس مهنته في كاليفورنيا معظم الوقت. أما الآن فهو ينعم بتقاعدٍ هادىء قرب أورليان في منزل ريفي، محاطاً بأشجاره وكتبه وأحفاده–أي كل السعادة في هذه الدنيا !

لقد كرس حياته لتحسين النباتات وراثياً . لم يقم بإكتشافاتٍ مذهلةٍ،لا شيء يحمل إسماً معروفاً ، ولكن بعض أصناف الإجاص التي نقضمها تدين له بلبها وقشرتها ورائحتها بقدر ما تدين للطبيعة . إن حقل إختصاصه من أكثر الحقول كرماً وسخاءً إذ يتودّد فيها المرء إلى الرياحين والثمار ويتذوق بنفسه ما يخترعه، ولكن الأمر يستلزم فصولاً من الصبر والعبقرية .

لاشك أنك فهمتَ أننا لا نذهب إلى زيارته من أجل التحدث عن النباتات ، ولكن يا للمتعة كلما بدأ يتحدث عنها !

وهو ليس من أولئك الذين يقدسـون استقلالية الاختصاصـات العلميـة بـل يـزاوج بكـل رحابـة صـدرٍ بيـن العلـوم المختلفـة لتـأمّل ثمارهـا الهجينــة . والبارحة، حدثته على الهاتف عن ملاحظاتي، وأنا على يقين أن آراءه سـتثير اهتمامك لأنه عالمٌ عن حقٍّ وليس مثلي مجرَّد منقِّب فضولي .

د

تحدّثتُ لتّوي عن السيارات والتشابه بينها وبين الحشرات ، وكان الأجدر بي أن أبدأ بقول الشيء نفسه عن البشر . فالأمر لا يتعلق أبداً بتلك التشبيهات الأخلاقية المزعومة التي روّجتْ لها الخرافات، وجعلتنا نشبّه فلاناً أو فلانةً بالنملة أو زيز الحصاد أو النحلة أو الذبابة أو السرعوفة ، فحديثي يقتصر على التشبيه الجسدي .

لدي بالفعل هاجسُ تشبيهِ كلّ شخص ألتقيه بحشرةٍ يذكّرني بشكلها . ومن هذا المنطلق ، – وهذا هو تبرير هذا الاستطراد المرح بعض الشيء – ذكّرني صديق أندريه على الفور بفراشةٍ ذات شعيراتٍ مسطّحةٍ إلى درجة كبيرة ... لا أخجل قط من ذكر ذلك فقد اعترفتُ له بالأمر بعد سنوات ، وما كان منه إلا أن ضحك وطلب مني أن أريه حشرته التوأم . في تلك المناسبة ، أخبرتُهُ أنني أعاني من عجزٍ مرضيٍّ عن التعرف إلى الأشخاص، وأنه قد حدث لي أن صادفتُ في الشارع زميلاً أراه كل يوم في المتحف ، ولكن وجهه لا يذكرني فجأةً بشيء أبداً لأنني أراه خارج محيطه المألوف ، دون قميصٍ أبيض وبصحبة زوجته وأولاده ، واعترفتُ له أيضاً أن ذاكرتي انتقائيةٌ مع طلابي بحيث أنها أصبحت موضعَ تندُّر، إذ كنت قادراً على استحضار تفاصيل حديثٍ مع أحدهم بعد مضي عشر سنوات ، والآراء التي أدلى بها دون أن أنسى أبداً إسمه ، ولكنني قد ألتقي هذا الطالب نفسه في الشارع بعد ساعةٍ من حديثنا ولا أتعرف إليه ، كما لو أن الناس يتمتعون عندي بملامح فكرية وأخلاقية قابلة للتمييز تماماً في حين أن ملامحهم الجسدية تبقى مبهمة . وبعد أن أصبح لي بسبب ذلك أعداء لا عدّ لهم ولا حصر ، قررت ذات يوم اللجوء إلى طريقة للتذكر خاصةٍ بي . فقد لاحظتُ أنني لا أخطىء أبداً في تمييز الملامح المتعلّقة بالحشرات المغمدة الأجنحة، حتى أنني أدرك من النظرة

الأولى أدقّ الفروقات التي لا يراها الآخرون إلا تحت المجهر ، وينطبق ذلك على آلاف الفصائل . وتبين لي أيضاً أن كل إنسان يتميز بملامح تسمح بتشبيهه بفصيلةٍ محددةٍ من الحشرات . وهكذا وجدتُ الحل وصرتُ أضع إسماً مرمّزاً شخصياً لكل إنسان ...وليس بالضرورة أن يصدق الآخرون هذا الكلام، غير أنني أتمكن بهذه الوسيلة من التعرف إلى صيدلانيتي عندما أصادفها عند بائع الخبز .

وبالعودة إلى صديق أندريه، لم أقلْ بعد إن اسمه عمانوئيل لييف . وفي تلك الفترة، كان شبه مغمور ، ولا أزال أذكر كلمات الترحيب التي استقبلني بها :

– لوددتُ أن أدلّكم علىالأشجار التي تشيخ بصحبتي ، غير أن جنسنا نحن البشر يخشى البردلا سيما تلك الفصيلة التي ينتمي إليها فالوريس . أوَتعلم يا أندريه أنني أتخيلك تماماً غارقاً في سباتك الشتوي على إحدى الأرائك ، من شهر تشرين الثاني إلى شهر آذار . ولكن ربما لايجدر بي أن أخاطبك هكذا أمام صديقك الشاب. أعذرنا يا سيدي العزيز ، فأنا أعرف أندريه عندما كان في الثانية عشرة من العمر ، وكنت أنا في الرابعة عشرة ، أقول له: " يا صغيري" لأغيظه ولقد احتفظت دوماً بهذا الامتياز .

أليس من البدهي أن أشعر بنفسي مراهقاً بين هذين الرجلين اللذين يكبرانني سناً ؟ غير أن نظرتي إلى أندريه ربما بدت غريبة . كان هنا ، مشدوهاً، صامتاً ، متراصاً ، منكمشاً ، كما لو أنه ضمر . و إذ حدّقتُ به ، اكتشفتُ فجأة الطفل ، ذاك الصغير الذي تحدث عنه صديقه ، اكتشفته كما لو أنني لم أفطن قط إلى أن أندريه كان طفلاً فيما مضى ، بل وحتى رضيعاً مقمّطاً، فلطالما رأيته رابضاً على أريكته كقاعدة تمثال ، وكأنه أبو هول سرمديٌ . لقد كانت بعض الضربات الخفيفة الحميمة على كتفه كفيلة باظهار الطفل الراقد تحت قوقعة الرجل الراشد .

لم تتلاشَ هذه الرؤية وتعود الصورة المألوفة إلا بعد دخولنا المنزل حيث خلع معطفه وتهاوى في أوسع أريكة .

نسي عمانوئيل ليف بدوره الحماقات الصبيانية في جنيف وتحولت ملامحه المرحة إلى إبتسامة متأملة . وظهر بين الحاجبين أخدودان من أخاديد الحكمة . وإذ بدأ الكلام ، كان يتوجه خاصةً إلى فالوريس وإن تنقلت نظرته اللبقة بين أندريه وبيني.

– فكرتُ قليلاً منذ البارحة بكل الوقائع التي قمتَ بتجميعها ، وأعتقد أن بعض همومك تلتقي ببعض هواجسي الدفينة . فنحن نترّقب الشر نفسه بالرغم من أننا لا نملك بالضرورة القراءة عينها للمؤشرات .

لنبدأ مثلاً "بعيادات الذكور" الشهيرة التي ندّد بها الأطباء في الهند . إنها لظاهرةٌ خطرةٌ وقديمةٌ فهي تعود إلى الثمانينيات . نحن بمواجهة معضلة أخلاقية بالنسبة إلى الأطباء و الأهل وحتى السلطات بما أن هذه الممارسة، مهما كانت دنيئة ، غالباً ما تكون قانونية تماماً . فعندما يدل الإختبار على أن الجنين أنثى ، تتناول المرأة الحامل قرصاً للإجهاض . ولا الأم ولا الطبيب سيعترفان بأن هذا الإجراء هو تمييز جنسي صرف بل سيزعمان أنهما يدافعان عن حقّ المراة في الخيار . وبالتالي، فالأمر يطرح معضلةً أخلاقيةً ولكن دون نيول خطرة حتى الساعة على عدد السكان . فالكشف المبكّر والمؤكّد لجنس الجنين ممكنٌ اليوم ، غير أن الطريقة مكلفة. ولم تنتشر سوى في الدول الغنية، أما في الدول الأخرى فهي محصورة بشريحة ضئيلة من سكان المدن، وهي الشريحة الأكثر ثراءً وتعلماً . ومن بين هؤلاء النساء ، سواء كن ينتمين إلى الدول الغنية او إلى النخبة في الدول الفقيرة، نفترض أن السواد الأعظم منهن يريد معرفة جنس الجنين بدافع فضولٍ مشروعٍ ، فقط من أجل إعلام الوالد أن المولود سيكون "أنثى " أو "ذكر "أو "ثلاث توائم " . ولكن كم

إمرأة تصر على إنجاب طفلٍ من هذا الجنس أو ذاك ، قد تختار الإجهاض وإن كان متيسراً قانونياً أو غير متناقض مع معتقداتها ؟

يبدو لي أنهن قلةٌ . ومن الناحية الأخلاقية تبقى المعضلة هي نفسها ولكن إذا ما تحدثنا عن أعداد السكان ، أشك أن تكون الأرقام خطيرةً ، أنا أعرف أنني لا أملك أدلّةً متوافرة بين يديّ و أنني ألقي الكلامَ جزافاً عندما أقول "سواد أعظم " ، "الكثير" ، "القلة" بيد أنني على يقينٍ ، كما يقول القضاة ، إنّ الخطر يكمنُ في مكانٍ آخر .

وعند هذا الحدّ ، دخلت إيرين ليبف وهي تدفع بعربة زجاجية . كانت إمرأةً مسنةً وأنيقةً لا تزال رشيقةً بحيث لا يسع المرء التخيل أنها كانت أكثر رشاقةً في شبابها . قبّل أندريه يدها ثم وجنتيها بعد ضحكةٍ .

– لقد هيأتُ لكم بعض الصحون وقلت لنفسي إنكم لن تلاحظون بعدئذٍ تقشفَ الطعام. وجلبتُ أيضاً بعض النبيذ .

جلستْ قرب عمانوئيل الذي وضع كأسه وصحنه جانباً دون أن يتناول شيئاً.

وتابعتْ قائلةً : – سنبدأ قبله ، فالعجوز لا يجيد الشرب أو التنفس عندما يتكلم.

وضع العجوز يداً خشنة وحنونة حول رسغها وتابع قائلاً :

– قلت إن الخطر يكمن في مكانٍ آخر ، وكنت مقتنعاً لفترةٍ أنه يكمن في ظاهرةٍ أخرى أثارت حيرتك يا أندريه . وباء الحصبة ، وهو ظاهرةٌ مألوفةٌ في أفريقيا خلال السبعينيات ، فعدد ضحاياه وعواقبه ليست وخيمةً ، ووسائل الإعلام لا تتحدث عنها . ولكن الأمر يشكل بالنسبة إلى بعض العلماء إعصاراً حقيقياً !

" لقد لوحظ بالفعل أن النساء اللواتي أُصبنَ بالوباء لم ينجبنَ بعدها عملياً سوى ذكور . وقد جمع العلماءُ معلوماتٍ أخرى من مختلف الدول

وتتعلّق بشتى أنواع الأوبئة وتمكّنوا من فهم الظاهرة قليلاً . لست مؤهلاً بما فيه الكفاية لأشرحَ لك الأمر بالتفصيل، ولكنّ الفكرةَ الأساسيةَ هي أن المرأة ، عندما تقاوم المرض ، تولد مضاداتٍ تؤذي الجنين الذي تحمله في أحشائها. كما لو أن المضادات تَعتَبرُ خطأً الجنينَ فيروساً ، ثم تلفظه فور تكوينه ويقوم بعضها إنتقائياً -كهذه الحصبة الأفريقية - بمهاجمة الإناث ، والبعض الآخر يستهدف الذكور . وبالتالي ، يمكن للمرأة نظرياً التحصن ضد الإناث وإنجاب الذكور فقط أو العكس . واستمرت الأبحاث في فترةٍ من الفترات، ويبدو أن فريقاً من الباحثين صمّم أن يصنع لقاحاً ، نعم لقاحاً - عن طريق الحقن أو التشريط- أو حتى قرصاً . وللتأكد من إنجابِ ذكرٍ ، تتلقّحُ المرأة ضد المواليد الإناث وبالتالي لا تحمل أيَّ جنينٍ أنثى إطلاقاً . ولكن إسمحوا لي أن أعود إلى "عيادات الذكور" تلك . لقد قلتُ إن خطرها يتضاءل لأنها تلجأ إلى تقنيةٍ مكلفةٍ ، ولأن النساء اللواتي يصبن بالخيبة عند معرفتهن بجنس الجنين يتردّدن عموماً ولا يقرّرن وقفَ الحمل. ولو افترضنا أن هذا اللقاح قد يصنع وينتشر ويتعمّم ، فلن يصبح الكشفُ الجنينيُّ ضرورياً، ولن تشعرَ المرأة أنها تجهض . فالأمر يكون بمثابة منع حملٍ إنتقائي . وفي بعض الدول ، وبعض المجتمعات ،لا يصاب توازن الجنسين بخللٍ خطرٍ ، ولكنه قد يؤدي إلى كارثة على مستوى الأرض . ولا أجرؤ حتى على التفكير بالعواقب .

صمت وبقي للحظات ساهماً ثم احتسى أول جرعةٍ من النبيذ قبل أن ترتسم على وجهه شبه إبتسامة من جديد :

- لحسن الحظ، تعثّرت الأبحاث بسبب عقباتٍ فنية استحال تجاوزها كما شرح لي أحد الزملاء . وربما يصار إلى تذليلها ذات يوم فتجرُّ علينا الويل والشقاء . ولكنني شبه متأكد أن اللقاح لم يصنع ولن يصار إلى تصنيعه في المدى المنظور . أنا مطمئنٌ إلى هذه الناحية منذ عام . غير أن لدي هواجس أخرى.

نظر إلى قعر كأسه كما لو أراد أن يقرأ فيه المستقبل .

-إن فكرة هذا اللقاح المضاد للإناث فظيعة، ولكن ثمة فكرة أكثر فظاعةً منها قد لمعتْ في بعض الأدمغة .

إنطلق كل شيء من تجارب بريئة ظاهرياً أجريت على الأبقار . فقد كشفت التجارب منذ بضع سنوات أنه من الممكن ، خلال التخصيب الإصطناعي في المختبر ، التأثير على نطفة الثيران وتحفيز ولادة الذكور أو الإناث حسب الطلب، وهي طريقة قابلة للتطبيق تماماً على فصائل أخرى ، ومنها فصيلتنا . ثم تساءل الباحثون عن وجود وسيلة للتأثير مباشرةً على الحيوان وحقنه بمادةٍ من شأنها تعديل ذريته .

وقد تطورت الأبحاث بصورة سريعة نسبياً ، فتم اختراع مادة تزيد إلى حدٍ كبير من قوة الثيران وخصوبتها ، و"تنشّط" بعض الشيء الحيوانات المنوية المسؤولة عن ولادة الذكور بحيث تصبح ولادة الإناث غير مرجَّحة .

جاءت النتيجة مخالفةً للتوقعات . فالغاية في البداية كانت مساعدة المزارعين للحصول على المزيد من الأبقار ، مردودها أفضل على صعيد الألبان والأجبان والتناسل . ولذا فقد قرر معظم الباحثين وضع هذا الإكتشاف جانباً لاسيما وأن الحيوانات التي خضعت للتجارب أصبحت شرسةً وخطرةً . غير أن بعض المحتالين رأوا إمكانية إستغلاله خصوصاً في مصارعة الثيران بل وتكييف المادة لتلائم فصائل أخرى من حيوانات القتال كالكلاب والديوك. ولماذا لا ينطبق هذا الإكتشاف على البشر يوماً ما ؟

لا لتصنيع وحوش للحلبة وإنما كما هو الحال مع " اللقاح" -لإشباع عند مئات الملايين من الأسر ، تلك الرغبة القديمة ، ذاك "الواجب "بإنجاب ذكر .

في هذه المرحلة، وقبل المضي قدماً في هذا المشروع ، تدّخل البعض، ويقال إن بعض البيولوجيين أعربوا عن قلقهم وحذّروا علماء

مشهورين وأكاديميين وأساقفة وسياسيين . وأسوق كل هذه المعلومات بتحفظ لأنني لا أعلم منها إلا نتفاً ، فأنا أجهل الأسماء وحتى البلد الذي يوجد فيه المختبر المذكور ولو أن لدي رأياً حول الموضوع . ولكن لا أهمية لذلك، فالمهم هو أن قراراً قد اتخذ ودخل حيز التنفيذ سراً ، فتوقف المشروع وتحولت الأموال المخصصة له إلى مجال آخر، وإنفض شمل الفريق الباحث .

منذ ذلك الحين ، وكلما سمعتُ بمسائل الإنجاب الإنتقائي هذه ، تنتصب أذناي. فالمعلومات متوافرة والمشترون المحتملون عديدون وفكرة الأرباح الطائلة تعمي بصيرة الكثير من زملائنا .

فكيف لايعترينا القلق ؟

–عندما نسمعك ، تبدو الأمور قدراً لا مفر منه .

انتهز عمانوئيل لييف ملاحظتي الحائرة ليرتشف بصخبٍ جرعةً أخرى من النبيذ الأحمر قبل أن يهز رأسه :

– سيقول لك صديقي أندريه مثلي أن كل الفظائع ممكنة . ولكن لا واحدة منها حتمية إذا ما توخّينا الحذر . ولكي أجيب بصراحة عن سؤالك ، أقول إن تصنيع هذه المادة المشؤومة ممكن اليوم، وربما أصبح ممكناً منذ أواسط التسعينيات. ويوماً ما ، أنا متأكدٌ أنها ستكون متوافرة فعلاً . والمهم أن نعرف متى وهل يحدث ذلك عندما يكون البشر قد نضجوا كفايةً لإستعمالها بتعقّلٍ وروية . قد تتساءل من أكون لأتهم أمثالي بأنهم قاصرون؟ و أجيبك أنني تيسٌ عجوز في الثالثة والسبعين من العمر ، وقد تسنى لي على مرّ السنين أن ألاحظ كيف تستخدم البشرية أكثر الوسائل تطوراً لخدمة القضايا الدنيئة،وتوظّفُ أسلحة العام ٢٠٠٠ لتسوية نزاعات تعود إلى العام ١٠٠٠ ، وتكتشف طاقةً هائلةً في الذرّة فتصنع منها أسلحةً فتاكةً. ولو صُنعتْ هذه المادة ، ألن تكون ثمرةَ دراساتٍ وأبحاثٍ طويلةٍ حول التقنيات المتطورة ؟ وأين تكمن فائدتها ؟ إنها تقوم على إلغاء وجود ملايين وملايين الإناث في

القارات الخمس لأن تقليداً غبياً يعود إلى العصر الحجري يقضي بإستمرار العائلة من خلال أبنائها الذكور ؛ ومرة اخرى ، توظّف الآلة الحديثة لخدمة قضية مرَّ عليها الزمن .

نعم ، أعرف أن الذهنيات تتطور على غرار التقنيات وتتداخل وتتعاقب . غير أن هذه وتلك لا تتقدّم دوماً بالوتيرة نفسها .وفي بعض الأحيان، عندما يكون الخطر داهماً ، يجب إبطاء وتيرة التقنيات أو إنتشارها . في عام ١٩٤٥، ما أن أصبحت القنبلة الذرية صالحةً للاستعمال ، إستعملها البشر بصورة غير واعية، فحصدت مئات آلاف الضحايا دون أن تغير مجرى الحرب ؛ وكل ما فعلته أنها اختصرت بضعة شهور من الحرب الدائرة في المحيط الهندي . ولو وجدت عام ١٩٤٣، لأمر هتلر بإلقائها على لندن ثم موسكو ونيويورك وواشنطن ، ولتغير مجرى التاريخ ، ولما تمكنت عائلتي وعائلة أندريه من اللجوء إلى سويسرا .لا أتقدم هنا بأية حقيقةٍ جديدةٍ ، وكل ما أريده هو التشديد على عامل الوقت.لوددتُ ألا تصنع القنبلة أبداً ، أو أن تصنع بعد ٢٠٠ عام ؛ غير أنني سعيدٌ لأنهم لم يخترعوها قبل عامين من تاريخ صنعها . وأنا سعيد كذلك لأنها ظلت تكنولوجيا ثقيلةً و مكلفةً . ولو حدث أنها انتشرت ، فليتها تنتشر ببطء شديد. والأمر نفسه ينطبق على هذه المادة اللعينة . فإذا لم تنتشر خلال ثلاثين عاماً ، آمل ألا تسيء البشرية استعمالها. ولكنك ترى بنفسك اليوم العالم الذي نعيش فيه !

أعترف بأنني في تلك الفترة ، كنت أستشف بصعوبةٍ مبهمةٍ وغامضةٍ ما يلمّح إليه. رمقتُ أندريه خلسةً .كان يهز لحيته مكتئباً . ثم نظرتُ إلى إيرين ليف التي سألت:

– ألم يكن من الممكن التدخل من قبل من أجل وضع حدٍّ لأبحاثٍ تؤدي حتماً إلى هذه النتيجة المأساوية ؟

- هذه أمور تقال دائماً بعد فوات الأوان ، أما أثناء الإكتشاف ، فكل عالم يرغب أن تتصل به السلطات ، أياً كانت ، وتشمّ أنابيبه المخبرية . وهذا واقع يؤكده لك صديقنا الشاب . كما أن البحث نفسه ليس موضع الإتهام . فعوضاً عن نزع العجلات الأربع في سيارة لتلافي انزلاقها ، أليس من الأبسط تغيير طريقة قيادتها؟

إسمحوا لي أن أسوق مثالاً في حقل إختصاصي، فمن بين زملائي ، هناك شخصٌ كرّس عشرين عاماً من حياته المهنية لاختراع أنواعٍ من التفاح أكبر حجماً ، ودأبَ على زيادة حجمها ، ولكنها عديمة النكهة ، وقيمتها الغذائية أقلُّ بكثير من تلك التي نستهلكها عادةً ، وفائدتها الوحيدة أنها تدرُّ مالاً وفيراً على بعض المزارعين الجشعين . وهناك زميلة أخرى من البندقية نجحت بعد ثلاثين عاماً من التجارب في مضاعفة حجم نوع من الأرز وتكثيف كمية الفيتامينات التي يحتوي عليها ، وبالتالي ، تحسنت نوعية غذاء زهاء ٢٠٠ مليون شخص بفضل هذه الباحثة . لقد درس هذان الباحثان في الكتب نفسها، واستعملا الإكتشافات الأساسية عينها والتقنيات ذاتها ، ولكنهما لم يوظفانها للغاية نفسها .

ذ

فور عودتي إلى باريس في ذلك المساء ،جلستُ إلى مكتبي لا لكتابة نصّ محاضرتي بل لتدوينِ كلمات لييف حرفياً قبل أن تضيعَ في غمـرة الأسبوع المشحون بالعمل الذي ينتظرني . لم أكن أعرف ، في تلك الفترة ، أنني سأكتب يوماً هذه المذكّرات . كنت فقط أريد أن أقدّم لكلارنس ، على الورق، عناصرَ تفيدها في تحقيقها . ألم أعدْها بمساعدتها كزميلٍ لها ؟

عندما وَصَلَتْ قادمةً من سيت ، حوالي منتصف الليل ، كانت استجابتها هي التي أترقّبها حتى آخر رفّة جفنٍ في عينيها . وإذ تَنَاوَلَت الأوراق بملء راحتيها حتى كادت تجعّدها، راحت تذرعُ الغرفةَ رواحاً ومجيئاً ، حافية القدمين أمام نظرتي المتربّصة . ثم قالت بكلّ بساطةٍ : "هذه المرّة ! " قبل أن ترمي بنفسها فوق السرير. هذه المرة ، نعم ، توفّرت مادةٌ للتحقيق . وبالطبع كانت تنقصها أسماءٌ وأماكن وتواريخ غير أن المهمة لم تكن تخيفها ، سوف تتقصّى الحقائق وتستدرج الأشخاص إلى البوح بالأسرار، وتختلس الوثائق لو اقتضى الأمر . سوف تتجهّم بعض الوجوه في الصحيفة!

وقد تسألون : أهذا ما كنتما تفكّران به ؟ بانتقام كلارنس من زملائها الذين سخروا منها في الصحيفة ؟ وماذا عن الخطر نفسه ؟ وملايين الإناث اللواتي لن يبصرن النور بسبب هذه "المادة العنصرية "؟. بالطبع ، كنت أفكّر في كل ذلك، ولكنني أعترفُ أنني ، لولا صديقتي ، لما بذلتُ كل هذا الجهد لأدوّنَ على الورق حديثاً دام ثلاث ساعات . لقد بدت لي المخاوف التي عبّر عنها ليف وشاركه فيها فالوريس جليلةً أكثر مما هي مرعبة، إذا جاز التعبير. فقد ظهرت كما لو أنها محاكمةٌ فكريةٌ جرت في يوم أحدٍ بين رجال شرفاء في منزل الأورلياني . وكان بإمكاننا التحدث عن الذرّة والمخدّرات والوباء أو أثر الدفيئة بأسلوب التهويل نفسه، وربما شعرت بأنني معنيٌ و فضوليٌ ومتأثرٌ

ومضطربٌ دون أن أكون بالضرورة معنياً أكثر من بلايين الناس غيري . ولن أذهب حتى القول إن النجاح المهني لصديقتي كان أكثر أهميةً عندي من مصير العالم ، ولكنني تصرّفتُ على هذا الأساس . فمن يستطيع أن يرجمني بالحجارة ؟ فهل الأمور التي تقضُّ مضاجعَ الآخرين أكثر نبلاً ؟

لم تكن رئيسة التحرير متحمّسةً للإصغاء إلى موضوعٍ يُثار من جديد على بساط البحث بعد أن اعتقدت أنه قد دُفِنَ نهائياً وسط التهكّم والسخرية . غير أنها أخذت في الحسبان العناصر الجديدة التي تبرّر عناد كلارنس على ما يبدو .

– سوف نتخّذ قراراً بهذا الشأن يوم الإثنين المقبل خلال إجتماع مجلس التحرير . وقبيل ذلك ، ولكي نتأكد من عدم وقوعنا ضحية التضليل، أريد منك أن تذهبي لمقابلة براداان .

هل من داعٍ لأعرّف القارىء ببراداان ؟ لا شك أنه أصبح اليوم في طيّ النسيان بعض الشيء ، ولكنه كان في تلك الفترة معروفاً وحاضراً، ومنذ وقتٍ طويل ،حتى أصبح اسمُهُ غنياً عن التعريف . وأعتقد أنه شغل لفترةٍ وجيزة منصباً وزارياً في الحكومة ، ولكن يجب العودة إلى السجّلات للتحقّق من التاريخ والوزارة التي تسلّم مهامها . وفي الفترة التي أتحدّث عنها ، كان يرأس بعض اللجان والجمعيات ويقدم مشورته لصحيفة كلارنس التي كان أحد كبار المساهمين فيها . كان رجلاً نافذاً وأحدَ صانعي الرأي العام .

قبلتْ صديقتي مقابلتَهُ – وهل تُركَ لها الخيارُ أصلاً –غير أنها كانت متوترةً بعض الشيء عشيةَ اللقاء . كانت مستعدةً لمواجهة أكبر عظماء العالم بسهولةٍ طالما أنه يمارس دوره وأنها تمارس دورها ، ولكن ذهابها للقاء براداان كان أشبه بالذهاب للترويج لبضاعتها . لم يكن الأمرُ يعجبها ، وفضلاً عن ذلك ، لم تكن تشعر أنها متمرّسةً بما فيه الكفاية للحديث عن الموضوع .

اقترحتُ عليها أن أرافقها بما أنني تحدّثتُ مباشرةً مع ليف ، ولكنها رفضتْ عرضي بهزّةٍ أبيّةٍ من كتفيها .

كان برادان دمثاً ومُطَمّئِناً ، وترك زائرتَه تعرضُ موضوعَ تحقيقها دون أن يقاطعها، مكتفياً بتشجيعها بين الحين والآخر بإيماءةٍ من رأسه . تحدثت هي بدقّةٍ، متحاشيةً ذكرَ ليف أو فالوريس صراحةً أو ذكر كلمة "جُعْران" خوفاً من إثارة سخريته . غير أن برادان كان مطّلِعاً على الأمر .

–أخبرتني موريل فاست أن بحوزتك بعض البرشانات المصرية .

– نعم ، " فول الجُعْران" . لم أحدّثك عنها لأن لا شيء يدلُّ على أن لها علاقة بهذه القضية .

– من يدري ! ماذا قلتِ ؟ "فول الجُعْران" .. سبقَ لي أن قرأتُ هذه العبارة ، ولكن ذاكرتي تخونني في هذه السن ...

صمتَ قليلاً واستغرق في التفكير . وانتظرت كلارنس احتراماً له أن ينتهي من نبش ذاكرته . وأردف قائلاً :

– سأحاولُ التذكّر . ولكن لنَعُدْ بالأحرى إلى ما قلتِهِ . للوهلة الأولى، وقبل إمعانِ التفكير ، يبدو لي الأمر غامضاً ومحيراً ، والشيء الوحيد الذي يبدو لي ملموساً ، ولا شك أنك تحقّقتِ منه ، هو هذا الخلل في الولادات بين الذكور والإناث في بعض البلدان ، ولكنها ظواهرُ لا يمكن دراستها علمياً إلا بعد مرور عقدٍ من الزمن، ولنفترض جدلاً أن ما قيلَ لكِ يعبّرُ عن حقيقةٍ ما . أنا لستُ مقتنعاً بذلك ، ولكنني أريد أن أفترض أنه سيتم اكتشاف طريقة بسيطة وناجعة في يومٍ من الأيام لتحديد النسل في بعض مناطق العالم . هل يكون الأمر كارثةً أو إبادةً جماعيةً ؟ لا أعتقد . ثمة دول مكتظة بالسكان وغير قادرة على تأمين الغذاء لهم . وقد حاول زعماؤها بكل الوسائل الحدَّ من التضخم السكاني . وكانت النتائج التي توصّلوا إليها محدودةً بل ومعدومةً في

بعض الأحيان . وإذا وُجدت غداً أو حتى اليوم وسيلةٌ لتحديد النسل دون إراقة دماءٍ ، ودون إكراهٍ ، وبملء إرادة الوالدين ...

لا بد أن برادان استشفّ في عينيّ زائرته أن تحليلَهُ قد وقع منها موقعاً . فخاطبها مباشرةً قائلاً :

– نعم ، لو وُجِدَ الحلُّ ، فما الأمر الشائن أو الإجرامي فيه ؟ عندما فرضت السلطات الصينية سياسة الولد الواحد ، لجأ العديد من الأهل في شنغهاي وغيرها من المدن إلى رشوة الأطباء والممرّضات بغية " إخفاء " مولودهم الأول إذا كان بنتاً . وفي الهند ، عندما أرادت الحكومة تحديد النسل بالقوة، إنتفض الناس ، فقد اعتبر الرجال أنه انتقاصٌ لرجولتهم وشرفهم . ولوكانت المادة التي تتحدثين عنها مصنَّعةً ، لتوصّلنا إلى النتيجة نفسها دون جرحِ مشاعر الناس ، بل وربما نكون قد احترمنا طريقة تفكيرهم ودوافعهم .

شعرت كلارنس أنها استيقظت فجأةً من تنويم مغناطيسي عميق :

– إذا فهمتُكَ جيداً ، ستصبح الشعوبُ عقيمةً وإن شعركلُّ فردٍ بقدرته التناسلية. وفوق كل ذلك ، سيكون سعيداً بإنجاب طفلين ذكرين أو ثلاثة أو أربعة .

– ليس المطلوب تعقيم شعوبٍ بكاملها ، ولكننا لا نستطيع الإنكار أن هذه المادة ، لو وُجِدَت وراج استعمالها ، لحُلَّت مشكلة الإكتظاظ السكاني ، على المدى الطويل، في المناطق التي يستفحلُ فيها .

أنظري إلى العالم اليوم . إنه ، وبكل وضوحٍ ، منقسمٌ إلى قسمين . من جهة ، هناك المجتمعات المستقرة من حيث عدد السكان ، التي تتعاظمُ فيها الثروات وتتعزّزُ الديمقراطية مع تطوراتٍ تقنية شبه يوميةٍ وعيشٍ مديدٍ ، وحقبةٍ ذهبيةٍ منقطعةِ النظير من السلام والحرية والرخاء والتقدم، لم يشهد مثلها التاريخ. ومن جهة أخرى ، شعوب تتنامى أعدادُها ويتفاقمُ فيها البؤسُ

دون هوادةٍ ، وحاضراتٌ أخطبوطيةٌ يجب إمدادُها بالمساعدات الغذائية عن طريق البواخر ، ودول تتخبّط في دوّامة الفوضى .

منذ عقودٍ عديدة والعالم يبحث عن حلول ، ولكن الوضعَ يتأزم يوماً بعد يوم. لقد أصبحت هناك بشريتان، والهوة بينهما غير قابلة للردم.ولنفترض بأن العناية الإلهية قد منّت علينا فجأة بحلٍ ، من يتذمّر في هذه الحالة ؟ هل يتذمّر قادة العالم الثالث الذين يجب أن يؤمنوا الغذاء كل يومٍ لأفواه جديدة ويرون التقدم البطيء في الانتاج يتلاشى ويتبدّد ويغرق وسط السيول البشرية؟ ونحن المحظوظون الذين يتضاءل عددنا يوماً بعد يوم ، ألن نتمنى أن ينعم أمثالنا في الجنوب برخاءٍ أكثر وتضخُّمٍ سكانيٍّ أقلّ ؟ من سيتذمّر ، قولي لي ، إن وُجِدَ الحلُّ ؟

لم تعرف كلارنس بالفعل ، أو بعد ، من سيتذمّر ... وبدت محاججةُ برادان للوهلة الأولى مُفْحِمَةً . فحاولت ، بمنطقها الغريزي، حملَ محدّثها على العودة إلى موقعٍ تستطيع فيه أن تقارعَه الحجّة .

– ما تقوله يذهلني ،وأعترف بذلك بكل سذاجةٍ ، وسوف أمعنُ فيه التفكير بعد مغادرتي مكتبك . لقد وضعتَ إصبعَكَ على مشكلةٍ جوهرية من مشاكل عصرنا. ولأنها بالضبط جوهرية ، فمن الطبيعي أن تتناولها صحيفتنا وتخصّص لها حيزاً أكبر مما كنت أتصوره لدى دخولي إلى مكتبك .

– أنا سعيدٌ لأن كلماتي أثّرت فيك . ولكنها ليست سوى آراء نوقشت منذ أمدٍ بعيد، وهي لا تحمل في طياتها شيئاً جديداً . ولو أردتِ في يومٍ من الأيام دراسة مشاكل العالم الثالث ، تعالي لزيارتي ، فلربما استطعت أن أخبرك بالمزيد . وكل ما أودُّ أن أوضّحه لك هو أنني ، خلال هذه المسامرة الودودة، لم أفعل سوى التفكير بصوتٍ مرتفعٍ حول فرضيةٍ مدرسيةٍ طرحتِهَا أمامي ، أي وجود مادة تسمح بإنتقاء جنس المولود . وعلى حدّ علمي ، هذه

المادة غير موجودة . ولو كانت منتشرةً اليوم عبر العالم ، من الهند إلى مصر ، ألا تعتقدينَ أن هذا الخبر سوف ينتشرُ علىكلّ شفةٍ ولسانٍ ؟

نَظَرَ خفيةً إلى ساعته ليفهم كلارنس أن المقابلة قد انتهت . ولكنها أصرت:

– لنسلّمَ بأن هذه القصةَ لا أساس لها من الصحة ، ولكنني أودُّ المضيَّ في التحقيق حتى النهاية .

انتصب برادان واقفاً دون أن يتكيء على شيء :

– أفهمُ تشبثّك وإصرارك . لقد كنتُ أنا أيضاً شاباً وعنيداً . ولكن صدّقيني ، أنت تضيعين وقتك عبثاً ، أقسمُ لك بمشيبي .

– هل أستطيعُ التحقيقَ في الأمر ؟ هل أقول لموريل فاست إنك لا تمانع ؟

تجهّم وجهه وأعلن قائلاً :

– يا سيدتي الشابة ، أخشى أن هناك سوءَ تفاهم بيننا . أنت أتيتِ طلباً للنصيحة ، وأنا نصحتك قدر المستطاع ، وهنا ينتهي دوري . وإذا أردتِ القيامَ بالتحقيق فعليك أن تناقشي الأمر مع رئيسة التحرير .

وإذ رافقها إلى الباب ، رَسَمَ من جديدٍ ابتسامةً مفتعلةً على وجهه، وختم حديثه قائلاً :

– في كل الأحوال ، ما أن أحصل على عنصرٍ جديد من شأنه أن يبدّدَ بعض الغموض ، لن أتردّد في إطلاعك عليه ، أنت أو السيدة فاست .

ولئن تمكّنتُ من استعادة الحديث بكامله ، فلأنّ كلارنس ، كما تتوقعون ،قد أعادت سردَهُ حرفياً أمامي فور عودتها . وعندما انتهت ، أضافت ساهمةً وغير راضية :

– أصبحتَ تعرفُ الآن ما قالَهُ، وأخشى أن أكونَ قد أهملتُ الأهمّ .

وصمتت وهي تبحث عن كلماته أو عن صورة لا تزال حيةً في ذاكرتها ، ثم أردفت قائلةً :

– لا أملك أيَّ دليلٍ ملموسٍ ، ولكنَّ بعض اختلاجات وجهه وصوته، لاسيَّما عندما لفظ كلمة "مادة" ، عزّزت شكوكي بأنه يتحدّث عن شيءٍ موجودٍ وليس مجرد فرضية ، بالرغم من كل حذره وتحفُّظه في الكلام .

وأطرقتْ قليلاً :

– شعرتُ بإحساسٍ غريبٍ عندما تحدّث عن " فول الجُعْران " ...

عندما أثارت كلارنس من جديد مشروعها أمام مجلس التحرير بعد يومين، ابتسم البعض غير أنها لم تكترث لهم إذ إنها كانت منهمكةً في إعداد أبرز عناصر الملف، لا سيما تلك التي جمعها فالوريس . تركتها موريل فاست تعرضُ حجَجَها قبل أن تسألها :

– قابلتِ برادان ، أليس كذلك ؟ ما هو شعورُهُ ؟

– إنه يعتقدُ أن المشكلةَ تستحقُّ الاهتمامَ ولكن العناصرَ المتوافرة لديّ لا تزال غير كافية .

– أفهم من كلامك أنه يعتبرنا غارقين في بحرٍ من الافتراضات .

أرادتْ كلارنس أن تجيب ، ولكن رئيسة التحرير أسكتتها بحركةٍ مطمئنة وتابعت :

– أعترف بأن القضية تحتوي على بعض العناصر التي قد تحيّرُ عقلاً فضولياً مثل " حبات الجُعْران"هذه . هل تعتقدين فعلاً أن لها علاقة بالظاهرة التي تستقطبُ اهتمامك ؟

– لا يجب أن أهملَ أي عنصرٍ أسوةً بغيره من العناصر التي قد تكون مفيدةً في التحقيق .

– لديَّ الانطباع أنك تحدّثْتِ مع برادان عنها .

– لقد قال لي إن الإسمَ يذكّره بشيءٍ ما ولكن خانته الذاكرة .

– لقد تذكّرَ أخيراً وأرسلَ لنا اليومَ هذا .
وإذ تناولت موربيل فاست من حقيبتها كتاباً مجلّداً ،
شرعت تقرأ :

" دخلنا ، أنا ورفاقي ، أحد الحوانيت التي تقوم مقام الصيدلية في هذه البلدة. عرض علينا البائع ضمـاداتٍ تركيـة ومراهـم ، لـو اشتريناها ، لفـاحت رائحتها النتنة في مركبنا بقية الرحلة ، بالإضافة إلى "حبات الجُعْران" التي قيل لنا الكثير عن فضائلها الجنسية ، وقد تحفظ البعض عن شرائها بداعي الحذر ، والبعض الآخر بدافع الحياء " . وعنوان هذا الكتاب هو "رحلتي علـى ضفـاف النيل " لجوستاف ميسونييه ، وقد نشر في ... (قلبت الصفحات وأخذت الوقت اللازم للتحقُّق من تاريخ النشر) ..مارسيليا عام ١٩٠٤ .

وهكذا ، استبعدَ الجُعْران إلى الأبد .
ولكن ماذا عن كلارنس ؟ وعن كرامتها المجروحة ؟
ماذا عن جرحها ؟ وعينيها اللتين خَبَتْ جذوتُهما ؟
لقد تصدّعتْ .

لوددتُ أن تصرخَ وتشتمَ وتصفقَ الباب أو تحطّـمَ مصباحـاً لا يـروقُ لها شكلُهُ. لكنّها لم تملك حتى القوة على مسح دمعةٍ انزلقت علىطرفِ أنفها . لم أعرف سوى نتفٍ ممزّقة ومضطربةٍ ممّا جرى : الفخ الذي أوقعوهـا فيـه، القهقهات الصاخبـة ، ذاك الزميل الذي يعتذر منهـا ضاحكاً بحازوقـةٍ بيـن غصتين . صَمّتْ أذنيها ، وهرولت على السلالم ، وانتحبت في سيارة الأجرة، وما أن وصلت إلى الشقة حتى تهالكت بانتظار عودتي .

لم أكن أكره أن أقدّمَ لهـا العزاء ، لـولا القلـق الذي اعتراني . ففـي الأيـام التاليـة، استحضرتُ مـراتٍ عديدة مشـهداً مـن فيلـمٍ بولنـديٍّ مـن فـترة السبعينيات، يشكو فيه بمرارةٍ أحدُ الصحافيين لصديقه الطبيب النفسـي متـاعبَ مهنته التي تجعل الحياةَ مستحيلةً ، فيجيبه الطبيب : "كُنْ علـى ثقـةٍ أن الشـيء

الوحيد الرهيب الذي قد يصيبك هو أن تفقد غريزة البقاء " . وهذا ما كنت أخشى أن يصيب امرأتي الصحافية ، أن يتملّكها الإحباطُ والإنهيارُ ثم السقوطُ إلى الهاوية . لم أذهب إلى عملي بقية الأسبوع مدعياً المرض حتى أمدَّ لها يد العون :

– لا تتذكري ما حدث ، لا تجترّي أحزانك ، ألفظي السمومَ بدلاً من أن تتركيها تسرحُ وتمرحُ على هواها داخل جسدك !

كان علاجي بسيطاً ويقوم على البقاء قربها وإلهائها بثرثرةٍ ودودة ووجباتٍ فطورٍ لا تنتهي أمام الواجهة الزجاجية . كنا نبقى هكذا أياماً بطولها ، نرتشفُ ونقرقشُ الطعام ونتبادلُ أجملَ التفاهات . وعندما كان الصمتُ يخيّم ثقيلاً ، كنت أتحدّث عن الحشرات التي جمعتُ عنها مئات النوادر أسردُها الواحدة تلو الأخرى كمناديل الورق .

وبعد فترةٍ قليلة ، جفّت دموع كلارنس ، غير أنها ظلّت خائرةَ القوى كما لو أن جذوتَها قد انطفأت . كانت تقول إنها غير قادرة على العودة إلى الصحيفة ، وأنا بدوري شجّعتها على ترك عملها ، إمّا من أجلِ عملٍ آخر تُقدَّرُ فيه حقَّ التقدير ، أو – طرحتُ الفكرةَ تلميحاً –من أجل إجازةٍ طويلة تنجبُ فيها بياتريس .

– في الحالة التي أنا فيها ، ستكون طفلةً تعيسةً . لوددتُ التوقف عند ذروة المجد والإشعاع والإنتصار ، وأن يأتي طفلنا تتويجاً لسعادتي، وليس جائزة ترضية أو علاجاً ضد اليأس .

– لماذا " علاجاً "؟ إذا ساعدتكِ الطفلةُ على اجتياز هذه المحنة ، أفلا تكون بالأحرى حليفةً وشريكةً ؟ بل أنا أعتبرها " مخلِّصةً " !

رمقتني صديقتي بنظرةٍ غريبةٍ لمحتُ فيها التباساً حنوناً ، ثم أعلنت بنبرةٍ متعاليةٍ زائفةٍ :

– إذا قبلتُ في يومٍ من الأيام ، فذلك لأنني أحبُّكَ فقط .

– لا أرى سبباً أفضل من ذلك .

كان جوابها موافقةً ضمنيةً .

وقد أعلنت موافقتها صراحةً في اليوم الذي كـان مـن المقرّر فيـه أن ألقي محاضرتي عن السيارة والحشرات المُغْمَدَة الأجنحة . ولم أكن قد وجـدتُ حتى ذلك الحين التركيزَ الكافي والضروري لكتابة النص . وقررتُ إلقاءَهـا مستعيناً بملاحظاتٍ دوّنتُها على بطاقاتٍ صغيرةٍ ، وكنتُ غالباً ما ألجأ إلى هذه الوسيلة خـلال محـاضراتي الجامعية ، ولكنني أتحاشـى الاعتمـاد كثيراً علـى سرعة بديهتي عندما يكون الحضور مختلفاً والموضوع غير مألوف .

كان نومي مؤرّقاً واستيقظت معكّـر المزاج ، ورأسي أشبه بفجوةٍ سوداء كبيرة كما لو أنني أساقُ إلى المسلخ ... وفي اللحظة التي كنت أهمُّ فيها بالخروج من الشقة ، قالت لي كلارنس همساً – مع أننا كنا وحدنا – إنهـا "لـن تستعمل وسائل وقايةٍ بعد الآن " .

أجمَعَ كلُّ الحضـور ، هـذا الأربعـاء ، أنني كنـتُ لامعـاً ومقنعـاً ، متمرّساً في الموضوع وخطيباً مفوّهاً بصورة لا يرقى إليها الشك .

صافحتُ عشرات الأشخاص مردّداً لنفسي أمام كلّ مديحٍ : "شكراً لك يـا كلارنـس " ، " شـكراً لـك يـا بيـاتريس" . وفـي المسـاء ، عندمـا احتضنـتُ صديقتي بين ذراعيَّ ، شعرنا بأننا نتوجّهُ إلى مخدعنا للمرة الأولى .

سألتني ممازحةً بينما كنتُ أنزعُ ثيابها :

– هل تحبني أم تحب ابنتك ؟

– في هذه اللحظة ، أعشقُ الكونَ بأسره ، ولكنني أودُّ التعبير عن عشقي لجسدك .

تظاهرتْ بالممانعة :

– بسببك ، سوف يتشوّهُ جسدي بعد بضعة أشهر .

– يتشـوّه ؟ هـل يتشـوّهُ بطـنٌ يتكـوّرُ كـالأرض ؟ هـل يتشـوّهُ ثديـان يرتويان حليباً ويمدّان شفتيهما السمراوين لملاقاة شفتيّ الرضيـع ، أو ذراعـان يعانقان جسدين وذاك الوجه الذي يرنو ؟ يا إلهي ، إنها أبهـى صـورةٍ يتأملهـا إنسانٌ محكومٌ بالفناء. تَعَالَيْ !

في تلك اللحظة ، ينطفيء قنديلٌ ، وينغلق بابٌ ، وينسدل ستارٌ فـي الأفلام الخَفِرَة . وفي بعض الروايات ، تُقلبُ صفحةٌ إنمـا ببطء كمـا يجـب أن تمرّ هذه الدقائق ، بطيئةً ، دون ضجةٍ ، غير ستارةٍ ترتعش .

ر

أبصرت بياتريس النور في الليلة الأخيرة من شهر آب . أبكرتْ قليلاً كما لو أنها أرادت أن تلحق ببداية العام الدراسي . كانت تلميذة ذكية إنما مشاغبة، قليلةَ النوم و شرهة ، لها قدمان ملتويتان ترسمان باستمرارٍ إشاراتٍ غير مفهومة.

كانت حشرةً ورديةً غريبةً .

في صباح اليوم التالي ، كنتُ وحدي في الشقة ، حليقَ الذقن ، معطّراً ، أدندنُ وأهمُّ بالذهاب إلى الحضانة لملاقاة امرأتيّ حياتي ، عندما رنَّ الهاتف. كان اتصالاً غير متوقّع أبداً من موريل فاست التي طلبت التحدث مع كلارنس .

موريل فاست ! في المرات النادرة التي لا يزال اسمُها يُذْكَرُ في أحاديثنا ، كان التلفُّظُ به أشبه بهدفِ رمايةٍ في مدينة ملاهٍ .

غير أن الوقت لم يكن وقتَ الأحقاد . كنتُ أعيشُ حسب توقيت بياتريس ، ونبرةُ صوتي تكاد تكون ودودةً :

– كلارنس غائبةٌ لبعض الوقت ...

– أستميحُكَ المعذرة ، ولكن ... هل ما زالت تقطن في هذا العنوان؟

_ أكثر من أيّ وقتٍ مضى !

لم أكن متأكداً أن صرخة السعادة التي أطلقتها لاقت أذناً صاغيةً . تنحنحت موريل ولا بدّ أنها تعجّبت لرفع الكلفة الذي بدرَ مني :

– كنت أودُّ التحدُّثَ معها قليلاً .

– أستطيع أن أطلب منها الإتصالَ بك لدى عودتها .

– لا ، لستُ متأكدةً أنها ستفعل . هل يمكنك إبلاغها ...

– إذا أردتِ ، أسجّلُ رسالتك .

- آه ، ربما هذا أفضل حلّ .

وأدرتُ مسجّلة الرسائل الهاتفية :

- عزيزتي كلارنس ، أتقدم منك باعتذارٍ متأخرٍ، ولكنه صادقٌ ويأتي بعد تفكيرٍ مليٍّ . لقد فكّرتُ كثيراً هذا الصيف بشأن ...لا ، إسمعْ ، أشعر بالغرابة هكذا ، سوف أكتب لها رسالةً .

- كما تشائين .

بدا لي مشبوهاً هذا الندم الذي يأتي متأخراً بعد عشرة أشهر ، وأثار امتعاضاً صريحاً على وجه كلارنس التي وجدت له تبريراً بعد يومين ، عندما خصّصت الصحف حيّزاً بارزاً في صفحاتها لتحليل تقريرٍ صادرٍ عن منظمة الأمم المتحدة حول"الإنجاب الإنتقائي". وهو تعبيرٌ سوف يصبح، للأسف ، شائعاً لفترةٍ طويلة !

استناداً إلى واضعي التقرير -وكانوا حوالي عشرة خبراء من دول عديدة - سُجّل انخفاضٌ ملحوظٌ في عدد المواليد الإناث " دون أن يكون بالإمكان عزوه إلى سببٍ واحد" . كانت هذه الظاهرة تعود ، وقد بقي التقرير غامضاً حول هذه النقطة ، إلى " جملةٍ من العوامل المستقلة التي ربما تضافرت على ما يبدو لتوليد هذ الخلل". وأشار التقرير بشكلٍ خاص إلى "انتشار حالات الإجهاض العنصري واعتماد بعض وسائل التخصيب الإنتقائي"... ويبدو أن هذه الظاهرة قد تفاقمت خلال السنوات الأربع السابقة وأصابت كل القارات بصورةٍ متفاوتة .

قبل التطرّق بالتفصيل إلى السجال الذي دار حول التقرير ، يجب أن أقرّ بأنه باغتني على الدوام سلباً أو إيجاباً ، وغالباً ما أوقعني في الحيرة والتضليل. فهل السبب هو معاشرتي للحشرات المُغْمَدَة الأجنحة التي تجعلني هاوياً وساذجاً ما أن يتعلّق الأمر بالبشر ؟

افترضتُ أن التقرير سيثير غريزةَ بقاءٍ قوية ، وكل ما فعلَهُ هو إثارة الخلافات بين الإختصاصيين . ولن أدّعي أن أبناء جلدي يفتقرون إلى غريزة البقاء على مستوى الأفراد والجماعات ، وبدرجةٍ أقلّ ، على مستوى الجنس البشري . غير أن طبيعتنا شديدةُ التعقيد كي توجّهَ تلك الغريزة أفعالنا بثباتٍ وديمومةٍ ؛ فهذه الغريزة تضلُّ السبيل في غابةٍ مظلمة من الأفكار والأحاسيس والنزعات التي تفرض نفسها علينا بطابعها الملحّ حتى تعمينا عن ضرورات البقاء . والأمر ليس غريباً عن بعض الحشرات كما ستسنح لي الفرصة لشرح ذلك لاحقاً.

أما عند هذه المرحلة من السرد ، فأريد فقط الإشارة إلى أن التقرير ، بعد نشره، أثار لغطاً كبيراً ، وكلما تحدّث الناس عنه ، تعاظمت حيرتهم ، وأصبح التحذير الذي يتضمنه مسموعاً بهذا القدر أو ذاك من المصداقية . بعد بضعة أيام ، تراءى كل ما قاله الخبراء صحيحاً وخاطئاً ، جوهرياً وتافهاً معاً. وكانت المحصّلةُ باهتةً وسطحيةً . ألم نكن نعيش في عصر الأضواء التي تعشي الأبصار ؟

يبقى هذا السجال مرتبطاً في ذاكرتي بولادة بياتريس . لقد بدأ عصرٌ جديدٌ بالنسبة إلىقبيلتي الصغيرة ، وربما سائر البشرية . عندما كانت "ضيفتنا" توقظنا ليلاً ، وكل ليلةٍ ، وأكثر من مرةٍ في الليلة ، أصبحت لنا أنا وكلارنس عادةٌ غريبة. فقد كنا ننهض معاً ، هي لترضيعها وأنا - من يصدّق ؟ - لأقرأ لها ، بصوتٍ خفيضٍ .

- المقالات المتعلقة بموضوع تحقيقها مما هوّنَ علينا اجتياز هذه المرحلة دون قلقٍ مفرطٍ . صحيحٌ أننا كنا في إجازةٍ نحن الإثنين معاً بما أن محاضراتي في الجامعة لا تبدأ عملياً قبل شهر تشرين الأول وأنني طلبتُ إعفائي من أية مهمةٍ تدريسيةٍ حتى نهاية الفصل الأول .

لم تكن هذه السنة بالفعل السنة السابعة التي تتمناها كلارنس ، ولكن إجازتها الخاصة سوف تكون قصيرةً جداً . فمنذ الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني ، وضعت كلارنس حداً لهذا الكسل القسري ، وكانت تتوق إلى مباشرة تحقيقها بعد أن قررت الإنطلاق مرتين ولم تفلحْ . وفي يومٍ من الأيام ، حسمتْ أمرها وأعلنتْ، وهي تضحكُ ضحكةَ الخلاص ويدها على مقبض الباب :

– سوف أترككما أنتَ وابنتك .

ومضت تجوبُ الآفاق .

قادتها رحلتها الأولى إلى منطقة أورليان عند عمانوئيل لييف بناءً على توصيتي ، ولكنني سرعان ما فقدتُ أثرها . كانت تصرخُ بين حمّامين أنها ذاهبةٌ إلى روما، أو الدار البيضاء ، أو زوريخ ؛ وبعدها بيومين ، أعثر على رسالةٍ مكتوبةٍ على عجل تعلمني بأنها عادت " لتغيير ثيابها " ، ثم غادرت من جديد .

استمر ترحالها ثلاثة أسابيع ، وكانت موربيل فاست تتصلُ بها كل يومٍ تقريباً ، ولكن كلارنس اتفقت مع صحيفةٍ يوميةٍ معروفةٍ دفعت لها سلفاً كل مصاريف التحقيق .

نُشِرَ مقالها في شهر كانون الأول قبيل عيد الميلاد، وأعتقد أنه تضمَّن المعلومات الرصينة الأولى حول بروز الكارثة . ولا أتكلم هنا كعاشقٍ بل بصفتي عالماً وقارئاً نهماً . جمعتُ كل ما نشرته أشهرُ الصحف العالمية . وأمطرني أندريه من جهته بوابلٍ من القصاصات ، وأستطيع الجزم أن كل المعلومات المتوافرة حول الموضوع قبل التحقيق الذي قامت به كلارنس اقتصرت على رصفٍ لأحداثٍ مبعثرة ومجموعةٍ من الفرضيات . أما هي، فقد عرفت أن تذهب أبعد من ذلك بفضل الإرشادات الدقيقة التي زوّدها بها لييف.

في بادىء الأمر ، تمكّنَتْ من الإثبات بالدلائل والقرائن أن فريقاً من الباحثين الذين تحمّسوا بعد نجاح بعض التجارب على الأبقار ، أرادوا أن يخترعوا مادةً قادرة على التأثير في الأعضاء التناسلية للرجل من أجل تحفيز ولادة الذكور. ولقد تدخّلت بالفعل سلطاتٌ عليا عاقبت الباحثين وفضّت شملهم. غير أن المشروع كان قد تقدّم في مراحله بما فيه الكفاية لتتلقّفَهُ مختبراتٌ أخرى في ظلّ قوانين أقل تشدُّداً وصرامةً .

وقيل إن أحد الأشخاص ، على وجه التحديد ، تولّى المهمة المزدوجة الرامية إلى إنتاج " المادة" وترويجها ، يدعى الطبيب فولبو ، وهو يتمتع اليوم بشهرة بائسة ، ويعتبرُ العقل التجاري الحقيقي لفريق العلماء بدلاً من أن يكون عقلهم العلمي . ويبدو أنه هو الذي خطرت بباله ، في مرحلةٍ مبكّرةٍ ، فكرة الرحيل وشراء بعض الشركات في دول الجنوب التي تُصنّعُ عادةً مواد شبيهةً بالعقاقير، والتستر ورائها لتصريف مادته الجديدة .

كانت إحدى هذه الشركات الكائنة في مرفأ على البحر الأحمر تُصنّعُ منذ مئتي عام " فول الجُعْران" . وذكرت كلارنس كيف اشتراها الطبيب فولبو في التسعينات ، وطوّرها لتصبح شركةً متعدّدة الجنسية سريةً ومترامية الأطراف .

لقد تمثّلت عبقرية هذا الرجل في نجاحه بترويج مادةٍ ثوريةٍ بغلافٍ قديم ، وعدم الاعتراف بذلك علناً حتى لا يثير شكوك السلطات . "ففول الجُعْران" والمستحضرات المماثلة لم تكن أبداً قانونيةً تماماً ، ولكن السلطات كانت تغضُّ الطرف . وقد دأبت شبكةٌ من الباعة على تسويقها إلى عددٍ كبيرٍ من الزبائن السذج . وفجأةً ، ها هو فولبو يقدّم بتكتُّمٍ لهؤلاء الزبائن مستحضراً ناجعاً ويكاد يكون مضمونَ النتائج . وقد راهن على أن تناقل الأخبار عن مستحضره بين الناس يكفي ليضمن له الرواج السريع . وهكذا، يقبل الناس على شرائه ، وكل منهم يتخيل أنه اكتشف لتوه الفضائل القديمة

أصلاً لهذا المستحضر ، في حين تنطلي الخدعة على السلطات التي اعتادت رواج هذه المساحيق العجائبية المزعومة بين الناس. غير أن فولبو حرص أيضاً على تغيير الإسم التجاري والتعليب مراراً وتكراراً ، لا سيما بعد أن بدأت الصحف تتحدث عن " الجُعْران".

منذ سبعة أعوامٍ ، يبدو أن هذه "المادة" قد انتشرت انتشاراً واسع النطاق في دول الجنوب خاصةً وتحت أسماءٍ مختلفة وعديدةٍ مما أتاح لفولبو أن يجمع ثروةً طائلةً دون شكٍّ .

وقد حرصت كلارنس على عدم الخوض في العواقب المحتملة لاستعمال "المادة" على نطاقٍ واسع ، واكتفت بذكرها بصورةٍ عامةٍ في الخاتمة، وبعرض الوقائع وإثبات مصداقيتها . وبفضل تحقيق كلارنس وبعض التحقيقات اللاحقة التي استلهمت دراستها، لم تعد بعض الحقائق موضع شكٍ كوجود "المادة" المزعومة ، وانتشارها الواسع ، وتقاعس السلطات إزاءها . أما ما كان مثار جدلٍ حاد خلال سنوات طويلةٍ ، فيمكن اختصاره بسؤالين متعاقبين : هل لهذه " المادة" أثرٌ مستديمٌ وعميقٌ على سكان العالم؟ وفي هذه الحالة ، هل يكون الأمر نعمةً أم نقمةً ؟

لا أريد أن أستفيض في الحديث عن هذا السجال ، فمن غاية السهولة دراسة استشرافات هذا الفريق أو ذاك بعد حين ، وتوزيع اللوم والمديح . لم يكن أحدٌ في هذه القضية نبياً صادقاً ، ولكن البعض كانوا أكثر فطنةً من غيرهم ككلارنس مثلاً. غير أنني لا أجد بأساً في تخصيص ثلاث أو أربع فقرات ، للتطرّق إلى رأيٍ كان سائداً وقتئذٍ ، وبقي رائجاً لبعض الوقت . وقد أجاد بول برادان التعبير عنه في مقالٍ نشر بعد بضعة أيام على نشر مقال كلارنس، تحت عنوان : " سكان جدد لألفيةٍ جديدة" . وقد استعاد فيه بعض الأفكار التي لوّحَ بها لدى لقائه بكلارنس مع بعض التوسيع والتفصيل :

" ليست المرة الأولى التي نصل فيها إلى سيناريوهاتٍ عبثيةٍ انطلاقاً من بعض الأرقام و تضخيم ظاهرة لا تزال في بداياتها. كم من مرّةٍ أعلنوا لنا نهاية العالم ؟ و لكن الأرض بيضة يصعب كسرها ".

ثمّ ، وبعد استطرادٍ مقتضبٍ وإشارةٍ واضحةٍ إلى صديقتي ، تابع قائلاً :

" يقول لنا البعض إن مواد مستحضرة حديثاً من شأنها إبطاء التزايد السكاني العالمي . وبدلاً من رسم خطوطٍ اعتباطيةٍ والتنديد بخواء الأرض من سكانها ، لم لا نعتبر هذه الظاهرة ، على العكس ، مرحلةً طبيعيةً وإيجابيةً من مراحل التاريخ الكوني ؟

لقد تزايد سكان العالم طوال آلاف السنين تزايداً بطيئاً وعشوائياً . ولئن كانت الولادات كثيرةً ، فالوفيات لم تكن أقلّ منها . كانت وفيات الأطفال وانتشار الأوبئة والمجاعات تعيق زيادةً سكانيةً كبيرةً . ثم دخلنا مرحلةً ثانيةً تراجعت خلالها الوفيات بفضل تقدم الطب والتقنيات الزراعية ، غير أن الولادات بقيت مرتفعةً . بيد أن هذه المرحلة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد . فمنطقياً ، يجب أن تتراجع الولادات ، وأن يستعيد سكان العالم استقراراً متوازناً ومنسجماً . وهذا هو الوضع السائد منذ بضعة عقودٍ في الدول المتقدمة التي تنعم بفضل ذلك بالسلام والرخاء . أليس من الأفضل أن ينطبقَ هذا الوضع على كل أرجاء العالم ؟ أليس الوضع الحالي هو العجيب بالأحرى، أي أن يتضاءل عدد الأطفال في البلدان القادرة على توفير الغذاء والملبس والعناية لهم، بينما تتزايد أعدادهم في البلدان العاجزة عن رعايتهم ؟

إذا حصلت المعجزة وتقلص فائض السكان في الدول الفقيرة ، سوف يختفي العنف والجوع والبربرية خلال الجيل القادم . وعندئذٍ ، تكون البشرية قد نضجت للدخول في الألفية المقبلة .

وختم برادان مقاله بهذه العبارة التي أقلُّ ما يقال عنها ، بعد تفكيرٍ مليٍّ ، إنها غريبة : "لندع الآليات الطبيعية تأخذ مجراها " . بالرغم من هذه الهفوة في السطر الأخير - فهل " المادة" آليةٌ طبيعيةٌ ؟ - كان تحليله مُحكَماً، وأفهم لماذا اجتذب القراء . ولكنه لم ينتزع مني بعد قراءته سوى هزة من الكتفين . كان منطق برادان واضحاً . ولكنني حيوانٌ معقّدٌ . وكلما كان المنطق بسيطاً ، أثار ريبتي ، فهناك شيءٌ في دراستي يجعلني أرى البرغوثَ على ظهر الفيل قبل أن أرى الفيلَ نفسه ، هناك شيءٌ ما في تحسُّسي للأمور يبعدني عن الأفكار التي تتوخّى الإجماع .

كنتُ متأثّراً ايضاً ، ومنذ وقتٍ طويلٍ ، بأندريه فالوريس . فعندما نكون معاً ، في صالونه، نعيد بناءَ العالم .كان يحثّني دائماً على الابتعاد عن الأفكار السائدة "كما نضع جانباً قشورَ الفاكهةِ برقّةٍ رفقاً بالفاكهة نفسها ، ولكن دون اعْتبارٍ للقشور" .

ز

في عصورٍ أخرى وفي ظلّ تقاليد أخرى ، كان مشهد الحياة الزوجية التي يتألق فيها الأب بفضل طفله وتتألق فيهـا الأم ـن خـلال المهنـة والشـهرة مشهداً قد يثير السخريةَ والتهكُم . ولكننا كنا نعيش علـى هـذا النحـو ، ونشـعر بالسعادة ، فهل كنتُ أقلّ رجولةً ، أوكانت هي أقلّ أنوثةً ؟

كانت سعادتي مفهومةً أكثر من سعادة كلارنس . منذ شـهر شـباط ، كنـتُ أحمـل بيـاتريس كـل صباحٍ فـي طريقـي إلـى المتحـف ، وأتركهـا عنـد الحاضنة التي وجدتها لها ، وهي جارةٌ أرملةٌ وجـدّةٌ لهـا الكثـير مـن الأحفـاد ، تقطن في دورٍ أرضـيٍّ ، ومـا أن أرتقـي سلم بيتها حتـى تطـوّق ابنتـي عنقـي بذراعيها وكأنها إكليلٌ أسمر أحتفظ طوال النهار بثقله وعطره .

كانت كلارنس تمارس أمومتها بامتهانٍ وبـالقدر الكـافي مـن العطـف والحنان دون استفاضةٍ زائدة . لقد اتفقنا أن الطفلة هي بمثابة هدية حبٍّ قدّمَتْها لي . فقد وعدتني بها ووهبتني إياها بكل جسدها ، وأبكر مما كنت أتمنى . لـم أتذمّر أبداً ولم أحاول استبقاءها طويلاً قرب المهد ، فطريقها كان مرسوماً فـي مكانٍ آخر ، وكانت هي تتقفّى أثره .

منذ أن نُشِرَ تحقيقها ، قلّما تنعّمَ صحافيون ، رجالاً كانوا أم نسـاءً ، بالتقدير والحظوة والأجر الـذي حظيت بـه ، هـي التـي كـانت تحلـم بتحقيقـاتٍ صحفيةٍ كبرى ، أصبحت العروض تنهال عليها بما يفوق قدرتهـا . وصـارت تنتقي ، وغالباً ما ترفض كالنحّات الحريص على صقلِ منحوتته بصبرٍ وتؤدةٍ، وكذلك ، كما كانت تقـول ، " للمحافظـة علـى فرادتهـا " . وكنـت أوافـق علـى غنجها المنطقـي كقرارهـا العمـل "مستقلةً " ، تعقـد اتفاقـاتٍ محـددةً مـع هـذه الصحيفة أو تلك بما فيها ، ودون ضغينةٍ ، الصحيفة التي شهدت بداياتها .

وخلاصة القول ،كنتُ التزامَها الوحيدَ الدائم ، بمنأى عن الأزمات والزلازل – وأي زواجٍ . تحدثنا عن الزواج مرةً واحدةً في بداية لقاءاتنا . قلتُ لها إنني أحنُّ إلى الفترة التي كانت أخطر الاتفاقات فيها تعقد بمصافحةٍ ، وتستمر الحياة بطولها بعد أن تصفرَ كل الأوراق الرسمية . كان الأمر بيننا مصافحةً من نوعٍ خاصٍّ ، أكثر تعقيداً وشغفاً وديمومةً ، ولكنها في ذهني تبقى مصافحةً قبل كلّ شيءٍ . سنبقى معاً طالما دام حُبُّنا وسوف نجعله يدوم بألف حيلةٍ من حيل المراهقين .

وهكذا عشنا ، لا زوجين ولا متساكنين ، ولا خليلين ...ما أبشع هذه الصفات ! عشنا عاشقاً وعاشقةً ، أفعمتنا الحياة فرحاً وسعادةً إلا من تقدّم السن في أجسادنا ، واضطرابات العالم أيضاً .

قد يعتقد الآخرون غير كلارنس أنهم "وصلوا" ، ولكن هذه الكلمة كانت تهينها . " يجب تخصيص هذه الكلمة للمحطات والمطارات . عندما يقال لي إن هذا الشخص قد وصل ، أود السؤال إلى أين ، وبأيّ وسائل ، ولأية غايةٍ!".

هل كان ذلك الكلام تواضعاً منها ؟ أقول بالأحرى إنه مزيجٌ من التواضع والكبرياء يسمى "حياةً" لأنها كانت تردّد أيضاً : " وحدهم الذين يعرفون بأنهم عاجزون عن المضي بعيداً يفاخرون ببلوغ الهدف ".

كان على كلارنس أن تتابع متابعةً دقيقةً القضيةَ التي تألّق فيها اسمها وتفتّقت موهبتها . لقد غدت هذه القضية قضيتَها وكفاحَ حياتها – وكان منحى الأحداث يثير قلقها . فعندما نشرت تحقيقها حول " المادة" ، حافظت بالتأكيد على لهجةٍ حياديةٍ حرصاً على مصداقيتها . ولكن موقفها المسبق كان جليّاً ويدين الجشع واستخفاف بعض المشعوذين . ففي هذا التلاعب الجسيم بالأفراد ، في هذا الأسلوب الذي يقوم على استخراج أسوأ ما في الشعوب لتوجيهها نحو مستقبلٍ أفضل مزعوم ، وبطرقٍ مختصرةٍ تلجأ إلى التمييز

المنهجي ، رأت كلارنس بالطبع تدهوراً مرفوضاً ومجرماً .كانت تتوقع أن إماطةَ اللثام عن الحقائق تكفي ليتملّكَ العالم بأسره غضبٌ مشروعٌ.

لم يحدث شيءٌ من هذا القبيل . لقد توقفتُ مطوّلاً عند مقال براداان لأنني احتفظتُ به ، ولأنه كان واضحاً ؛ وأعترف بأن العديد من الشخصيات من كل حدبٍ وصوبٍ أيّدَت موقفَهُ .

لقد احتَجنَا بعض الوقت ، أنا وكلارنس ، لإدراك الجاذبية الحقيقية والقوية، والإنفعالية أحياناً التي تمارسها على الرأي العام أفكارٌ مثل أفكار براداان . لقد اعتدنا أن نرى دول الجنوب مصدراً لأعظم همومنا ، ولو وُجِدَ حلٌّ بسيطٌ لمشاكلهم ومشاكلنا ، لكان من الجنون ألا نلجأ إليه !

لا يَسَعُنا الحكم على الأمور إلا بعد حين ، وبعد أن نتفهّمَ ذهنية العصر. وبدون السعي للتركيز على الابتهاج الذي ساد السنوات الأخيرة من القرن الماضي ، أودُّ أن أشدّدَ على أن اللقاء بين جناحي العالم المتقدّم ، هذا التطابق والتشابه في القيم والمؤسسات واللغة وأسلوب العيش قد أبرزَ بصورةٍ فظّةٍ الهوّةَ السحيقة التي تفصل بين دول العالم ، هذا " الصدع الأفقي" المسؤول عن هزّاتٍ كثيرة .

فمن جهةٍ ، هناك كل الثروات والحريات والآمال ، ومن جهةٍ أخرى، متاهةٌ من الطرق المسدودة تقوم على الركود والعنف والغضب والأعاصير واستشراء الفوضى والخلاص بالهروب الكثيف نحو الفردوس الشمالي .

كان بالإمكان الشعور بتصاعد التذمر في هذه الجهة أو تلك من "الصدع". وهنا أيضاً ، كان فالوريس هو الذي نبهني إلى هذه الحقيقة . لم أعد أذكر الأحداث المحدّدة التي أثارت الموضوع ولا ما قلتُهُ ، وأعتقد أن الأمر يتعلّق بالتطرّف الديني .

قال لي أندريه : " أنا مثلك ، ينفذ أحياناً صبري وأنفجر وأثور وألعن، ولكنني على الفور أعود إلى رشدي قائلاً : يجب أن نرضى بالعالم كما رضي هو بنا ". لم يكن الغربُ دائماً بالشكل الذي عرفتَهُ ، هذه المساحة من السلام والعدالة ، المكترثة لحقوق الإنسان والنساء والطبيعة . أنا الذي أكبُرُكَ بجيلٍ ، عرفتُ غرباً مختلفاً تماماً . قلْ لنفسك إننا ، طوال قرونٍ عديدة، طفنا في أرجاء المعمورة وشيّدنا الإمبراطوريات، ودمّرنا كل أشكال الحصار ، وذبحنا الهنود في أميركا، وحمّلنا الزنوج على متن السفن للعمل مكانهم ، وقمنا بشنّ الحرب على الصينيين لإرغامهم على شراء الأفيون ، أجل ، لقد عصفنا بالعالم كالإعصار ، وهو إعصارٌ مفيدٌ ولكنّهُ مدّمرٌ على الدوام . وهنا ، في مجتمعاتنا ، ماذا فعلنا ؟ لقد أمعنّا في التناحر والتقاصف وإبادة بعضنا بعضاً بالغاز السام ، وبشراسةٍ حتى منتصف القرن العشرين . وفي يومٍ من الأيام ، إذ أُتخمنا وتعقّلنا وأُنهكنا وشِخْنا، جلسنا على أكثر مقعدٍ وثيرٍ صارخين: " والآن فليهدأ الجميع ! " . وكما ترى ، فالجميع لا يهدأون متى هدأنا ، فهناك ، في كلّ مكانٍ تقريباً ، مناطق شبيهةٌ بالألزاس واللورين ، وخلافات بين أنصار البابوية والبروتستانت ، وكلها نزاعاتٌ عبثيةٌ على غرار النزاعات التي عرفناها ، ولا تقلُّ عنها دمويةً – ولكنّها نوبةُ جنونٍ لا بدّ أن تنقضي ، فلنتحلّ بالصبر مع الجميع !

ولكنّ هٰذا الموقف خاصٌّ بأندريه ... فالصبر سوف ينفذ بسبب البعض والبعض الآخر ، على هذه الجهة أو تلك من " الصدع " ، وأصوات العقلاء سوف تصمت . ووحدهم أشخاصٌ من زمنٍ آخر على شاكلة فالوريس ولبيف ، يمكنهم الاستمرار في مقاومة سحرِ الحلّ الأعجوبة .

كان الرأي العام يتأرجح بالطبع بكل ثقله . فقد بدأ مخترعو " المادة" الذين كانوا في السابق معرّضين للملاحقة وملتزمين الصمت يظهرون كما لو أنهم يحسنون للبشرية جمعاء . ولم يخطئوا في تقديرهم بما أنهم خرجوا من

الظلّ، في يومٍ من الأيام ، كما يذكر الجميع ، كالمقاومين غداة تحرير فرنسا بدءاً من الطبيب فولبو نفسه الذي راح يطالب لنفسه ، في مقابلاتٍ صحفيةٍ استثنائية وثرثارة ، بأبوّةٍ "اختراع العصر " – وهو كان كذلك بطريقةٍ أو بأخرى– وبصفة " المخلّص " الذي طالما عانى من عدم تفهُّم الآخرين شأنه في ذلك شأن المخلّصين أجمعين ، واضطهدته قوى ظلامية ورجعية ، وأُرْغِمَ علىالعيش في المنفى .

لا أزال أراه على شاشة التلفزة ، بنظرته المتمترسة خلف نظاراتٍ سوداء سميكة ، يردُّ السهام . لماذا لم يخترع مادةً تحفّزُ ولادة الإناث ؟ " كنتُ قد باشرتُ الأبحاث عندما توقّف التمويل ! " . هل صحيحٌ أنه قد جنى ثروةً طائلةً من مبيعات المستحضر ؟ " الأموال التي كسبتها لا تُوَظّف إلا لتمويل أبحاثي ، فأنا رجلُ علمٍ قبل كل شيء ". ألا يساوره القلق بسبب السلوك العنصري الناجم عن اختراعه ؟ " كلُّ دواءٍ يكون ناجعاً متى أحسن الناس استعماله ، وإلا أصبح خَطِراً ، والمخترع يفترض أن البشرية راشدة وإلا وجب نزع صفة الإختراع عن العديد من الأشياء ! ولكن العلم لا يقوم على العودة إلى الوراء ، والبشرية لن تستطيع أبداً التخلص من معرفتها وسلطتها . هكذا هي الأشياء ، وما على المتندّمين سوى الرضوخ للأمر الواقع ! " .

ومن علامات الشؤم في هذا العصر أن بعض الأدوية بدأ يظهر شيئاً فشيئاً في صيدليات العديد من دول الشمال ، وكانت هذه الأدوية تحتوي على"المادة" ولا تحمل بطاقةَ معملٍ مغمورٍ بل شركات أدوية معروفة لم تشأ أن تترك سوقاً واعدةً تفلت من يدها . وللتحايل على القانون الذي يعاقب التمييز الجنسي ، تم الترويج لهذه الأدوية على أنها علاجٌ لعقم الرجال . ولذا ، فقد أجازت الإدارة الأميركية للأغذية والأدوية ، وحذت حذوها معظم الهيئات المماثلة ، توزيعها في الولايات المتحدة على أن تباع بناءً على وصفةٍ طبية .

وكما كان متوقّعاً ، انكبّت الأقلام العلمية الرصينة توضّح أن الأدوية التي تباع للمستهلكين في دول الشمال مختلفةٌ كلياً عن " فول الجُعْران" وسائر المستحضرات على شاكلته . ولن أخوض في نقاشٍ فنيّ عويصٍ . فالبيولوجيا البشرية ليست من اختصاصي ، وكذلك علم العقاقير ؛ كما أنّ كلّ التفاصيل التي قد أذكرها في هذا المقام موجودةٌ ومعروضةٌ بوضوحٍ في الكتب المتخصّصة . أما أنا ، فاهتمامي يقتصر على الانقلابات اللاحقة كما عشتها ، وعلى كلّ ما من شأنه أن يساعد على فهم أسبابها . ولئن استفضتُ حول ما قيل في السنوات الأولى من عصر بياتريس، فذلك لأوضّحَ بأن " المادة " أصبحت مقبولةً كواقعٍ مألوفٍ ، يعتبرها البعض هديةً من السماء ، ويرى البعض الآخر أنها اختراعٌ مشؤوم . غير أننا نتعايش ، أوَليس كذلك ، مع حقائق مشؤومةٍ أخرى . لقد أُغْلِقَ باب السجال إلا من حفنةٍ من العنيدين وحتى كلارنس ، كانت سوف تثير ملل قرائها وتفقد من مصداقيتها لو أصرّت على العودة إلى موضوع " متقادمٍ" .

وهذا ما قالتْهُ لي في كل الأحوال ذات يوم تملكّها فيه العياء الشديد :

"الرأي العام أشبه بشخصٍ ضخم الجثة مستسلم للرقاد . بين الحين والآخر ، يصحو من سباته بغتةً ، وعليك أن تستغلّ الفرصة لإقناعه بفكرةٍ واحدةٍ في غاية البساطة والإيجاز ، لأنه سرعان ما يتمطّى ويتثاءب ويتقلّب ويتهيأ للنوم من جديد ، ولن تستطيع منعه أو إيقاظه .

ثم تنتظر بخبثٍ أن يهتزّ سريره ".

س

لا يسعنا القول إن سرير البشر قد اهتزّ وكفى . فقد حدثت بعض الهزّات الخجولة والبعيدة في بادىء الأمر و التي تكاد تستعصي على الكشف . وقد شهدتُ إحداها بسبب خطأٍ ارتكَبَتْهُ كلارنس وغَفَرتُه لها .

كان يحدث أن تَعِدَ صديقتي نفسها لدى عودتها من بقعةٍ نائيةٍ تحمل إسماً موسيقياً بزيارتها في الإجازة المقبلة وبرفقتي ، طليقةَ الذهن من أيّ تحقيقٍ صحفيٍّ ، من أجل تذوّق ملذاتها الهادئة التي قد بلّلتْ بها شفتيها لتوّها . وكان حماسها لهذه البقعة يخبو عادةً أمام حماسٍ آخر ، ويطغى حلمٌ على حلمٍ آخر ، وتبقى رواسب زاهيةٌ ومتراصةٌ ومتلاحقةٌ : تشيتاغونغ ، باتامبانغ ، ماندالاي ، دجيني ، غونايبفس ، فراديس كل الشياطين .

ولكن ذاكرتها ، هذه المرة ، كانت أقلّ تشتتاً ، فانطبعت في ثاياها مدينة نايبوتو التي قصدتها لحضور مؤتمر"عالمي" ، من تلك المؤتمرات التي كان يحلو تنظيمها ويشارك فيها مئتا وفدٍ ،كلٌّ يأتي برايتِهِ وفولكلوره وخصوصيته ورجائه بأن يسمعه الآخرون فضلاً عن آلاف الديبلوماسيين والخبراء والصحفيين ... كل هذه التوطئة للقول إن كلارنس التي وصلت متأخرةً ، تكبّدت العناء والمشقة لتجد مسكناً قرب المؤتمرين واضطرت للإقامة منفيّةً بعيداً عن قصر المؤتمرات ووسط المدينة في نزلٍ كولونيالي البناء يدعى أوهورو مانشن ، دارة بيضاء ومنخفضة تمتدّ أجنحتها على هيئة سبحةٍ من الأكواخ الأنيقة التي يعتلي كلٌّ منها عتبةً ويشرف على فسحةٍ خضراء اسفنجيةٍ مبرقشةٍ بزهيراتٍ حمراء نافرة .

كانت صديقتي تشهد كل صباحٍ ، عبر كوّة الحمام ، انهماك الندلاء الذين يحملون إلى طاولةٍ لا متناهيةٍ موضوعةٍ في الهواء الطلق أطباقَ البابايا المقطّعة والمانجو المكتنز والبيض المقلي وحبوب القمح من صنف كويكر

أوتز ، ثم كوكبةً من أباريق القهوة الساخنة . وعند الساعة الثامنة والنصف، كان ناقوسٌ خافتٌ يعلمُ النزلاء بأنهم يستطيعون الاقتراب ، فتنفتح كلُّ أبواب الأكواخ معاً ويخرج الناس حفاةً يحثُّون خُطىً نهمةً . ولكن سيارة الأجرة كانت تنتظر كلارنس وتومىء لها ، وهي لن تصل أبداً في الوقت المحدد لبدء الجلسة بسبب زحمة السير ا لذا فبالكاد تجرؤ على اختلاس قطعة خبزٍ محمّصةٍ وموزةً لم تنضج بعد ، وهي تهرول مسرعةً خارجاً...

" لقد حطّت طائرتي في جنّة عدن ولكن من أجل هبوطٍ فنيٍّ عاديٍّ ".

لقد بلغت حسرتها منها مبلغاً فقررت الحجز للأسبوع الأخير من السنة ، حتى قبل مغادرتها البلاد ، وأصرّت أن تدفع مبلغاً على الحساب ، من أجل أن يكلفها غالياً أيُّ عدولٍ عن السفر .

رحبّتُ بالفكرة ، وشعرتُ بغصّةٍ في الحلق لمفارقة بياتريس في فترة الأعياد . ولو تُرِكَ لي الخيار ، لاصطحبتها معنا بكلّ طيبة خاطر ، علماً أنني أفقد موضوعيتي ما أن يتعلّق الأمر بها . أما كلارنس ، فكانت لتضحك ببساطةٍ ، ففي لغتها ، كان هناك " أنتما الإثنان" ، أي أنا وابنتي ، و"نحن الإثنان" ، أي أنا وهي ، الرجل والمرأة ، وإقحام بياتريس بيننا مرفوضٌ أصلاً.

كانت أفريقيا السوداء في حياتي مجرّد صورةٍ من تلك الصور التي نخال أنها عابرةٌ ومنسيةٌ ، ولكنها تطفو على السطح في الأوقات الكالحة وتنشر الأمل والضجيج .

ماذا رأيتُ منها ؟ النزر اليسير ، تلك البائعات الممتلئات حيويةً في أسفل ناطحات سحابٍ كئيبة ، تلك الحشود من الأطفال الذين تعجُّ بهم الشوارع والجدران والأعمدة والمساحات الجرداء ، وعيون النساء اللواتي يبتسمن ويغمزن ويبتعِدْنَ بتلك الخطى المتباطئة التي لا تكترث للزمن .

أليست ثقافتنا متناقضةً عندما تصبح مستعبدةً للزمان في الوقت الذي تسيطر فيه على المكان ؟ في أفريقيا ، يتضاءل الشعور بالسيطرة والاستعباد ؛ هذا في حال استطاع المرء الإنعتاق خارج نفسه . وقد حاولتُ القيام بذلك . وأعرف أن نزل أوهورو مانشن ، لا يمثّلُ أفريقيا الأصيلة ولا حتى نايبوتو الحقيقية ، بل كنا فيه مجرّد حفنةٍ من البيض والسود يتقاسمون ثمارَ أرضٍ معطاء ، ولكنها كانت المتنفّس الذي تحتاج إليه روحي الحضرية .

كانت الهفوة التي أخفتها عني كلارنس بسبب طبعها الصحافي هي أنها لم تقصد هذا المكان من أجل السكينة والعشب والبابايا الحامضة فحسب ، فقد اعترفت لي بأن عليها " التحقُّقَ من بعض الأمور " في اليوم الثالث بعد وصولنا؛ وبينما كنا على الطريق في سيارةٍ مستأجرةٍ أقودها على الطريقة الإنكليزية ، جالساً على المقعد الأيمن ، فيما هي تحمل الخرائط والدليل السياحي . ألم نكن نرغب بالذهاب إلى خط الإستواء ، ولو لنطأ بأقدامنا الحدود التي تدلُّ عليه ؟ كان المكان يبعد ساعتين عن نايبوتو ، وفي طريقنا، يمكننا أن نسلكَ طريقاً مختصرةً ونعرّجَ على نهر ناتافال . إنّ الذين قرأوا تاريخ السنوات الأولى من القرن الجديد سيفهمون كلامي : يقال إنّ ضفاف الناتافال شهدت أعمال العنف الأولى التي لها علاقة بالقضية التي نحن بصددها. فقد اتهم بعض القرويين السلطات بتوزيع " فول هندي " – وهو الإسم الذي يعرف به في أفريقيا الشرقية – في مناطق بعض المجموعات الإثنية بغية تقليص قدرتها على التناسل وإبادتها في نهاية المطاف . وقد نهبَ الأهالي مستوصفاً ، وأسفرت الاشتباكات عن سقوط ثلاثين جريحاً ، من بينهم أربعة سوّاحٍ أجانب كانوا مارّين في المكان صدفةً ، وقد كانت لمحنتهم الفضل في أنّ العالم سمع بهذه الأحداث التي بقيت هامشيةً رغم كلّ شيء .

كانت كلارنس تريد أن ترى بأمّ عينها المستوصفَ المنكوبَ والتحدُّث مع الأهالي. وخلال دقيقتين ، تحلّق حول سيارتنا حشدٌ ثائرٌ من

الناس الذين لم يضمروا لنا شراً بل اكتفوا بسيلٍ من الاحتجاجات ، بعضها بالإنكليزية ، والبعض الآخر باللغة السواحيلية . وطلب منا جنديان الرحيل خشية أن يتسبب وجودنا باضطرابات جديدة . ولم أتردد في الامتثال لطلبهما فهذا اللقاء لم يكن يتلاءم مع فكرتي عن الإجازة . غير أنني فضّلتُ عدم توبيخ صديقتي ، فهي تنتمي إلى هؤلاء الأشخاص الذين يشعرون بالذنب وعدم الجدوى ما أن يتوقفوا عن العمل . ولقد أرضى هذا الاستقبال الحاشد ضميرها لبقية الرحلة .

وقد زوّدها هذا الاستقبال كذلك بشهاداتٍ سوف تستفيد منها لاحقاً . فبعد فترةٍ وجيزة ، اندلعت انتفاضاتٌ أخرى في سري لانكا وبوروندي وجنوب أفريقيا بسبب ادعاءاتٍ من هذا القبيل . وعلى حدّ علمي ، لم يثبت أبداً أن وسائل الإنجاب الإنتقائي قد استعملت عمداً منذ تلك الفترة كأداةٍ لاضطهاد المجموعات العرقية والإثنية أو الدينية . غير أن الفكرة كانت تتردد باستمرار فتعمّمت الشكوك .

من المعروف أن هناك توازناتٍ دقيقة يجب المحافظة عليها في كل بلد . ولذا، فأنا لا أعجب إذا عمد هذا الزعيم أو ذاك إلى تسريب "حبات الفول " لدى المجموعات الإثنية المناوئة له تاريخياً مع المحافظة على الزيادة السكانية لشعبه وأنصاره . وقد يؤكد العلماء في أحد الأيام هذه الحقائق التي لن يهتم بها سوى بعض المؤرّخين . والواقع أن هذه الحقائق أقل أهميةً من المواقف التي نجمت عنها . وفي هذا السياق ، سوف نشهد سنةً بعد سنة ، تصاعد الاتهامات والاحتجاجات والأحقاد ، لا سيما في الأرياف فسكان المدن يعرفون بعضهم البعض بنسبةٍ أقل ولا يحصون أعدادهم بقدر ما يفعل سكان الأرياف . فإذا لاحظ الأهالي في إحدى القرى انخفاضاً ملحوظاً في عدد الإناث ، دبّ القلق بين المسنّين ، رجالاً ونساءً . فالمسنّون هم القيّمون الأخيرون على غريزة البقاء . وإذ يشعرون بالخطر الذي يحدقُ بشعبهم ،

يبادرون إلى التنديد باللعنة التي حلّت عليهم ويثورون وينتفضون ويبحثون عن المسؤولين : هل تناول الرجال "مواد منشّطة " ؟ هل الزوجات متواطئات؟ أهو مستوصفُ المجموعةِ الإثنيةِ المناوئة ؟ أم هي السلطات ؟ ولماذا لا يكون المسؤول عن هذه الظاهرة المستعمرُ القديم ، أليس هو مصدر الإختراع الشيطاني ؟

لا أزعم أننا أدركنا ، أنا وصديقتي، لدى زيارتنا ضفاف نهر ناتافال، الهاوية التي كانت تسوقنا إلى شفيرها الريبة العالمية ، هذه الغابة من الأحقاد التي يشعر فيها الجميع بأنهم طرائد ، والكل من حولهم جوارح كاسرة . لم يكن النهب الذي تعرّضَ له مستوصفٌ ريفيٌّ حدثاً فريداً ومعياراً موثوقاً . لا شك أن العالم أجمع شهد في جميع المناطق آلاف الأحداث المماثلة التي لم يكن عدد الضحايا أو شهرتهم مبرّراً كافياً للحديث عنهم . ووحدها الحكومات المعنيّة أعربت عن قلقها بين الحين والآخر .

وقد أدرك قلةٌ من المسؤولين خطورةَ الوضع ونددّوا بالمادة وبمخترعيها ومصنّعيها ، وبادروا إلى تحذير السكان من هذا الوباء . غير أن تحذيراتهم لم تلقَ أذناً صاغيةً ، فقد اكتفى معظم الزعماء بحظر نشر الإحصاءات حول الولادات والمصنّفة حسب الجنس والعرق والمنطقة أو الدين؛ وحتى الأرقام الإجمالية لعدد السكان أصبحت سريةً ، وتلك التي كانت معلنةً ، خضعت للتصحيح والتعديل عموماً . ووقع الديموغرافيون في حيرةٍ وأيما حيرةٍ ، وتحدثوا عن " شحٍّ خياليٍّ " في استقاء البيانات ، وعن تقهقرِ مئة عام إلى الوراء ، ولكنَّ الأمور اندرجت في العادات والتقاليد ، وأصبح من المألوف رؤية الجداول ممتلئةً بعبارات " غير معلَن" ، أو " لا أرقام متوافرة"، أو "تخمين" ، وغيرها من الاعتراف بالجهل المطبق .

والحقُّ يقال إنَّ هذه الطريقة أثبتت فعاليتها ، فقد تراجع الحديث عن هذه الانتفاضات في الأرياف . ونحن نعرف اليوم أنها كانت كثيرةً ودمويةً

وغير محدودة دائماً . غير أنها لم تُثِرْ في تلك السنوات اللغط الذي أثارته السجالات التي بدأت تعصفُ بدول الشمال .

ش

وصلتني رسالةٌ مكتوبةٌ بخطٍّ غير مألوفٍ غداة عودتي من أفريقيا تعلمني بوفاة أندريه فالوريس . كانت باريس غارقةً تحت الثلوج عندما خرج عرّابي للتنزه في الشارع حيث صرَعَتْهُ ذبحةٌ قلبيةٌ .

جرت مراسمُ الدفن في جوٍّ من التكتّم والتحفُّظ . وأصرَّت كلارنس على مرافقتي ، وحضر أيضاً عمانوئيل وإيرين ليبف وثلاثةٌ من زملاء فالوريس، وكذلك امرأةٌ شابةٌ لا يبدو أن أحداً منا يعرفها ، ولكنها تقوم بوضوحٍ مقام الأرملة دون تفجُّعٍ أو وشاحٍ حزينٍ . كان أسلوبها في لعن الموت هو أن تكون جميلةً ، الأجمل والأكثر أناقةً لتبرهنَ أن أندريه عرف، حتى النهاية ، أن يحبَّ الحياة التي بادلته الحبَّ بدورها .

نظراً لسنها التي تناهز الأربعين دون شكٍّ ، ربما كانت طفلةً عندما أوصاني عرّابي بما يلي: " الالتزام بأرقى أنواع المجون ، وعدم مطارحة الغرامِ خارج إطار الحب ، ودون الاكتراث للزواج ". ولا ريب أن " الأرملة" دخلت حياته بعد سلسلةٍ من العلاقات الغرامية ، غير أنها حظيت بالامتياز المؤلم أن تكون آخر رفيقةٍ له . هل كانت تعيش معه ؟ وتتوارى في غرفةٍ بعيدةٍ عندما أزوره أيام الآحاد ؟ أو تسرع بمغادرة الشقة قبل موعدنا ؟

وفي مطلق الأحوال ، كانت أول من صافحتُ بعد المأتم واصطفَّ الباقون ورائي للقيام بالمثل . وقد قبلت هي بهذا الطقس غير المتوقَّع بابتسامةٍ شبه لاهيةٍ ، وربما فكَّرت بابتسامة أندريه لو رأى المشهد .

كان أشدّنا حزناً عمانوئيل ليبف الذي راحت زوجته ترمقه بقلقٍ . فوفاة "الصغير " أشعرته أكثر باختلاجات قلبه وصرير عظامه .

رافقتُهُ بضع خطواتٍ باتجاه السيارات .

– يا لهذا الغلام الكريه فالوريس ، كيف يمشي في الثلج ، هو الذي لا يتحّمل الصقيع !

كان غاضباً منه ، وأجَبْتُهُ بكلماتٍ سخيفة حول القدر والزمن وحتمية المصير .

وما أن ودّعتُ عمانوئيل وإيرين لبيف حتى لحقت بي "الأرملة" :

– وجدتُ هذا الظرف الموجّه لك على مكتب أندريه .

تركت القيادة لكلارنس لأقرأ الرسالة في طريق العودة . لم تكن وصيّةً ، ووحدها وفاة صديقي أضفت عليها طابعاً رسمياً . كان الظرف يحمل إسمي وعنواني وطابعاً ملصقاً ، ونصُّ الرسالة يقول ببساطةٍ :

" لديّ فكرة أودُّ مناقشتها معك في لقائنا القادم ، وأنا أعرضها عليك منذ اللحظة ليتسنى لك التفكير بها والسعي لتطويرها ، وربما قمنا بتجسيدها في القريب العاجل. ها هي : يبدو لي أن الوقت ملائمٌ لتشكيل مجموعةٍ سوف أدعوها مؤقتاً " شبكة العقلاء " تشمل عدداً كبيراً من الدول ، وتقوم بتحذير الرأي العام والسلطات على أنواعها من المخاطر الناجمة عن التلاعب المتهوّر بالجنس البشري . أنا أشعر بالغضب بسبب ابتذال هذه الظاهرة ولامبالاة أبناء بلدي ، وهي لامبالاة غير مفهومة لا سيما أن الخطر لا يهدّد دول الجنوب فقط. إنه لمن الوهم والإجرام الدعوة إلى حلٍّ سحريٍّ ونهائيٍّ والسماح باعتماد هذا الحلّ عن طريق إبادةٍ جماعيةٍ متصاعدةٍ وشائنة . أقترح أن يرأس لبيف هذه "الشبكة" ، وأن تهتمّ أنت وصديقتك بأمانة السر والإدارة الفعلية .

لديّ أفكارٌ أخرى بهذا الشأن، ، وسنعاود الحديث عنها عندما تأتي لزيارتي".

أعادت هذه الجملة إلى ذاكرتي زهاء خمسة وسبعين يومَ أحدٍ من "أحاديثنا". لقد قدم لي أندريه مخزوناً من المعرفة والحضور لا يعوّض ، وكان عليّ أن أكرّمَ ذكراه وألتقف بحماسٍ الفكرة التي تهاوت من بين يديه .وفي ذلك

المساء ، اتصلتُ بلييف دون أن يساورني الشكُّ لحظةً واحدةً بموافقته ، فقد كان يشاطر أندريه الهموم نفسها ويحرص مثلي على تكريمه بهذه الطريقة.

– ألا تعتقدُ أن تسمية " شبكة العقلاء" متكلّفةٌ بعض الشيء بل ومضحكة ؟

أجاب منفعلاً :

– لا ، أبداً ، فالحكمة فضيلةٌ اندثرت في هذا الزمن . والعالِمُ الذي لا يكون حكيماً يصبح خطيراً أو ، في أفضل الأحوال ، عديم الفائدة . ثم ، إن كلمة "شبكة" توحي بالغموض والالتباس والمكر وسوف تثير فضول الناس . لا ، أندريه كان على صواب ، و"شبكة العقلاء" إسمٌ مناسب . أنا موافق على هذا المشروع !

وإذ استجابت كلارنس بالحماس نفسه ، قرّرنا أن ننشرَ في أربع صحفٍ عالمية النداءَ التالي : " نحن نساء ورجال علم وإعلام وثقافة وسياسة ، إذ نحرص على إنقاذ الأرض جمعاء من المغامرات الإنتحارية التي قد تؤجّج سعيرَ الأحقاد مرةً أخرى ، وتفسد طبيعة التطور والتقدم ، ندعو إلى إنشاء "شبكة من العقلاء" تعملُ على ما يلي :

– وضعُ حدٍّ لكلِّ تلاعبٍ بالجنس البشري لا سيما عن طريق اختراعاتٍ شريرةٍ تؤدي إلى التمييز بين البشر لجهة الجنس والعرق والقومية والدين أو أيِّ معيارٍ آخر ؛

– السعي بكل الوسائل للتقريب الحثيث بين شمال الأرض وجنوبها ؛

– الاستمرارُ في تحذير الرأي العام والسلطات من مغبّة تصاعد الأحقاد والعصبيّات ".

وأعقبت نصَّ النداء قائمةً بأسماء " العرّابين" الذين اقترحهما لييف وكلارنس بالإضافة إلى عنواني ، شارع جوفروا سانت هيلير ، لإرسال التواقيع والمساهمات المالية لتغطية كلفة نشر النداء .

وقد ذُكِرَ " العرّابون" الثلاثون الواحد تلو الآخر حسب الترتيب الأبجدي ، باستثناء أندريه فالوريس الذي احتلّ موقع الصدارة بالرغم من أنّ اسمه يبدأ بحرف الفاء ، وأُلحقت باسمه عبارة " تخليداً لذكراه" .

وإذ كنتُ أتأمّلُ بعد بضعة أيام النصّ المنشورَ والمحاطَ بعنايةٍ بخطٍ مظلّلٍ يساعد على إبرازه ، شعرتُ بالفخر لتقديم هذه الهدية إلى صديقي بعد رحيله بقدر ما كنت محرجاً لرؤية اسمي وعنواني مذكورين في ملايين النسخات . فيا للخيبة لو حصلتُ على حفنةٍ من رسائل الدعم فحسب ؟ ويا للعذاب لو تلقيتُ عشرةَ آلافٍ منها ؟ فمتى يتسنى لي قراءتها ؟ وكيف أردُّ على كلّ واحدةٍ منها ؟

لا أريد أن يعتقد القارىء بأنني غرقتُ في هذه التفاصيل الثانوية وأهملتُ الأهمّ ، أي مضمون النداء والمعركة التي يخوضها فالوريس ولبيف وكلارنس، تلك المعركة التي أصبحت الآن في الخطوط الأمامية على الجبهة. ولكنني اعتليتُ خشبة المسرح بتخوّفٍ شديدٍ لن يفارقني قط ، وحرصتُ على الإشارة إليه منذ الساعة كي لا يسيءَ أحدهم فهمَ تصرّفاتي اللاحقة.

في الأسابيع التي تلت نشر النداء ، كان لبيف يهاتفني كل صباح ، ويبدأ بالإعراب عن " أسفه" لمقاطعتي في حمّامي أو فطوري ، ثم يسألني بالتفصيل عن بريد اليوم، فأحصي له عددَ الرسائل التي وصلتْ ، بمعدّل عشرين رسالةً في اليوم ، وهو رقمٌ أعتبرهُ مثالياً ، إذ إنه يكشفُ عن اهتمامٍ مطّردٍ دون أن يثقل كاهلي .

وكان عمانوئيل الذي أتوجّه إليه ممازحاً " سيدي الرئيس " يتحمّس على الهاتف، بينما أفضُّ الرسائل الواحدة تلو الأخرى . هذه من زميلي فافر – بونتي الذي يبدو أنه قد تصالَحَ معي ، وتلك من أكاديميٍّ ووزيرٍ سابقٍ وحاخامٍ وبيولوجيٍّ ، أما الرسالةُ التي لم أتوقعها فكانت تحملُ توقيعَ محامٍ من شيكاغو

كان يعرف فالوريس بل وتعاونَ مع مكتبه طوال ثـلاث سنواتٍ . كـان يدعـى دون غرشوين من مكتب غرشوين للمحاماة .

كان القسمُ الأوّل من رسالته مخصَّصاً لصديقنا المشترك الذي عـرف لتوّه بوفاته، وتذكّر بشكلٍ خاص الجملةَ التـي عاجلـه بهـا أندريـه حيـن استقبله للمرة الأولى في مكتبه : " أنا أثقُ دائماً بأنغلوساكسونيٍّ يعشقُ باريس حتى لـو كان محامياً".

غير أن القسمَ الثاني مـن الرسـالة هـو الـذي كـان مهمـاً . وإذ أثنـى غرشوين بدون تحفُّظٍ علـى مبـادرة شبكة العقـلاء ، رجـاني أن أزوّدَهُ بأسـرع وقـتٍ ممكـنٍ بكـلّ الوثـائق المتوافـرة لـديّ حـول "المـادة" وآثارهـا الطبيـة والاجتماعية وغيرها ـ، و"ذلك من أجل محاكمةٍ قد تكون نموذجيةً ".

قال لي أندريه أكثر من مرةٍ إن السجالات في فرنسا تدور باستمرارٍ وإلى ما لا نهايةٍ في نطاق المفاهيم الأخلاقية أو السياسية ، أمـا فـي الولايـات المتحدة ، فهي تبدأ وتنتهي أمام قاضٍ ، وأخبرني أنه يشعرُ بشيءٍ مـن الحنيـن إلى ذلك كونه رجل قانون .

وبهذه المناسبة ، أعتقدُ أن شـبكة العقـلاء كـانت بقيت طويـلاً مجـرَّد صنـدوقٍ بريـديٍّ مخلـصٍ لـولا " المحاكمـة النموذجيـة " فـي شـيكاغو والتـي أعقبتها قضية "فيتّسيّا" الشهيرة .

ص

لا يعني إسمُ دون غرشوين شيئاً اليوم للعديد من الأشخاص ، فوحده إسم إيمي راندوم انطبعَ في الأذهان . كانت إيمي امرأةً شابةً ومتزوجةً من مزارعٍ في ولاية إيلينوي الأميركية ، أرادت أن يكون طفلها البكر ذكراً إرضاءً لزوجها ، وبغباء وبراءةٍ ، تحدوها الرغبةُ الساذجةُ بأن يقبّلها زوجها هاري ويحمل إبنَهُ فخوراً بين ذراعيه . ولذا فقد اشترت من الصيدلية بعضَ "البرشانات" ، ثم قامت بنثر المسحوق الذي تحتويه على زَبَدِ الجعة التي تقدّمها لزوجها . وبفضل تلك الحيلة ، نَعِمَ الزوجان بحياةٍ جنسيةٍ نشيطةٍ ، وأبصر هاري الصغير النور في الشتاء التالي ، ثم التوأمين تيد وفريد بعد سنةٍ . وكان والدهما في غاية السعادة ، ولكنّهُ رغبَ بإنجاب بنتٍ .

وإذ كانت إيمي تحرصُ دائماً على إرضاء زوجها ، فقد قصدت صاحب الصيدلية وطلبت منه العلاج الملائم . ولكنّهُ عبَّرَ لها عن عميقِ أسفِهِ لأنّ العلاج " العكسيّ " غير موجود ، أو ليس موجوداً بعد . وسألته إيمي إذا كان عليها أن تفوّض أمرها للصدفة ، فأجابها الصيدلاني أن الزوجين ، وبسبب الفحولة التي اكتسبها هاري للأسف – وهذه هي الكلمات التي قالها – يجب أن ينتظرا سنواتٍ عديدة قبل إنجاب الطفلة التي يحلمان بها .

وكان العلماءُ يعرفون بالطبع أن مفعولَ " المادّة" لا رجوع عنه تقريباً، لا سيّما عندما تؤخذُ بجرعاتٍ كبيرةٍ ، ولكن لا أحد تجشّم عناء تحذيرِ إيمي والملايين من المستهلكين غيرها .

وإذ تملّكَ المرأةَ الغضبُ واليأسُ والشعورُ بالذنب ، تغلبت على خوفها ، واعترفت لهاري بكلّ ما حدث . فراح لبضعةأيامٍ يشتمها وينعتها بالساحرة ويهدّد بضربها ضرباً مبرّحاً وطردِها من مزرعته . غير أن الرجلَ لم يكن عنيفاً بطبعه ، وإيمي عرفت استرضاءَه إذ كانت امرأةً صهباء مكتنزةً

بعض الشيء ، وأنفها منمّشٌ وفي عينيهـا دهشـةٌ دائمـةٌ . وقـرّرا الذهـاب معـاً عند محاميهما الذي كان خبيراً في الخلافات بين المصارف والمزارعين أكثر من معرفته بالمسائل الطبية ، فنصحهما باستشارة مكتب غرشوين للمحاماة في شيكاغو .

وكـان الزوجـان يتوعّدان الصيدلانـي بحبـلِ المشـنقة ، ولكـنّ دون غرشوين أقنعهما بمقاضاة الشركة نفسها التي تصنّع المادة .

سوف تصبح قضيـة إيمي رانـدوم ، بهذا القدر أو ذاك ، محاكمـة " المادة" ومنعطفاً حاسماً في موقف الرأي العام والسلطات .

وقد عرف دون غرشوين كيف يتجنّب الإنزلاق في الخـلاف القديم والعنيف في غـالب الأحيـان بين المدافعين عن الحيـاة ومؤيـدي الإجهـاض ؛ ونجح ببراعةٍ في اجتذاب أعداء الإجهاض إلى جانبه ، والغلاة في الدفـاع عن حقوق المرأة على حدٍّ سواء . فقد أثبتَ لهؤلاء أن الـدواء الـذي بيـعَ لمُوكّلتـه كان أداةً شائنةً للتمييز بين الرجل والمرأة ، بما أنه يمنح الذكـورَ وحدهـم حـقّ الولادة .وقد حصل أيضاً على تأييد الكنيسة والأوسـاط العلميـة والطبيـة التـي كـانت تنظـر إلـى أسـاليب الطبيـب فولبو ومنافسـيه الأمـيركيين نظـرةَ ريبـةٍ واحتقار .

وعلاوةً على ذلك ، عرف المحامي استمالةَ الرأي العام، إذ برهن أن الشركات المصنّعة قد استغلّت ثقةَ المستهلكين ، وأخفـت عنهـم طبيعـة العـلاج التي لا رجوع عنها . وأعتقد أنّ مصطلحاً غريباً استعمل للمرة الأولـى خـلال المحاكمة والسجال الواسع الذي أثير في سياقها ، وهـو " التعقيـم النسائي " ، وبصورةٍ أكثر اقتضاباً وإنمّا أكثر تهوُّراً ، " تعقيم " وحـده لوصـف مفـاعيل المادة .

وخلال سنتين تقريباً ، شغلت قضية إيمي راندوم الولايات المتحـدة ، وانتهت بتغريـم الصنـاعي وَحمّلِهِ علـى دفـع مليونـي دولار إلـى الزوجيـن

المتضرّرين ، ولـم يكـن بـالمبلغ الكبـير نظـراً للتعويضـات التـي حصـل عليهـا الآخرون في خلافاتٍ "طبية" ؛ ولكن عندما نعـرف أن آلاف الدعـاوى المماثلـة سوف تقامُ في السنة نفسها ، وللسبب عينه ، ومع الاحتمالات ذاتها بالحصول على بدل تعويضٍ عن ضررٍ ، يمكننا إدراك فداحة الخسارة بالنسبة لشركات الأدويـة ، فـأفلسَ كـلُّ الذيـن تعـاطوا هـذه التجـارة ، ودخـل البعـضُ السـجن ، وفضّل البعض الآخر اختيار طريق المنفى .

سوف تكون قضيـة إيمـي رانـدوم مؤشّـراً منقذاً لكلّ دول الشمال ، بغضّ النظر عن جوانبها القانونية والماليـة . فحتـى عـام بيـاتريس الخـامس ، – هل يلومني أحدٌ على تأريخ الأحداث حسب ولادة ابنتي ؛ فلديَّ أسبابي التـي لن يفـوت القـراء المتسـامحون اكتشـافها، ومـن ثـمَّ ، فبيـاتريس ولـدت بطبيعـة الأحوال في بداية القرن تقريباً ، وما علـى المؤرّخيـن المتشـدّدين سـوى القيـام بتعديلٍ طفيفٍ – كنـت أقـول إذن إن دولَ الشـمال ، حتـى العـام الخـامس بعـد ولادة بياتريس ، كانت تنظر إلى تفشّي البلاء من موقع المشاهد، فسكّانُها كانوا تـارةً متفرّجيـن أو متسـامحين ، وطـوراً مرتـابين ، وفـي أغلـب الأحيـان، لا مبالين . هكذا كانت مواقفهم إجمالاً، مـا أن يتعلّـق الأمـر بمـا يجـري "هنـاك". وكانت المادة " شيئاً قادماً من هناك" بنظر الجميع ، أو بصـورةٍ أوضـح ، كمـا كان يقول الكثيرون في تلك الفترة ، مشكلةَ شعوبٍ متخلّفة .

لقد قام الشمال ، أوَلَيْسَ كذلك ، بتسويةِ مشاكله السكّانية ، فبَلَـغَ حـداً من الزيادة لا فائض فيه ولا تضخُّم . ولقد أظهرت الاستطلاعات ، تأكيداً على ذلك، أنَّ المتزوّجين لا يفاضلون أبداً بين الذكور والإناث ، فلا خـوف مـن أي تغيير أو انحرافٍ للوضع . كان بوسع الجميع مناقشة الأمر قدر ما يشـاؤون ، ومناقشة أمورٍ كثيرةٍ أخرى ؛ فكل شيءٍ يبقى على مستوى الأفكار ، ولا يطال الجسد . وأنا لا أتهكّم أو بالكـاد أفعـل ، بـل أحـاول أن أعبّرَ عـن الآراء التـي

كانت سائدةً آنذاك ، ليس في محيطي المباشر فعليًّا ، فلا لبيف ولا كلارنس كانا يفكّران مثلي ، ولكنّها أفكارٌ تعبرّ عن المناخ السائد .

والحقُّ أنّ العالم الصناعي لم يعرف " المادة " لفترةٍ طويلةٍ أو بالكاد عَرَفَها. وعندما سمع بها البعض ، اعتبروها وصفةَ مشعوذٍ . ثم جاء تقرير الأمم المتحدة والسجال الذي أعقبه في العام الذي أبصرت بياتريس فيه النور ليضفيَ ، وعلى نحو متناقضٍ، أولى بوادر المصداقية العلمية على أبحاث الطبيب فولبو . وهكذا تبيّنَ أن طريقته هي ثمرةُ تجاربَ مخبريةٍ طويلةٍ ! وهكذا ، ثبتت نجاعتُها !

عندما صارت الأدوية التي تحتوي على " المادة" تباع بصورةٍ قانونيةٍ في صيدليات باريس وبرلين أو شيكاغو ، لم يصطف الناس في طابورٍ طويلٍ لشرائها . غير أن الكميّات الأولى بيعت بهدوءٍ ، وتموّنت الصيدليات من جديد، ثم سوّقت الكميات الجديدة . فمن كان يشتريها ؟ أشارت التحقيقات السريعة في أوروبا إلى أن المشترين كانوا بمعظمهم من الأتراك والأفارقة والمغاربة ، ومن الأميركيين اللاتينيين في الولايات المتحدة . واطمأنّ الرأي العام إلى أن هؤلاء لا يمثّلون الشمال فعلاً، بل الأشخاص الذين اتخذوا منه موطناً حاملين في حقائبهم " العقليات الاستوائية" . ولفترةٍ طويلةٍ ، رفضَ الرأي العام الاعتراف بأن رجالاً ونساءً من السكان الأصليين انضمّوا ، يوماً بعد يوم ، إلى الحشود السمراء . وبالطبع ، كان هؤلاء مجرّد "هامشيين" ، "ضالّين" ، "منبوذين ومستبعدين عن كل تصنيفٍ اجتماعي " ، أو استناداً إلى دراسةٍ رصينةٍ نشرت في ذلك الحين ، "آخر المؤمنين بالعقليات القديمة " . وعندما أثيرت قضية إيمي راندوم للمرة الأولى ، لم تتورّع صحافةٌ معيّنةٌ عن نعتها "بالفلاحة الجاهلة " و"ربّة البيت المسلوبة الإرادة التي قد تجعلها الدعاية تبتلع مكنستها ".

قلتُ " صحافة معيَّنــة " ، ولـو كـانت كلارنـس هـي التـي تكتب هذه السطور ، لوجَّهت إلى زملائها نقداً لاذعاً . فقد كان يخالجها ، في تلك الفترة، الشعور بأن كل الأجهزة الإعلامية لا تقوم سوى بنقل الرسالة المخادعة نفسها بشتى الأساليب ، ومفادها أن لا خوف على الشمال ، وأن آثار " المادة" هي "واهيــة" ، "قليلـة الشــأن" ، "محـدودة جـداً" ، "ضئيلـة" ، " ثانويـة" ، "قابلـة للسيطرة".. وقد تسلَّت صديقتي لفترةٍ بإحصاء كل هذه الصفات التي تقول عملياً الشيء نفسه ؛ وقد صنَّفت منها أربعاً وعشرين صفةً أو سبعاً وعشرين على ما أذكر ، ولكنها أقلعت ذات يومٍ عن الاستمتاع بهذه اللعبة الغريبة :

– نتصوَّرُ أحياناً أننا سنسمع طائفــةً مـن الآراء المختلفـة بوجـود كـل هذه الصحـف والإذاعـات والمحطـات التلفزيونيـة ؛ ثـم نكتشـف ، علـى عكس ذلك، أن قوَّةَ هذه الأبواق تقوم بتضخيم الرأي العام السائد فحسب ، لدرجةٍ أنها تطغى على أيِّ ناقوسٍ آخر .

واعترضتُ قائلاً :

– زملاؤك لا يفعلون سوى ...

– هذا هو بالضبط ! فوسائل الإعلام تعكس ما يقوله الناس ، والناس يردِّدون ما تقوله وسائل الإعلام . ألن نسأمَ أبداً لعبة المرايا العاكسة هذه التي تقوم بتبليد العقول ؟

وأرفقت كلماتها بحركة لاعبِ كرةِ قدمٍ محبط بدون أن تنهضَ من مكانها .

– آهٍ ، كم أوَدُّ أن أسدِّدَ رفسةً في كل هذا الهراء !

يجب القول إنَّ استطلاعاً "مطمئناً " صدر في ذلك اليوم وأثار حفيظتها ، أجرته مجلَّةٌ في فرانكفورت وشمل خمسَ مقاطعاتٍ ألمانية . وتبيَّن في هذا الاستطلاع أنه من أصل ١٠٠ من الأشخاص المتزوجين الراغبين

بالإنجاب، ثمة ستة عشر يريدون ولداً ، وستة عشر يفضلون بنتاً ، في حين أن ٦٨٪ لا يكترثون لجنس المولود .

وعلقّت كلارنس في مقالٍ كان له صدى مميّز وقتئذٍ : " ما أروع هذا التوازن ! ما أدقّ هذا التطابق ! ما أبلغَ هذا الدليل على تراجع المشاعر المناهضة للمرأة ! إن هذه النتائج تنطبق على العقلية السائدة في كل أوروبا الشمالية ". وتابعت تقول : "المشكلة أن وجود هذه "المادة" اللعينة يفسد كل الأمور . منذ انتشارها وتوافرها في كل قريةٍ ومدينةٍ ، وبعد أن أضفت شخصياتٌ مرموقةٌ على هذه الوسيلة صفةَ الشرعية والمصداقية ، فقدت الأرقام مغزاها" .

وللأسف ، فالعملية الحسابية التي يحتّمها هذا الواقع الجديد ليست صعبةً . فلدى الأزواج الثمانية والستين الذين لا يكترثون لجنس مولودهم ، يجب أن يكون هنالك ، وفقاً للترجيح السكاني الطبيعي ، خمسة وثلاثون ولداً مقابل ثلاثٍ وثلاثين بنتاً .

ومن بين الأزواج الستة عشر الذي يرغبون بإنجاب بنتٍ ، يجب أن تكون القسمةُ متكافئةً ، أي نسبة ٨/٨ بعد تدوير الأرقام . أما لدى الأزواج الستة عشر الذين يريدون ولداً ، فقد يكون هنالك ستة عشر مولوداً ذكراً . وبعد عمليةٍ حسابيةٍ ، نجد أنه من أصل مئة مولود ، هناك تسعة وخمسون ولداً مقابل واحد وأربعين بنتاً ! ".

لم تقم صديقتي بأيّ بحثٍ معيّنٍ ، واكتفت بتحليل الأرقام بتلك النظرة الثاقبة التي أعرفها ، وهي مزيجٌ من المنطق السليم والحاسة السادسة . ومع ذلك، فقد ثبتت صحة استشرافها بدقةٍ تدعو للدهشة . فقد قُدّرَ " النقصُ في الولادات " في ألمانيا ببنتٍ من أصل ثمانية مواليد ، في الفترة التي لاقت فيها "المادة" رواجاً كبيراً ، بل وربما بمعدل ١/٧ . وبما أن الأمر يتعلق بمنطقةٍ من العالم يسود فيها القلق أصلاً بسبب تدنّي الخصوبة، بل والتضاؤل المنتظم

لعدد السكان الأصليين ، سوف تكتسب هذه الظاهرة ، يوماً بعد يوم ، أبعاداً مأساويةً بل وتصبحُ هاجساً ملّحاً .

هل من داعٍ للإشارة إلى أن أوروبا الشمالية كانت تُعتَبَرُ ، عندما جرى الاستطلاع، من أقلّ المناطق في العالم " ذكوريةً " . فالإناث اللواتي كنّ يبصرن النور فيها يقابلن بالترحاب نفسه الذي يقابل به المواليد الذكور . وعلى الرغم من ذلك ، كان يمكن لويلات الوباء أن تكون عظيمةً في هذه البقعة من العالم .

يسهلُ الآن إدراك القلق الذي انتاب السلطات والرأي العام عند تسريب بعض الإحصاءات حول الولادات في أوروبا المتوسّطية والشرقية . ولا أنوي تحميل هذه المذكّرات وطأة الأرقام التي يمكن الرجوع إليها في الكتب المتخصصة. ولمن تهمُّهُ هذه المعطيات ، أنصحُ بقراءة الكتيّب الذي أصدرته في العام السابع السلطات الأوروبية في بروكسل تحت هذا العنوان الذي يتأرجح بين النفحة الشاعرية والرؤيا الكوارثية ، ولكنه يحدث الوقع المنشود : "... وأصبح الكون خواءً ".

ولحسن الحظ ، لم يخلُ العالم من البشر . ولكن ما أعظمَ الضريبة التي ما زلنا نسدّدُها حتى الساعة !

ض

عندما بلغت بياتريس عامها الثامن ، قررْتُ التوقف لبعض الوقت عن كل بحثٍ أو تدريسٍ ، إذ وافق المتحف على منحي إجازةً مدفوعةً ومفتوحةً . كان هذا الوضع استثنائياً ، ولكن الجميع أصبحوا يشعرون الآن بأنهم يعيشون وضعاً استثنائياً . كانت الكلمةُ البارزةُ هي "إنقاذ" . وقد اتخَذت شبكةُ العقلاء صفةً مرجعيةً لأنها كانت أولَّ من دَقَّ ناقوسَ الخطر .

وقبل أن أقول المزيد عن الدور الذي وجدتُ نفسي أضطلع به ، ربّما يجدر بي وصف المناخ الذي كان سائداً بصورةٍ أفضل من أجل الذين لم يعايشوا تلك الحقبة.

لقد ذكرتُ بإيجازٍ السجالات التي عصفت بأوروبا والولايات المتحدة، ومررتُ سريعاً على أولى بوادر العنف في العالم الثالث . ويجدر بي أن أضيف في هذا المقام بعض العناصر التي لا غنى عنها في اعتقادي لفهم ما سوف يحدث لاحقاً.

بادىء ذي بدء ، أصبح الخلاف حول "المادة" وكلّ وسائل " الإنجاب الإنتقائي" و"الإجهاض العنصري " و "التعقيم " ، ظاهرةً عالميةً ويوميةً . ولا ريب أن المخترعين والمصنّعين كانوا في قفص الاتهام ، غير أن اتهامهم وحدهم – بالرغم من شرعيّته – لم يعد كافياً . ففي دول الشمال ، اتهمت السلطات بالتقاعس والإهمال والتواطؤ إلى حدٍّ ما . أما في دول الجنوب ، فقد سبق لي أن قلت إن التناحرَ وضع مجموعةً عرقيةً بمواجهة الأخرى ، والطائفة ضد الأخرى ، ولم يسلم الجهاز الطبي من اللوم ، وغالباً عن غير حقٍّ ، وكذلك الزعماء السياسيون ، ثم بدأت الاتهامات تطال، وعلى نحوٍ متزايد، السلطات الاستعمارية القديمة أو الغرب بكل بساطةٍ كمصدر البلاء .

ألم يتمّ اختراع المادة الشيطانية في الغرب ؟ أليس الغرب هو الذي يقف وراء "تعقيم" هذه الجماعات البشرية التي تختلف عنه لجهة اللون والمعتقد أو الثروة؟

إنّه اتهامٌ مبسّطٌ لا أساس له من الصحّة بالنسبة لمن تابع القضية من البداية حتى النهاية ، إنما هو الطابع الخبيث " للمادة" ، وهو أن الشعب لم يعد قادراً على التحقّق فيما لو أصابه العقم بفعلِ عدوٍّ آثم أو بخطأ ناجمٍ عن تقاليده الموروثة الخاصة .

هل كان اختراع الطبيب فولبو خبيثاً ؟ أنا أوّلُ من يوافق على ذلك . غير أن العقليات التي دفعت بمئات ملايين الرجال والنساء إلى اللجوء لهذا العلاج لم تكن أقل خبثاً ؛ فاللقاء بين مفاسد الموروثات البالية من جهةٍ وخبائث الحداثة من جهةٍ أخرى ، هو الذي أضفى على الأحداث التي كنت شاهداً عليها هذه الحدّة . كان قلّةٌ من الناس يقاربون السجال من هذا المنظور ، ولكن كلاً منهم يشعر بتصاعد التوتر الحتمّي . ولن أخوض في تعدادٍ مملٍ للانتفاضات والجرائم والخطف والاختلاس والنهب ، وكل ما أريد قوله هنا إن هذا الواقع العالمي الذي يتميّز بحدودٍ مبهمة وخطرة أصبح ماثلاً في الأذهان ، وإنّ الكثيرين فطنوا ، علاوةً على ذلك ، لخطورة الويلات التي تسبّبت بها " المادة" في مناطق عديدة من العالم ، حتى ولو بقيت الأرقام الجازمة سريةً أكثر من ذي قبل . غير أن الحديث عن " الإنقاذ " في الشمال كان يتعلّق بالشمال قبل كل شيء .

بين خطرين ماحقين ، الأول هائلٌ ولكن بعيدٌ ومبهمٌ ، والثاني أقل فتكاً ولكن قريب، أليس من الإنسانية الاهتمام بالثاني أوّلاً ؟

من السهل اليوم إطلاق الاتهامات واللعنات ، ومن السهل التبيان بعد حين أن الشمال ، إذ ترك الفوضى تستشري وتتفاقم في الجنوب ، وضع رخاءه وسلامته على المحك ، وأن الجنوب ، إذ ثارت ثائرته على الشمال ،

حكم على نفسه بالتقهقر والتخلف . فكلٌ منهما في تلك الفترة كان يريد الهروب سريعاً وبأقلّ كلفةٍ من المخاطر المباشرة .

أتركُ لغيري ، ممن يكبرني سناً ، مهمّة التحليل . ومن جهتي ، فقد اعترفتُ دائماً بأن هذه المشاكل تتجاوزني ، وكل ما استطعتُ القيام به هو الإشارة إليها؛ إذ شاركني فالوريس ببعض التبصُّر . غير أن الفخامة التي يوحي بها إسم "شبكة العقلاء" لا يجب أن يضلّلَ البعض . فبأية معجزةٍ كنا للضع حداً لهذه الكوارث ؟ من نحن سوى جمعية ضعيفة من الأشخاص الذين يشعرون بالحنين إلى مستقبلٍ آخر ؟ ماذا نفعل غير الكلام والكتابة والكلام ، والقيام بدور الواعظين الذين يلقون خطبهم الرتيبة في يوم أحدٍ لا ينتهي ؟ ومع ذلك ، فالذين عايشوا تلك الفترة لا يمكن أن يكونوا قد نسوا ذلك الشيخ الجليل ، عمانوئيل لييف ، بأنفه المستدقّ وأذنيه اللتين تشبهان جناحي خفّاشٍ ، وصوته الذي يخاطب الجميع وكلٌ واحد علىحدة . لقد أصبح بمثابة " الجدّ الكوني " الذي يواسي حتى عندما يحاول التهويل.

يصعب عليّ تقويم دوره أو دور الشبكة بتجرُّد ، وأفضل الاعتقاد بأنه دورٌ لا يستهان به . فمن المؤكَّد أن تضافر مجموعة من الأحداث – محاكمات وأعمال عنف واحصائيات مرعبة – كا ن ضرورياً ليسيطر ذاك الشعور الملح وبداية اليقظة، تلك، في أوروبا وسائر دول الشمال . ولن أغالي وأؤكِّد بأن معظم القرارات التي اتخذتها السلطات في تلك الفترة استلهمها أصحابها من أعضاء مجموعتنا .

وبالحديث عن لييف تحديداً ، أردتُ أن أضع في الصدارة هذا الشخص الذي ظلّ حتى مماته حاملَ رايتنا وتعويذتنا . غير أننا كنا كثراً ، عشرات ثم مئات ، مشتّتين حول العالم ، لا نعرف بعضنا بعضاً ، حريصين أشد الحرص على القيام بخطواتٍ فاعلةٍ حتى لا نهدر الوقت في جمعياتٍ عموميةٍ فوضوية . لا ، كنا مكتفين بفكرة "الشبكة" ، ذاك الخيط الخفي الذي

يربطنا ، تلك المثل العليا التي تجمعنا ، وذلك الشعور الملحّ الذي يفرض نفسه علينا ويبقينا في حالة تأهّب .

جرى اعتماد بعض أفكارنا وتطبيقها ، وأصبح البعض الآخر مثارَ جَدَلٍ أو غير قابل للتنفيذ وإن عبّر عن أفضل النيات . كان الهدف المشترك لكلّ المقترحات حثّ السكان على إنجاب الإناث بما يكفي لإعادة التوازن إلى الولادات ، ولاستعادة معدّل الخصوبة الذي كان سائداً قبل حدوث الأزمة . ويجب أن نعرف بأن " النقص في الولادات " ، في أكثر السنوات قحطاً ، كان يقدّر بحوالي مليون أنثى لمجمل القارة الأوروبية؛ فلا مجال للمقارنة مع الأوضاع التي يعاني منها ، حسب الترجيحات ، بعض دول الجنوب ، غير أن الأرقام كانت كافيةً لتبرير الخوف من التضاؤل السكاني .

كان يجب ، قبل كل شيء ، منع المزيد من الأشخاص من استعمال "المادة"، وهذا هو الجانب الأسهل . فقد حظّرت السلطات تصنيعَ كلّ الأدوية " المسؤولة عن الإنجاب العنصري وتسويقها" . وحتى لو بيع بعضها سراً ، فقد شهد توزيعها انحساراً في معظم دول الشمال ، ولكن هذه التدابير لم تكن كافيةً. فنظراً للأعداد الهائلة من الرجال الذين تمّ علاجهم بها – أو ربما يجدر بنا القول " تلويثهم " بنا – استمرّ النقصُ في المواليد الإناث لسنواتٍ عديدةٍ لاحقةٍ مما أدّى إلى تفاقم الخلل الحاصل . وتطلب الأمر عكسَ هذا المنحى بشتى الوسائل .

على الصعيدين العلمي والتكنولوجي ، كان البعض يريد اختراع مادة تحفّزُ ولادةَ الإناث ، سميّت " المادة العكسية" ، بل كانت الأبحاث جاريةً على قدمٍ وساق أصلاً ، ويوجد منها نموذجٌ تجريبيٌّ ؛ غير أنه تمّ العدول عن فكرة تسويقها في نهاية المطاف بسبب بعض الأعراض الجانبية التي لم ينجح الباحثون في التخلّص منها أبداً . وقد أثار هذا المشروع لغطاً واسعاً، حتى ضمن الشبكة ، ورأى أولئك الذين يعارضون من ناحية المبدأ أيَّ تعديلٍ

وراثيّ، أنه من غير المنطقي مداواة الداءِ بالداء ، وإحداث تشويهٍ آخر . أما تخصيصُ الأموال لصناعة " ترياق" ، أي علاج قادر على التخفيف من مفعول " المادة " لدى الذين استعملوها أصلاً ، أو لإلغاء مفاعيلها نهائياً ، فقد لاقى الإجماعَ والترحيبَ ، ولكنّ البحثَ العلميّ تقدّمَ ببطء أكثر مما كان متوقّعاً ، وحتى عندما تكلّل بالنجاح ، تبيّن أن العلاجَ معقّدٌ ومكلفٌ، وبالتالي، يتعذّرُ استعماله على نطاقٍ واسعٍ .

أما التدابير الفعّالة ـ تلك التي أسهمت إسهاماً حاسماً في إعادة توازن الولادات ، فتميّزت بطابعها المادي . فقد قررت الحكومات، الواحدة تلو الأخرى، منح الأسر ذات الدخل المرتفع إعفاءاتٍ ضريبية كبيرة في حال أنجبت بنتاً ، على أن تستمر طوال طفولة هذه البنت ومراهقتها . أما الأسر المتدنّية الدخل ، فقد ارتأت الحكومات أن تخصّص لها مساعدةً ماديةً مغريةً بحيث تفكّر الأكثرية من النساء ، بالتوقّف عن العمل لإنجاب طفل وحبّذا لو كان طفلةً .

ورأت العديد من الدول ، للأسف ، منح هذه الامتيازات للأسر التي تتبنّى طفلةً صغيرةَ السنّ ، وتسهيل إجراءات التبنّي . وقد ندّدت الشبكة عبثاً بهذا التدبير الذي لا يخفى طابعه الخبيث على أحدٍ ؛ ففي عالمٍ يتضاءل فيه عدد الإناث، ويسمح " اقتناؤهن" بالاستفادة من امتيازاتٍ ماديةٍ ، سوف تنتشر تجارةُ تهريبٍ عشوائيةٌ ودنيئةٌ ، وتؤجج الأحقاد كما سأتحدثُ عن الأمر لاحقاً.

ولقد نجحت تدابير أخرى أكثر تعقُّلاً، لا سيّما حملةٌ دعائيةٌ واسعةٌ على شاشات التلفزة والسينما والملصقات الكبيرة التي يظهر فيها رجلٌ رافعاً بين ذراعيه فتاةً ينظر إليها بشغفٍ مع الشعار المقتضب التالي : " أبٌ ، إبنةٌ ".

كنت أنا ذلك الرجل على الملصقات والفتاة بياتريس بالطبع . وقد اقترح صاحب شركة الإعلانات الفكرة ، وأعتقد أن كلارنس هي التي أوحت له بها . وفي البداية، أضحكتني الفكرة ثم وافقت في لحظة تشتّتٍ محاولاً إقناع

نفسي بأن نظرتي إلى بياتريس لا بدّ أن تؤثّرَ لو كان للصدق أي مفعول ناجع. لم يكن من السهل عليَّ أن أرفع عالياً بين ذراعي فتاةً في التاسعة من العمر يافعةً وطويلة القامة بالنسبة إلىسنّها ، وأبقيها في الهواء لثوانٍ معدودة وثقيلة ، غير أن المصوّر نجح في إبراز حركة الطيران التي توحي بالخلق واللهو والقفزة من جيلٍ إلى آخر .

طالما كنتُ في استديو التصوير – فقد تطلب الأمر مئات اللقطات لمدّة ثلاثة أيام – كانت الفكرة مجرّد فكرة . ولكن ، عندما رأيتُ نفسي على الجدران بمقاييس مضخّمةٍ ، شعرتُ بنفسي مسحوقاً ، وفكّرتُ على الفور بالمتحف الذي لم أعد أتردّد عليه لحسن الحظ ، فلم أكن قادراً على تحمُّل ضحكات طلابي ولا سخرية زملائي .

وبغضِّ النظر عن هذه الناحية الطريفة ، فقد نجحت الحملةُ نجاحاً منقطع النظير وذهبت أبعد من فكرة الملصق والشعار . كان يجب إقناع الناس بأن ابنةً وريثةً تضاهي إبناً وريثاً . وقد تطوَّرت القوانين في هذا الاتجاه إلا في ناحية واحدة شكلية وإنما جوهرية : النَّسَب . فما السبيل لتصحيح الوضع؟ أبمنح الطفل ، كما في إسبانيا ، إسم الأب والأم معاً ؟ وبالطبع ، فهذا الحلُّ لا يقضي على الذكورية أو على " النزعة التوريثية الذكورية " ، وهو مصطلحٌ شاع في سجالات ذاك العصر. ما العمل ؟ هل يُعطى الطفل حق الخيار بين إسم الأب وإسم الأم ؟

أما أنا فكنتُ مؤيداً لإصلاحٍ أكثر جذريةً ، وهو اعتمادُ إسم الأم . فكما أن الأبناء أُرغموا طويلاً على حمل إسم الأب ، فسوف يحملون من الآن فصاعداً إسم الأم . ولن أستعرض هنا الحجج التي قدمتُها مكتفياً بالتوضيح أن الفكرة الأساسية من وراء ذلك هي انقلابٌ جذريٌّ لمفهوم الوراثة بصورةٍ أكثر انسجاماً مع المنطق البيولوجي ، وأكثر انسجاماً مع استمرارية الجنس البشري.

ولئن لم يؤخذ باقتراحي حتى النهاية ، فلقد قبلت العديد من الدول إدخال تعديلاتٍ على قانون الأحوال الشخصية ، ولم تعد عبارة " إسم الأب " تلفظ بالثقة نفسها كما في السابق .

ولكن أفكاري ومساهمتي لا أهمية لها ، فأنا لا أشعر بكبرياء المخترع . والشيء الوحيد الذي يستحق التنويه في تلك السنوات هو الفعالية التي تميز بها نمط التدابير التي اعتمدتها دول الشمال آنذاك . فتزايدَ عددُ المواليد الإناث شيئاً فشيئاً ، وأعلنت السلطات رسمياً ، استناداً إلى الإحصاءات، أن خطر التضاؤل السكاني قد زال ، فتنفس الجميع الصعداء .

ولهذا السبب بدون شكٍّ ، لم نعرف فوراً أن الكارثة قد وقعت .

ط

وسط الإرتياح العـام الـذي كـان يصـمُ الآذان فـي جميـع دول الشـمال ، علَت بعضُ الأصـوات منـذ ذلـك الوقـت لطـرح السـؤال الحقيقـي الوحيـد : مـا هـي عواقب هذا الخلل الرهيب في الولادات خلال السنوات المقبلـة ؟ وقـد أصـغى الناس إلى هـذه الأصـوات كمـا يصـغي شـخصٌ نجـا مـن الغـرق علـى الرمـق الأخير إلى من يحذره من الإصابة بالبرد بسبب ثيابه المبلّلة .

وماذا لو قيل لهـذا الشـخص الـذي نجـا مـن الغـرق إن شـخصاً آخـر يوشك على الموت غرقاً بدوره في الطرف الآخر مـن الشـاطىء ، هـل يهُـبُ لإنقـاذه ؟ لا ، لـن يحـرّكَ سـاكناً ، بـل يبقـى فـي مكانـه ، ممـدّداً ، جـامداً ، مرهقاً، غير مصدّقٍ ، يسترجع لحظات الهلع والرعب ثـم الخـلاص . هكـذا أبرّرُ الفشل الأصلي للحملة التي أطلقتها شبكة العقـلاء فـي العـام الثـالث عشـر بعد ولادة بياتريس حول الشعار الآتي: "لقد نجا الشمال ، فلننقذ الجنوب" .

ما زلتُ حتى اليوم لا أصدّق ما قرأتُـهُ أو سـمعتُهُ . فهـا هـي الحجـج القديمة نفسها، تلك التي طرحها برادان ، تُقَدَّم كما هـي ، كمـا لـو أن مجـرى الأحداث لم يفعل سوى تبريرها . كان البعض يقول إن الشمال مهدّدٌ بالتضاؤل السكاني، والأمر يتطلب عمليةَ إغاثةٍ . أما الجنوب ، فالكلُّ يعرف بأنـه يعـاني من كثافةٍ سكانيةٍ عاليةٍ ، وأن تراجعَ الخصوبةِ فيه لن يكون خللاً ، بـل علـى العكس ، إعادةَ توازنٍ رحيمة . وعلاوةً على ذلك ، بما أن " بلداننا " قد شهدت انخفاضاً في عدد السكان، أصبـح مـن المستحسـن أن تَعْرِفَ " البلـدان " هنـاك انخفاضـاً ممـاثلاً علـى الأقـل . وللتوصّـل إلــى هـذه النتيجـة ، كـلُّ الوسـائل مشروعةٌ...

وأنا الذي خِلْتُ أن الأرواح الشريرة قد ولّتْ إلى غير رجعـةٍ ! وإذ سمِعْتُ هذه الحجج ، تذكّرتُ حديثاً مع أندريه . كنت آنذاك في الثانيـة عشـرة

أو الثالثة عشرة من العمر ، وسألني هو على حين غرّةٍ سؤالاً خارجاً عن موضوع نقاشنا: "هل تعتقد بعودة الأموات ؟ " ، فأجبتُ محتجاً ومتضايقاً لأنه تصوّر أنني أصدّقُ هذه الخزعبلات : " كلا ! " . فأردفَ قائلاً : " أنت مخطئٌ ، فأنا لا أعني بهم تلك الجثث المزوّدة بمخالب والهائمة قرب المقابر ، بل أتحدّثُ عن الأفكار البالية العائدة من اللحد والتي تضاهي الأموات بمخالبها المضرّجة بالدماء ؛ سوف تصادفها في كلّ مراحل حياتك ، ولن تتمكّنَ من القضاء عليها لأنها ميتةٌ أصلاً ".

وسواءٌ كان هذا الحديثُ مجازياً أم لا ، فعقلي المراهق بقي طويلاً مسكوناً بهذه الأفكار البالية ، وحتى الساعة ، لا أزال أصادف بعضها وأطاردها أينما كانت ، بعزمٍ وإصرارٍ دون أيّ أملٍ بالقضاء عليها .

كنت أعيشُ في هذه الحالة النفسية عندما اندلعت القضية التعيسة المعروفة بقضية " فيتسيا" أو قضية "السفينة السماوية"، وهي حدثٌ مأساويٌّ وهزليٌّ يكفي ذكرُهُ ليشعرَني بالخجل الذي يجدر بكلّ أبناءِ جيلي أن يشعروا به.

ولكن ، ما العمل ، فالعالم كان قد وصل إلى هذا الدرك !

سبق وقلتُ إن العديد من الحكومات قرّرت تسهيل التبنّي من الخارج لسدّ النقص الحاصل في عدد المواليد الإناث ، وإنّ شبكة العقلاء عارضت هذا القرار دون جدوى . كنا نعتقد بأن التبنّي هو بدون شكٍّ تعويضٌ عاطفيٌّ ، ولكنّهُ لا يجب ، في مطلق الأحوال ، أن يتحوّل إلى وسيلةٍ لإعادة التوازن السكاني ؛ وأنه التزامٌ إنسانيٌّ عظيمٌ شرط أن يبقى فردياً حصراً وألا يخضع لأيّ صفقات تجارية أو يدرّ أرباحاً ماديةً . وبما أن الأمر يتعلّق بالأطفال ، فالحدود التي تفصل بين النبل والدناءة ، بين الشهامة والخساسة ، هي حدودٌ واهيةٌ ..

غير أن السلطات والرأي العام ، إذ تخوّفت من هذا التضاؤل السكاني ، لم تشأ التوقف عند هذه الفروقات الدلالية الدقيقة . كان الجميع يحلّلون الوضع استناداً إلى المعدّلات والنقص والتوازنات العامة ، ويعربون عن استعدادهم الكامل للنظر إلى انتقال أعدادٍ هائلةٍ من الإناث من الجنوب إلى الشمال كعملٍ مشروعٍ بل وخشبةِ خلاص . فقد ظهر أحدُ المبشّرين على شاشات التلفزة ، وهو أميركي من أصلٍ أوكرانيٍّ ، لا يحضرني اسمه الحقيقي الآن، ولكنّهُ كان يلقّب نفسه باسم " فيتسيا " – وأعتقد أن هذه الكلمة تعني "أب" في اللغة الأوكرانية – ؛ قرّرَ إطلاق حملةٍ واسعةٍ تهدف إلى نقل عشرة آلاف مولودٍ ، معظمهم من الإناث ، نحو الشمال من البرازيل والفيليبين ومصر ودولٍ أخرى من دول الجنوب ، وقد شجّعته القوانين على تنظيم هذه الحملة فضلاً عن الشعور الشعبي السائد . ونظّمَ ، بفضل حملةٍ دعائيةٍ واسعةٍ ، جسراً جوياً حقيقياً أطلق عليه إسماً جليلاً هو " السفينة السماوية".

يجب أن يعيش المرء هذه النهارات التلفزيونية بالبثّ المباشر ، أو "بالعرضِ الحيّ " كما كان يحلو للبعض القول في ذلك الوقت . فقد اعتبرت محطات تلفزيونية عديدة أن عملية فيتسيا نعمةٌ إعلاميةٌ حقيقيةٌ قادرةٌ على تحريك المشاعر والتأثير أيما تأثيرٍ في جمهورٍ يعي بشكلٍ خاص كل ما يتعلّق بمشاكل السكان . وبالتالي، فقد يكون حدثاً تاريخياً عظيماً لا يُغْتَفَرُ "تفويتُهُ". وطوال ٤٨ ساعة ، أي طوال نهاية الأسبوع ، بقيت الملايين من العائلات مسمّرةً أمام التلفاز ، تشاهد مراراً وتكراراً صور العملية التي تتخلّلها مقابلاتٌ مع بطل الموسم ، وهو رجل طويل القامة ، ذو لحية برّاقةٍ وحاجبان صهباوان كثّان .

لم يكن فيتسيا ،كما يحلو وصفه اليوم ، مجرّد داعيةٍ مبتذلٍ ومتعطّشٍ للشهرة ، ولم تخلو الحجج التي قدّمها من المنطق . فقد قال : " لنأخذ على سبيل المثال بنتاً ولدت لتوّها في قريةٍ سودانيةٍ . إن معدّل حياتها ، إذا ما أخذنا

في الحسبان وفيات الأطفال والمخاطر المتعلّقة بالحمل والوضع المتكررين اللذين سوف تتعرّض لهما في حياتها اللاحقة ، هو حوالي ٤٠ عاماً . أما في أوروبا ، فهذه البنت نفسها تستطيع أن تعيش حتى تبلغ الثمانين من العمر . من يحقُ له أن يقرِّرَ ببرودة أعصابٍ حرمانها من نصف حياتها ؟ ".

وسأله أحدهم : – ألا يجدر بالأحرى مساعدة هذه الطفلة في موطنها الأصلي وتوفير عيشٍ أفضل لها وسط أهلها ؟ ، فأجاب فيتسيا : " هذا بالضبط ما نسمعه منذ نصف قرنٍ ، ولكن لا أحد يحرّك ساكناً . وإذاكنت لا أريد أن أرى هذه الطفلة تموت في وباءٍ يدوم ستة أشهرٍ، أو تُبتلى بعاهةٍ، أو تلفظ أنفاسها الأخيرة عند وضعها لطفلها الأول ، فأنا لا أستطيع الانتظار حتى تُحل كل مشاكل الأرض . فالأمر لا يتعلّق بدراسة مصير كائنٍ غير محدّد أو عيّنة تافهة قام بمعالجتها حاسوبٌ تكنوقراطيٌّ ، بل يتعلّق بالذهاب إلى هذه الدول الفقيرة ولقاء الطفلة والنظر في عينيها والتساؤل : هل أنقذ هذه الطفلة أم أدعها تموت ؟ إنه لأمرٌ في غاية البساطة . عندما أعرف أن آلاف وآلاف العائلات في الدول الغنية تنتظر هذه الطفلة وتعرب عن استعدادها لاحتضانها وإحاطتها بالحب والعطف وتأمين تعليمها، ممّا يتيح لها الاعتماد على نفسها ككائنٍ بشريٍّ موفور الإرادة وتوفير الحياة الكريمة لها ، حياة مديدة ورغيدة ، هل يحّقُ لي التردّد ؟

وسأله أحد الصحافيين : – ولكن ، ماذا تحاول القيام به في نهاية المطاف ؟ نقل كل أطفال الجنوب إلى الشمال ؟

أجاب الداعية بابتسامة واثقةٍ : – للأسف ، لست قادراً على القيام بذلك، ولو قُدِّرَ لي إنقاذ عشرة آلاف طفلٍ ، فلن تكون حياتي قد ذهبت سُدَىً".

لم يكن أيٌّ شيءٍ في كلامه يبدو لي معيباً أو ذميماً . وبالرغم من أنْ مبرّرات العملية لم تكن نبيلةً دائماً ، كما كان يزعم ؛ و بعد كلّ ما جرى ، لست مقتنعاً أن هذا الرجل كان خسيساً . لا شك أن العملية أخذت تتدهور

تدهوراً مريعاً يتحمّل هو مسؤوليته . ولكن ، ومع مرور الوقت ، يتراءى فيتسيا وكأنّه كشف بأسلوبه التبشيريّ الصاخب عن فسادٍ لم تكن له يدٌ فيه .

ويبدو لي أنه ، لو أخطأ ، فذلك لضخامة مشروعه والهفوات الغريبة المرتبطة بهذه الضخامة . وبما أنه حرص على القيام بعمليةٍ ضخمةٍ تلهب مخيّلة الرأي العام وتجذب وسائل الإعلام ، لم يَرَ من الجدوى البحث سلفاً عن عائلات تتبنّى هؤلاء الأطفال ، لا سيّما وأنه كان على يقينٍ بأن هذه العائلات لا عدّ لها ولا حصر . وهكذا ، استقدمَ على متن طائراتٍ عملاقةٍ إلى باريس ولندن وفرانكفورت ، وإذا لم تخنّي الذاكرة ، إلى كوبنهاغن وأمستردام أيضاً ، أول شحنةٍ مؤلفة من ٢٠٠٠ رضيعٍ "للتصريف" – فهذه الكلمة الأولى التي تخطر ببالي – واعتمد على الضجّة الإعلامية لاجتذاب الزبائن .

ولتبديد مخاوف عائلات التبنّي المحتملة ، أخضع فيتسيا الأطفال لفحوصاتٍ طبيةٍ دقيقةٍ ولم يحتفظ سوى بالأصحاء المعافين منهم . وقام بطبع ملصقاتٍ تظهره حاملاً على ذراعه الأيسر طفلاً رضيعاً ، وملوّحاً بيده اليمنى بشهادةٍ طبيةٍ ممهورةٍ وقانونية . وكان هذا الإجراء يهدف لإزالة الشكوك . وقد ارتدى في الصورة على الملصق قميصاً طبياً أبيض اللون ، لا ريب من أجل الإيحاء بالنظافة ، غير أن الملصق أوحى للأسف بالإعلانات التي قام بها قبل أسابيع قليلةٍ متجرٌ كبيرٌ من أجل الترويج لقسم بيع النقانق .

أثارت الصورة أوّل انطباعٍ سيءٍ أعقبته انطباعاتٌ أخرى مماثلة . فسجّلت المحطات التلفزيونية التي كانت تغطّي الحدث بدون توقفٍ ارتفاعاً منقطع النظير في عدد المشاهدين ، غير أن فيتسيا هذا ، إذ وجد نفسه على الهواء كل ساعةٍ ، محاصراً بالأسئلة وقد أعياه التعب بسبب رحلته ، راح يدلي بتصريحاتٍ خرقاء لا بل فاضحة بكل ما للكلمة من معنى ! فهكذا ، اعترف بأن الأطفال الذي تبيّن أنهم مصابون بمرضٍ أو عيبٍ ولو طفيفٍ قد استبعدوا . فقيل له : – هكذا إذن ، بدلاً من أن تهتمّ بأولئك الذين يحتاج

وضعهم الصحي إلى العناية والاهتمام أكثر من غيرهم ، فضّلتَ انتقاء الأطفال الذين يسهل عليك إيجاد مـن يقبل تبنّيهـم " . ولـم تكـن التبريرات التـي ساقها مقنعةً البتّة .

وردًا علىسؤالٍ آخر ، سمعناه يوضّحُ بأنه قرّر تصنيفَ الأطفال في ستّ فئاتٍ حسب اللون " وذلك للتسهيل على الأهل اختيار الطفل الذي يلائم التناغم العائلي " ، وبأنه سيقوم بحسوماتٍ للذين يقبلون تبنّـي طفلٍ ينتمي إلـى غير عرقهم ، علماً أنه يبقى مصرّاً على مبـدأ " المساهمة الماليـة" نفسـها لكل طفلٍ يصار إلى تبنّيه . وظهَرَ الأمر كما لو أنه صفقةٌ تتضمـن " سـعر شـراء" وأطفالاً "بالتنزيلات" ؛ ولم أكن وحدي الذي ُوجد الفكرة مثيرةً للغثيان . وبدأت المحطات التلفزيونية تتلقىاتصالاتٍ من مشاهدين مستائين بل ومتوعّدين . ثـم وقع حادثٌ أول عندمـا أخطأ المبشّر ، وهـو يعدّد المزايـا الكثـيرة لـترحيل الأطفال إلى الشمال . فذَكَرَ بأنه حرص على استقدام أطفـالٍ رُضّـعٍ بـأعدادٍ كبيرةٍ من بيئاتٍ مسلمةٍ لا سيما من مصر وتركيا والصومال والسودان " بغية إنقاذهم ، وخاصـةً الإناث منهم ، من المصير المشؤوم الذي كان ينتظرهـم فـي بيئتهـم الأصليـة ، والسـماح لهم بالاندمـاج فـي محيطٍ دينـي وثقـافي أفضــل". وسرعان ما أصدرت جمعياتٌ إسلامية عديدة بيانات استنكارٍ، وبـدأت تتشكل حشودٌ بصورةٍ عفويةٍ ظاهرياً، في أحياءٍ كثيرةٍ للمهاجرين في فرنسـا وهولنـدة وبلجيكا وانكلترة وألمانيا .

وبين ليلة السبت وصباح الأحـد ، فـي حيـن كـانت عمليـة " السـفينة السماوية" قد انطلقت منذ حوالـي ٢٤ سـاعة ، وراح الجميـع يـترقّبون وصـولَ دفعةٍ جديدةٍ من طائرات الشحن ، اندلعت أعمال الشـغب . وقـد ذكـرت حدّتُهـا بالقلاقل التي شهدها حيُّ واتس وأحياءٌ اخرى للسود إبان الستينيات مـن القـرن المـاضي. ولكـنّ مسـرحَها ، هـذه المـرّة ، كـان أوروبـا أساسـاً . لا شـكّ أن المعازل السوداء في أميركا كانت ترزحُ منذ وقتٍ طويلٍ تحت وطـأة العنـف

الداخلي ...كانت تلك إحدى التبريرات المطروحة وقتئذٍ . غير أن الأحداث الوحيدة التي شهدتها الولايات المتحدة اقتصرت على الأحياء الإسبانية ، ولم تبلغ في حدّتها ونقمتها ما شهدته القارة القديمة .

وغنيٌّ عن البيان أن التوتُّرَ كان متراكماً منذ عشرات السنين، والحذر السائد بين "السكان الأصليين" وجماعات المهاجرين كان واقعاً مفروضاً تعلَّم الجميع التعايش معه . وباستثناء بعض الانتفاضات المحدودة والعابرة ، ظلَّ العنف خطراً افتراضياً. أما قضية "السفينة السماوية" التي جاءت عقب الهلع العظيم من التضاؤل السكاني ، فقد أدّت إلى تدهور الوضع.فعلى مدى أسبوعٍ تقريباً، تصاعدت النقمة وانتشرت في عشرات المدن الأوروبية ، وتحوّلت إلى انتفاضاتٍ عشوائيةٍ لا شكّ ، إنما غير منسّقة وخاضعة ، مما يدعو للعجب ، لنموذجٍ مشتركٍ من الانتهاكات التي تقوم على السلب والتخريب بدلاً من القتل وسفك الدماء ؛ وتستهدف بصورةٍ منهجيةٍ كلَّ رموز الدولة – شارات السير وسيارات الشرطة وأكشاك الهاتف والحافلات والمباني الرسمية – أو رموز الدعة والرخاء – المتاجر والمصارف والسيارات الفارهة أو النظام الطبي . لم يسقط عددٌ كبيرٌ من القتلى ، وكانت الحصيلة الإجمالية تناهز الستين قتيلاً في كافة الدول ، غير أن الاشتباكات أوقعت ثمانية آلاف جريحٍ ، وبالطبع ، أضراراً تقدّر بالبلايين . وشُلَّت الحركة في الدول الأوروبية طوال أسبوعٍ كاملٍ كما يحدث في الإضراب الشامل وبقيت الشوارع مظلمةً ومهجورةً ، وغالباً مملوءةً بالشظايا ...

وحتى بعد مرور هذا الأسبوع ، ظلَّ الحذر سائداً كما لو أن مادةً سامةً قد امتزجت لفترةٍ طويلةٍ بالهواء الذي يتنفَّسُهُ الجميع .

كان الأمر يتطلّب تلك المهزلة الهائلة ، ثم ذاك الهلع على مستوى القارة بكاملها كي تتزعزع الأنانية المقدّسة ، وتنتشر فكرة الإنقاذ أخيراً في كلّ أرجاء أرض البشر .

طلبت شبكةُ العقلاء في تصريحٍ، شئنا أن يكونَ مدوّياً ورسمياً، تنظيمَ قِمّةٍ عالميةٍ حول الأزمة السكانية خلال السنة الجارية .كانت الفكرة قد نضجت ولاقت ترحيباً فورياً وحاراً . وأعلن العديد من رؤساء الدول أو الحكومات أنهم سوف يحضرونها على رأس وفود دولهم .

كان مقرُّ الأمم المتحدة في نيويورك الإطارَ الأمثل لإضفاء الوقع المنشود على هذا الحدث . وتقرَّرَ دعوة بعض المنظمات "الناشطة في مجال التضامن الإنساني " إلى جانب الدول، وكذلك نخبةٍ من الشخصيات " التي قد تفيد المؤتمرين بمعلوماتها وحكمتها " .

بدت هذه العبارات مدروسةً بعنايةٍ لتطغى شخصية عمانوئيل لييف وصوته وسط هذا الإجتماع أو ربما تهيمن عليه إذا جاز القول .

مرّةً أخرى ، مرّةً أخيرةً ، كان رائعاً .

اعتلى المنصّةَ بقامته النحيلة ووجههِ الذي يبدو وكأنّ أحد الرسامين الكاريكاتوريين الماهرين قد ابتدعه ، كالفلاح الذي يعتلي كومةً من الحجارة، وجالَ بنظره علىالحضور المؤلّف من مئات الملوك ورؤساء الجمهوريات والوزراء وأصحاب المعالي بنظرة عصفورٍ حطّ على قِمّةِ شجرةٍ ، دون اكتراثٍ ودون تبجيلٍ .

كنت أتوقّع أن يقول لهم " يا أبنائي" ، وهو يستطيع أن يسمح لنفسه بذلك ، إذ كان في الثامنة والثمانين من العمر ، وفي سنٍّ تخوّله أن يكون أباً لهم جميعاً ، ولكنّه اختار أن يمهّدَ لكلمته على هذا النحو :

- هل تلومونني إذا اخترتُ ألا أبدأ بعبارات المجاملة التقليدية ؟ فأنا أجهلها، ولقد تأخّر الوقت لأتعلّمها . ولذا أكتفي بالتوجه إليكم بهذا اللقب الذي يجب أن يُشرّف كلّ واحدٍ منكم : أيها الأشخاص ذوو الإرادة الطيبة !

تكلّمَ عمانوئيل لمدّةٍ تسع دقائق ارتجالاً ودون تردُّدٍ ، أمام حضورٍ صامتٍ لدرجة الخشوع . كانت مداخلته تُنقَلُ مباشرةً في كلّ دول العالم تقريباً. وهي تبدو لي اليوم ، مع مرور الزمن ، نموذجاً للتبصُّر المشوب بالتفاؤل.

قال عمانوئيل : " نحن كثيرون على هذا الكوكب ، وقد يقول البعض إننا كثيرون أكثر مما ينبغي . وأنا لا أشاطر هذا الرأي ، كما لا أعتقد أنّه يجب أن نتناسل إلى ما لا نهايةٍ ؛ بل أجدُ " انتقام المُهُود" التي تلجأ إليه أحياناً الشعوب المقهورة لزعزعة نير الأقليات الحاكمة ، أجدُ هذا الانتقامَ مثيراً للشفقة.

" نعم ، نحن كثيرون ، ولا شكّ أننا تكاثرنا بسرعةٍ كبيرة . ومع ذلك ، لو يغرق البلايين الثمانية من أبناء جلدنا في البحر المتوسّط ، هل تعرفون كم يعلو مستوى مياهه ؟ عشراً من مليمترٍ ! نعم ، يا إخوتي ، يا صغاري ، لسنا نحن ، نساء ورجال القارات الست أجمعين سوى قشرة رقيقة، قشرة رقيقة من اللحم والإدراك على صفحة العالم .

" يتحدّث البعض عن اكتظاظٍ سكانيّ ؟ ! إذا كانت الأرضُ مزدحمةً، فهي مزدحمةٌ بأطماعنا وأنانيتنا وعنصريتنا و " مجالنا الحيوي" المزعوم و" مناطق النفوذ" أو "المناطق الأمنية" وأيضاً استقلالاتنا التافهة .

"خلال القرن الماضي ، تقاسم الأرضَ جنوبٌ يتظلّم وشمالٌ يتذمّر . واقتنع البعض بأن هذه الظاهرة واقعٌ ثقافيٌ أو استراتيجيٌ عاديٌ . ولكن الحقد لا يبقى إلى الأبد واقعاً عادياً . ففي يومٍ من الأيام ، وبذريعةٍ ما ، ينفجر هذا الحقد ونكتشف أن لا شيء منذ مئة عامٍ ، ألف عامٍ ، ألفي عامٍ قد نسي ، لا

الصفعة ولا الرعب . فعندما يتعلّق الأمر بالحقد ، تخترق الذاكرةُ الزمنَ وتقتاتُ من كلّ شيءٍ ، وحتى من الحبّ في بعض الأحيان .

لقد نجح عددٌ قليلٌ من العقائد ، عبر التاريخ ، في استئصال الحقد ، واكتفى معظمها بتحويله من شيءٍ إلى شيءٍ آخر ، فاستهدف الملحدَ والغريبَ والمرتدّ والسيّدَ والعبدَ والأبَ . وبالطبع ، فالحقد ليس حقداً إلا عندما نراه عند الآخرين ؛ أما الحقد الذي نحمله في أعماقنا ، فهو يحمل آلاف الأسماء. لقد اتخذ الحقدُ اليوم صورةَ مادّةٍ خبيثةٍ ، هي ثمرةُ أبحاثٍ مشروعةٍ ، تلك الأبحاث الوراثية نفسها التي تسمح لنا بمكافحة العاهات أو الأورام ، ثمرةُ تلك التعديلات الوراثية عينها التي تتيح لنا تحسين مواردنا الغذائية ومضاعفتها؛ ولكنها ثمرةٌ فاسدةٌ أيقظت في كلّ واحدٍ منا أسوأ غرائزه الدفينة .

"منذ آلاف السنين ، وبلايين البشر ينتحبون عند إنجابهم أنثى ، ويبتهجون لولادة طفلٍ ذكر . وفجأةً ، يأتي أحدُ المغرّرين ليقول لهم : ها هو رجاؤكم يمكن أن يتحوّل إلى حقيقةٍ . منذ آلاف السنين ، ثمة شعوب ومجموعات إثنية وأعراق وقبائل تحلم بالقضاء على من كانت خطيئتهم التي لا تُغتَفَر أنهم مختلفون . وها هو أحدُ المغرّرين يأتي ويقول لهم : بمقدوركم إبادتهم دون علمِ أحدٍ .

" يحدُثُ لي – وستعذرون ، لا ريب ، هذه الإرهاصات الي يتفوّه بها رجلٌ عجوز– أن أفكّرَ بأن الجنّة الموجودةَ على الأرض والمذكورةَ في الكتابات المقدّسة ليست أسطورةً من أساطير الأزمنة الغابرة بل نبوءةً ورؤيا مستقبلية. منذ بضعة عقودٍ ، كان الإنسان يبدو أنه في طريقه إلى بناء هذه الجنّة ، فلم يسبق له من قبل أن أجاد التحكّمَ بالمادة والحياة وطاقات الطبيعة؛ كان يَعِدُ نفسه بالقضاء على الأمراض ، وربما استطاع القضاء على الشيخوخة والموت في أحد الأيام . ليست كلماتي كلمات شخصٍ ملحدٍ كافر. فلئن قام العلم بإخفاء إله الكيف ، فذلك لإظهار إله اللماذا الذي لن يتلاشى أبداً ، وأظنّهُ

قادراً على منح الإنسان كل القوى حتى قوة التحكّم بالحياة والموت اللذيـن همـا في النهاية مجرّد ظواهر طبيعية . نعم ، أعتقـد أن اللـه قديـرٌ علـى مشـاركتنا، نحن خليقته ،في خَلْقِهِ . عندما أعدّلُ جينات شجرة كمثرى ، فأنا على يقينٍ بأن الله وهبني القدرةَ والحقّ للقيام بذلك . ولكنّ هناك فاكهةً محرّمةً ليست الجنـس أو المعرفة كما اعتقد أسلافنا بسذاجةٍ ، وإنّما تلك الفاكهة المحرّمة أكثر تعقيـداً وأصعب على الإحاطـة ، ولا ريـب أن حكمتنـا أكـثر مـن معتقداتنـا هـي التـي ستهدينا إليها .

"بالرغم من مشيبي وزعمي التمتّع بالعلم والحكمة ، أعترف بـأنني لا أدري أين توجد الحدود الفاصلة التي لا يجب تجاوزها . ربما في مجال الذرّة وكذلك في ما يتعلّـق ببعض التعديـلات التـي يمكـن إجراؤهـا علـى دماغنـا أو جيناتنا . أما ما يستحيل اكتشافه ، إذا جاز لـي القـول ، بصـورةٍ أكثر يقينـاً ، فهي تلك اللحظات التي تجازف فيها البشرية مجازفاتٍ قاتلة مع ذاتها ونزاهتهـا وهويتها وبقائها . إنها اللحظات التي يضـع أكثر العلوم سـمّواً نفسـه فـي خدمـة أحقر الغايات .

لقد شهدنا أحداثاً تثير القلق ، وهي لا تمثّلُ شيئاً قياساً لما هو آتٍ . وأنـا أتكلّـمُ، وأزنُ بعنايـةٍ كـلّ كلمـةٍ أقولهـا : ثمـة مصـائب لـم يعد بالإمكـان الحؤول دون وقوعها . فلندركْ ذلك ولنحاولْ الهروبَ من الأعظم .

توجـد فـي العـالم آلاف المدن وملايين القرى التـي لـم يتوقّـف عـدد الإناث فيها عن التراجع ، ويعتقد البعض أن الظاهرة بدأت منذ حوالي عشرين عاماً . ولا أنوي الحديث عن كل اللواتي حَالَ تمييزٌ دنـيءٌ دون مجيئهـن إلـى هذه الحياة . فالأمر يذهب أبعد من ذلك . سوف أطلعكم على مخاوفي بصريـح العبارة ، وبهذه الطريقة يجب طرح المسألة : أفكر بهذه الجحـافل مـن الذكـور الذين يهيمون منـذ سـنواتٍ سـعياً وراء رفيقـاتٍ غير موجـودات ؛ أفكـر بهـذه الحشود الثائرة التـي ستتألّف وتتضخّم وتنتفض ، بعـد أن أضحـت مسـعورةً

بسبب الحرمان – وليس الحرمان الجنسي فحسب – بل لأنها محرومةٌ أيضاً من أية فرصةٍ للحصول على حياةٍ طبيعيةٍ ، وتكوين أسرةٍ ومستقبل . هل تتخيلون كمية النقمة والعنف المختزنة لدى هؤلاء الأشخاص ، والتي لا شيء بوسعه إرضاءها أو تهدئة روعها ؟ من هي المؤسسات التي ستقاوم ؟ أو القوانين ، أو الأنظمة ؟

نعم ، لقد اندلع العنف في كلّ مكانٍ تقريباً ، ولكنّهُ ليس بعد عنف الناقمين ، بل عنف أشخاصٍ قلقين لم يختبروا الحرمان بعد ، ولديهم أسرةٌ ، وابتهجوا بإنجاب ذكورٍ وورثة . إنهم يحتجُّون ويثورون لأنهم قلقون على مصير مجتمعاتهم ، غير أن قلقهم لا يزال ملجوماً ، بما أنهم لا يعيشون المأساة في أجسادهم ، ويتمرّدون دون يقينٍ ضدّ شرٍّ ماثلٍ لم تعرفه البشرية، قط، قبل الآن . وبالتالي ، فهو شرٌّ لا يزال غامضاً وافتراضياً . غداً ، تأتي أجيال الكارثة ، أجيالٌ من الرجال دون نساء ، أجيالٌ محرومةٌ من كل مستقبلٍ، أجيالُ النقمة الجامحة التي لا يمكن السيطرة عليها . لقد حصلتُ على تقريرٍ سريٍّ حول مدينةٍ كبيرة في الشرق الأدنى . وقد أحصيتُ فيها اليوم ، دون سن السابعة عشرة ، ٥ ، ١ مليون ذكرٍ وأقل من ٣٠٠ ألف أنثى . لا يسعني حتى أن أتخيّلَ ماذا سيكون شكل شوارع هذه المدينة بعد عامٍ ، أو عامين ، أو عشرة أعوام أو عشرين عاماً ... فكلّما أمعنتُ النظر ، رأيتُ العنف والجنون والفوضى .

بسبب حساباتٍ دنيئةٍ ولئيمةٍ ، بسبب اللقاء المشؤوم بين تقاليد بالية وعلمٍ فاسدٍ ، سوف يجتاز هذا الكوكب الذي هو موطننا ، والبشرية التي هي أُمّتُنا ، أخطرَ منطقة اضطراباتٍ عرفها التاريخ ، وحتى دون ذريعةِ القدر أو وباءٍ أرسله الله .

هل ما زلنا قادرين علىالتصدّي له ؟ كلُّ ما نستطيع القيام به هو التخفيف من عواقبه . لو تضافرت الوسائل وجنّدتْ كلُّ أمم الشمال والجنوب

إمكاناتها كما في زمن الحرب ، نابذةً أحقادهـا ومتناسيةً اختلافاتها ؛ لـو بدأنـا منذ الأشهر القادمة نعيد توازن الـولادات ، لـو وضعنـا جانباً أفكارنـا المسبقة الهدّامة ، لو قمنا بتوظيف كل طاقات اليأس والإحباط في عمـلٍ جبـارٍ وعظيمٍ وخلاقٍ ومثمرٍ وإنسانيٍّ ، لو توصلنـا دون غلـوٍّ فـي العنـف إلـى الحفـاظ علـى بعض اللحمة والنظام في العلاقات بين القارات ، فقد لا تغرقُ هذه السفينة التي تحملنا على متنها . ربّما تعصف بهـا الأعاصير ويلحق بهـا الضـرر ، ولكن ربما نستطيع تفادي الغرق .

خطا الخطيب خطوةً كما لـو أنـه أراد النزول عن المنبر ، ثـم عـاد ساهماً ، مرتبكاً ، متردّداً ، وكرَّرَ الكلمة الوحيدة نفسها : " ربّما " .

عندما نزل عن المنصة ، كانت ردّةُ الفعل مفاجئةً ، مذهلةً ، لا مثيـل لها على حدّ علمي في تـاريخ الأمـم المتحـدة . فقد راح الموفـدون الذيـن بـدوا للحظاتٍ مرتاعين ، ينهضون الواحد تلو الآخر ، دون تهليلٍ أو تصفيق . كـان تكريماً صامتاً ، تكريماً ثقيلاً . وبعد أن عاد ليبف إلـى مقعـده وجلسَ وأجلَسَ الأشـخاص الموجوديـن قربـه ، تهـالك الحضـور علـى مقـاعدهم ، واعـتراهم، فجأةً، شعورٌ بالضيق والتزعزع . أغلق عمانوئيل عينيه طويلاً كما لو أراد أن ينأى بعيداً عن اهتمام العالم . كان جاره الجـالس علـى يسـاره عضـواً أميركيـاً في الشبكة ، هو البروفسور جيم كريستوبال ، وجارتـه علـى يمينـه ، لـم تكـن سـوى كلارنـس . وعندمـا استؤنفت الجلسـة ، بطريقـةٍ أو بـأخرى ، انحنـت كلارنس على " العجوز" وهمست في أذنه قائلةً :

– إنه لانتصارٌ عظيم !

فأجابها :

– إنه لانتصارٌ بالفعل . عجزٌ وانتصار .

٤

لم أذهب إلى نيويورك بنفسي . كانت الشبكةُ ممثَّلةً هناك كما يجب بلبيف وبعض الأعضاء البارزين من جنسياتٍ مختلفة ، وكلارنس صديقتي في أمانة السر أكثر فائدةً مني في هذه الرحلة ، على الأقل بحكم اتصالاتها مع الصحافة. كنتُ قد تابعتُ المؤتمر عن بعدٍ ، ورأيتُ مداخلة عمانوئيل مناسبةً، أي دراميةً بما يكفي لإثارة الصحوة المطلوبة . كان موقف الجمعية مؤثّراً بشكل خاص، حتى على شاشة التلفزة ، وقد أحسنَ المعلّقُ احترام صمت الوفود . كان الوقت ليلاً في باريس ، وبياتريس الساهرة إلى جانبي ، قد تكوّرت على صدري .

أحتفظُ بذكرى مؤثّرةٍ عن تلك الليلة ، أوّلاً لأنها كانت انتصاراً واضحاً لكل ما كافحنا جميعاً ، كلارنس وأندريه وأنا ، من أجله منذ سنوات ، وثانياً ، لأنني كنت أشهد الحدث برفقة أغلى شخصٍ عندي . وقد يبدو التعبير عن ذلك بهذا الأسلوب ضرباً من السذاجة . غير أنه لم يسبق لي أبداً أن أمضيت الليل بطوله في خلوةٍ مع ابنتي .. كانت هناك بالطبع ولادتها ، وفي الأشهر التي أعقبتها ، ليالي الأرق العديدة ، الجائعة والزاعقة ، التي ليس بمقدوري إحصاءها . كان الأمر مختلفاً ، فقد كانت بياتريس مجرّد زلعوم ، يرقانة ؛ أما هذه المرة ، فقد أصبحت امرأةً صغيرةً ، فتاةً حقيقيةً وجميلةً في الرابعة عشرة من العمر . كانت الساعةُ الثالثة فجراً ، وقد تقاسمنا لتونا المخاوف نفسها والحماس عينه ، وفي النهاية ، بعض الشمبانيا.

انتظرتُ حتى السادسة صباحاً – أي منتصف الليل بتوقيت نيويورك – قبل أن أتصل بكلارنس في الفندق الذي تنزل فيه . وخلال ساعات الانتظار ، أخبرتُ بياتريس للمرة الأولى ، بصورةٍ منطقيةٍ ومتسلسلةٍ زمنياً ، بالأحداث التي سوف تؤلّف ، لاحقاً، موضوعَ هذا الكتاب . فعندما جمعتُ

ذكرياتي في تلك الليلة ، محاولاً ترتيبها وإضفاء " منطقٍ سـرديٍّ " عليهـا ، إذا جاز القول، خطرت ببالي، للمرة الأولى، فكرةٌ كانت مبهمةً وشاردةً ومتكاسلةً في ذلك الحين ، وهي وضع هذه الأشياء التي اقتحمت حياتي في كتـابٍ يومـاً مـا.

كان مشروعي في البداية مخاطبة بياتريس ، ربما فـي مجموعـةٍ مـن الرسائل، أو بوسيلة أخرى معروفةٍ ، لأروي لها ما جرى في هذا القرن الـذي انتهى مع ولادتها، والأحداث التي جعلته ينزلق نحو الهاويـة ، وأرسـم ملامـح القرن الذي سيكون قرنها .

يعرف الخطباء على غرار الأدبـاء أحيانـاً، تلك اللحظـة التـي تنطلـق فيها الجملة كما لو أنهم ينتقلون من مرحلةٍ يقظةٍ أولى إلى مرحلةٍ يقظةٍ ثانية ، فيندفعون ويتغيرون ، ولا يخاطبون أنفسهم بـل يرسـلون الكـلام علـى سـجيّته، ويصغون إليه، ولا يكتبون بل يكتفـون بإمسـاك اليـد كـي لا تخونهـم ، كالدابـة التي لا تشعر بالرحلة التي تُجْبَرُ على القيام بها .

في تلك الليلة البيضاء التي أمضيتها برفقة بيـاتريس ، كنـت ، طـوال ساعتين، ذاك الراوي المُلْهَم . ولو وضعتُ مسجّلةً بقربي ، لكتبتُ كتابي حتـى هذا السطر ، بنبرةٍ أقـل تـردُّداً ، وبمزيـدٍ مـن الدقّـة فـي سـرد الأحـداث أكثر انسجاماً مع طبيعتي من تلك الدقّة التي أسعى وراءها بصعوبةٍ في السنّ التـي بلغْتها اليوم .

كـان وجـه بيـاتريس لا يحـرّك سـاكناً ، رانيـاً نـحوي بـذاك الخشــوع الرقيق الذي ترنو به زهرة عباد الشمس . وإذ رأيتها على هذا النحو ، لم أعد أقوى على التوقف أو التشتّت أو إظهار الضعف .

وعندمـا وصـلت روايتـي إلـى اجتمــاع نيويــورك ، أشــرتُ بحركــةٍ مسرحيةٍ إلى التلفاز الذي قد انطفأ لتوّه ، وكأنني أختمُ بقولي : "وهكذا جرى ما جرى...".

رمقت بياتريس بعينيها المطيعتين الشاشة التي أشرتُ إليها ، ثم نظرت إليّ ثانيةً وقالت :

– هل تعرف ، عندما سألتقي بحبيب العمر ، أتمنى أن يشبهك .

كنت على وشك الإجابة بابتسامةٍ ماكرةٍ وحنونة ، بأن كلّ الفتيات يقلن ذلك دائماً لآبائهن ، وما كدتُ أتلفّظُ بالحرف الأول حتى فرّت دمعةٌ خبيثةٌ من عينيّ ، وراحت شفتاي ووجنتاي ترتعش . جثت بياتريس على ركبتيها فوق الأريكة ومسحت دموعي بطرف كمّها ، وكانت أكثر مرحاً من عادتها.

– ألا تخجل ، والدٌ كبيرٌ مثلك يبكي كطفلةٍ صغيرة ؟

– ألا تخجلين أنتِ ، طفلةٌ صغيرةٌ تقول هذا الكلام لوالدها العجوز ؟

وطوّقت عنقي بذراعيها ، كما في صغرها حين كنت أحملها عند الحاضنة، كإكليلٍ لا يزال أسمر ، خفيفاً ، حاراً ومعطّراً كعَرَقِ الأطفال .

فليحلّل ، ما طاب لهم، كلُّ الذين يرون في هذا الموقف دليلاً على علاقةٍ محرّمةٍ. لوددتُ أن أبقى بين ذراعي هذه الطفلة التي هي من لحمي ودمي حتى نهاية العالم ، بجسمها الذي يسحق ضلوعي وشعرها المنثور على عينيّ ، فلماذا أزيحُ خصلاتها ؟ ماذا أتمنى أن أرى غيرها ؟

لزمنا الصمتَ معاً وأصبح نفسها بطيئاً ، وتراخت ذراعاها اللتان تعانقانني. وإذ تحرّكتُ ببطءٍ شديدٍ كي لا أوقظها ، وضعتُ ذراعاً وراء ظهرها ،وأخرى تحت ركبتيها ، وحملتها إلى السرير حيث وضعتها .

وإذ نهضتُ واقفاً ، شعرتُ بفقرةٍ تصدر صريراً . اللعنة على هيكلي العظمي الخمسيني . ومع ذلك ، عندما يحدث اليوم ، وبشكلٍ خاصٍّ بسبب حركةٍ خرقاء ، أن أستعيد ذكرى هذا الألم الحاد ، لا أفكّر بالشكوى لأنني أتذكّر تلك الليلة البيضاء، ووجه بياتريس البهيّ وأنفاسها الغافية وذاك الجسد

الرقيق والثقيل الذي حملته ، وألمي الذي تحوّل ، بفضل بلسم الذكريات ، إلى مداعبةٍ ومناكدةٍ ولسعةٍ محبّبةٍ وحنونة .

في الصباح الباكر ، وبعد ثلاث محاولاتٍ ، استطعتُ التكلّم مع كلارنس الراجعةً لتوّها من عشاءٍ مخصّصٍ لتحرير توصيات المؤتمر . كانت تشعر بالإنتصار والإعياء ، غير أنها وجدت في نفسها القوة لتقرأ لي النقاط الأساسية التي تستعيد حرفياً ، في بعض الأحيان ، تحذيرات ليف ، وتوصي المشاركين بنبرةٍ حاسمةٍ ولبقةٍ ، بضرورة اتخاذ سلسلةٍ من التدابير: حظرٌ تامٌ وشاملٌ لصناعة وترويج "المادة" المجرمة مع تدمير المخزون الموجود منها ، سنُّ قانونٍ موّحدٍ حول تجارة الأطفال ، صندوق يُصار إلى تمويله بسخاءٍ لمساعدة الدول غير القادرة على التصدي للوضع بوسائلها الخاصة ، ولا سيما تنظيم حملةٍ عالميةٍ واسعةٍ ومدوّيةٍ تهدف إلى تفسير أسباب تفشي الأحقاد .

قلتُ بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة ، ويجب أن أشدّد على الأمر من جديد ، كم كانت هذه المهمة الأخيرة جسيمةً . فالأمر لم يعد يتعلّق "بالمادة" فحسب، بل بكل هذه الأحداث التي أشرتُ إليها في هذا الكتاب . كانت المشكلة غير قابلة للقياس والمقارنة ، وحتى هذه الصفحة المفخّمة ليست سوى تبسيط تافه : كان الأمر يتعلّق بتهدئة كل الأحقاد التي قامت بتأليب الإنسان ضد أخيه الإنسان ، عبر آلاف السنين ، من خلال حملةٍ إعلاميةٍ. ألا يكفي قول الأشياء على هذا النحو للكشف عن العبثية الملائكية لمثل هذه المهمة ؟ بأية أعجوبةٍ يمكن لهذا الوعي التدخّل ؟ ناقشتُ الأمر مع كلارنس في ذلك الصباح ، وأكثر من مرّةٍ في الأسابيع التالية .

كانت تدّعي ، ولم يكن كلامها خالياً من المنطق ، أن البشريةَ خائفةٌ، وتشعر أكثر من ذي قبل بالأخطار التي تهدّد بقاءَها ، وأن موقف كل الدول في نيويورك يثبت أن الصحوة ممكنةٌ ، أو واردة في مطلق الأحوال .

وأوضحت كلارنس أن الأمر لا يتعلّق، بالطبع، بالقضاء على الأحقاد ، بل بتهدئة احتدامها الحالي الذي سبّبته "المادة " . ألم تحدث في السابق صحوة مماثلة أمام خطر الحرب النووية مما أتاح بالفعل الحؤول دون وقوع الكارثة ؟ وأضافت :إنّ وسائل الاتصال والإقناع المتوافرة اليوم لم تكن موجودةً أبداً من قبل ، ولو تم توظيفها كلها بصورة متزامنة ، بعزمٍ لا يلين، ووسائل غير محدودة، لأمكن حدوث المعجزة .

كانت ماضيةً في التحليل بحماس واندفاع وتصميم الذي يصارع من أجل بقائه وبقاء أهله .

– بما أن لا عقيدة نجحت في استئصال الحقد ، ربُّما يكون الخوف أفضل مرشدٍ ! ربُّما تبقى لدينا اليوم هذه الفرصة الوحيدة !

– ها أنت تتكلّمين مثل عمانوئيل لييف !

ويبدو أن جملتي العادية شوّشت صديقتي . فبقيت للحظاتٍ صامتةً ولاهثةً قبل أن تعلن بصوتٍ قد خَمَدَ فجأةً :

– المأساة هي أن عمانوئيل يتحدّث علناً مثلي ، ولكنّهُ يفكرٌ مثلك .

وإذ أحسستُ بالذنب بعض الشيء لأنني أحبطتُ في دقائق معدودة ، وعن بعدٍ ، حماس كلارنس المؤثّر ، حاولتُ أن أعتذرَ منها قائلاً :

– أنت تعرفين أن عمانوئيل هو مثل أندريه فالوريس . ففي طفولتهما ، عايشا الحقد عن كثبٍ بحيث أصبحا قادرين على تحسُّسه من بعيد. وهذا هو فضلُهما ، باستثناء أنهما يميلان للاعتقاد بأن هذا الحقدَ عائدٌ وبقوةٍ لا تقهر . لقد تأثّرتُ بدوري كثيراً بأندريه . ولو أصغيتُ إلى نفسي واستسلمتُ لنزعاتي الحقيقية ، لمكثتُ في منزلي ألعنُ العالم وأتكهّنُ بحدوث الفيضانات . وعندما تقع الكارثة، فعلاً ، أتأرجح بين الفرح والحماس لأنني كنت على صوابٍ ، وبين الخجل لأنني فرحتُ . هيا يا كلارنس ، تحمّسي، ناضلي ،

ألفظي اللهيب ، فحتى لو أكّدت الأحداث شكوكي ، فستظلُّ أقل نبلاً وعظمةً من أكثر آمالك سذاجةً .

كان جوابها: " أحبُّكَ " ، آتياً من نيويورك إلى باريس ، ورَجعَ صدى الكلمات نفسها من باريس إلى نيويورك ، ثم أضفتُ قائلاً :

– وكوني على ثقةٍ أنه يمكنك الإعتماد حتى النهاية على تابعك سانشو بانسا..

كان هذا الوعد الذي قطعته لتوّي لبطلتي ، يتضمّن ، يجدر بي الإعتراف بذلك اليوم ، من الحب الأصيل بقدر ما يتضمن الخداع الأصيل ؛ فإذا كنت مستعداً لمؤازرتها حتى النهاية ، فذلك ليس بالطريقة التي قمتُ بها حتى الساعة .كنت حريصاً على البقاء إلى جانبها وحولها ، أغمرها باهتمامي ورعايتي ، أؤمّن لها ، وأقول ذلك دون أن أبتسم ، استراحة المحارب الوثيرة والمنشّطة ؛ وخلاصة القول، كنت مستعداً لأكون الرفيق والأخ والإبن والأب، والعاشق أكثر من أي وقتٍ مضى . غير أن هاجساً كان ينمو في أعماقي ، ويزداد إلحاحاً ، وهو الهروب من كل نشاطٍ عامٍ والعودة إلى مختبري وكتبي العلمية ومجهري وحشراتي العزيزة .

كنت أعرف أن التوقيت سيءٌ ، وأنها ستنظر إلى موقفي كخيانةٍ وانسحابٍ، ولا ريب أنها ستكون على حقّ . ومع ذلك ، وفي هذا اليوم ، إذ شعرت بنفسي مدفوعاً بهذا الهاجس العارم الذي تسبّبه الليالي البيضاء ، قرّرتُ الاتصال بمدير المتحف الذي اقترح عليّ المرور لمقابلته . وقد يقول قائلٌ إنني تسرّعتُ في الأمر لا سيما وأنني لم أحسم قراري بعد ، وأنا أقرُّ بذلك، غير أن المرء يجب أن يتعامل مع الرغبات كما يتعامل مع بعض الحشرات النادرة؛ فإذا صادفناها ، حتى ولو كنا نبحث عن شيءٍ آخر ، يجب تكريس الوقت الكافي لاصطيادها وتحديدها بالمصطلحات الخاصة بها، وإنْ أصبحت في غياهب النسيان بعد عشر سنوات .

قمت إذن بزيارة المتحف لأعلمَ المديرِ ، وهو زميلٌ قديمٌ لي ، أنني لا أستبعدِ العودة يوماً إلى مختبري ، ولأسمعه يقول لي : " إنّ مكاني محفوظٌ في "المنزل" دائماً، متى شئت وبالطريقة التي أريد" . لقدِ تواعدنا ، إذا صحّ التعبير، دون أن نحدّدَ موعداً . وهذا بالضبط ما أريده .

وإذ غادرت مكتبه ، شعرت بنفسي، فجأةً، منتشياً من الإثارة والسعادة ؛ وبدلاً من أن أجتاز الشارع فوراً للعودة إلى البيت ، تنزّهتُ في حديقة النباتات ، ويداي معقودتان خلف ظهري ، ساهم النظرات ، بخطى حثيثة ومسموعةٍ . وفي كل خطوةٍ ، كانت رغبتي تتأكد وتشتد صلابةً وتترسخ في داخلي كحقيقةٍ بقيت طويلاً مخنوقةً . كيف استطعت مخالفة طبيعتي إلى هذا الحدّ؟ وخوض غمار هذه الحياة العامة التي طالما اعتبرتها مستبدةً ووضيعةً ؟ كنت أريد دائماً أن أكون ، أمام مجهري وأمام الحياة ، من أولئك الذين يراقبون ولا يخضعون للتشريح . فبأية حيلةٍ غير واعيةٍ استبدلتُ موقعي بموقع الحشرة ؟ وبأية غلواء خفيةٍ تبخترتُ وتباهيت ؟

كلما ذرعتُ ممرّات الحديقة ، تسارع إيقاع خطواتي ، واحتدم غضبي ، ولكنني كنت متفائلاً بالغد . وما أن تسنح لي الفرصة ، سوف أعلمُ كلارنس وعمانوئيل بالأمر ، ثم ابدأ تحوّلي دون انتظارٍ ، وأغيّر مظهري، فأترك لحيتي تنمو كثّةً وقد غزاها المشيب لتتناسب مع هيئة العالِم العازم على أن يكون عالِماً ولا شيء غير ذلك ، كما يتلاءم مع شخصٍ في عقده الخامس.

وهكذا ، لن يتعرف إليّ أحدٌ لبعض الوقت ما عدا المقرّبين مني . لم يسبق لي أن خضعتُ دون عذابٍ لنظرة الآخرين، وهو ليس خوفاً من الحشود، فأنا أتحمّل التواجد في ساحةٍ تعجُّ بالناس ، إذا كنت فيها مجهولاً ، أما أن أدخلَ إلى مطعمٍ ، على سبيل المثال ، قد يتعرّف فيه شخصٌ واحدٌ إليّ، فهذا ما لا أطيقه ، وأخرج من هذه التجربة معذّباً في جسدي . وقد يسألني سائلٌ كيف استطعتُ إذن التدريس ؟ سوف أعترف بحيلةٍ لجأتُ إليها للتغلّب

على رهابي ، إذ كنت أسبق دائماً طلابي إلى الصف ، فأدخلُ قاعةً فارغةً ، أجلسُ في مكاني وأنشر أوراقي وأستقرُّ في الكرسي ، مستغرقاً في التفكير ، لا شيء قادرٌ على زعزعة رباطة جأشي . أما عندما يقتضي الأمر الدخول إلى مدرّجٍ واجتياز الممر تحت أنظار الجميع ، واعتلاء المنصة ، فقد كنت أعاني الأمرّين في كل خطوةٍ أخطوها ، وأعطي عشرة أيامٍ من حياتي لأتواجد في مكانٍ آخر . ومتى جلستُ في مكاني ، أستغرق وقتاً طويلاً قبل أن ألتقط أنفاسي وأتفوّهُ بفكرةٍ واضحة .

بكلمةٍ واحدةٍ أو بألف كلمةٍ ، لستُ ولم أكن في حياتي حيواناً عاماً . ورحتُ أهدهدُ وأعِدُ نفسي بأنني سأعود غداً كما كنت أصبو على الدوام ، محصّناً بلحيتي ، عابرَ سبيلٍ متأملاً ، تسحره أصغر الحشرات ولا يكترث البتة لأكبرها حجماً .

كنت أنتظر مناسبةً واحدة ، وللأسف كانت أليمةً ، وهي موت عمانوئيل لبيف الذي صادف قبل أسابيع قليلة من بلوغه التاسعة والثمانين ، في سكينة منزله الريفي .

لم يكن عمانوئيل " مخترعَ" الشبكة بما أن الفضل في إنشائها يعود لفالوريس ، غير أنه كان كذلك بالنسبة إلينا جميعاً . فبفضل هذا الحكيم ، تمكّنت الشبكة من الحصول على حقّ الكلام وإحراز النجاحات ، وأصبحنا من الآن فصاعداً نتعاطى مع منظّمةٍ ذات أبعادٍ عالميةٍ ، كان حضور "العجوز" فيها يمنحها القوة والتلاحم ؛ وبالتالي ، تطلّب رحيله إعادة النظر في هيكليتها وطريقة عملها . ففي غيابِ شخصيةٍ تتمتع بالمقوّمات نفسها ، اقتضى الأمر إنشاءَ مكتبٍ دوليٍّ يمكن لنوعية أعضائه وشهرتها سدّ الفراغ الذي خلّفه عمانوئيل ، وكذلك أمانةَ سرٍّ أكثر شمولاً مع مقرٍّ مركزيٍّ ومكاتبَ إقليمية ولجانٍ محليةٍ وموازنة .

لقد جرت هذه المراجعة – وأنا أوافق على أنها ضرورية على الأرجح – وسط سلسلةٍ من المفاوضات والمشاورات . وأعرف أن كل الأمور تجري على هذه الشاكلة في كافة الجمعيات البشرية ، وفي أقدس المحافل وأعظم المعاهد ...

غير أنني لم أكن أقوى على تحمّل ذلك ، كنت غائباً بعقلي وروحي . ومنذ رحيل عمانوئيل ، أقلعتُ عن حلق لحيتي . واعتقد الجميع ، حتى كلارنس وبياتريس ، أن تصرفي شكلٌ قديمٌ من أشكال الحداد .

غ

أمضيتُ صيف الضباب والعواصف الذي سبق عيد ميلاد بياتريس الخامس عشر وعودتي إلى المختبر في مزرعة أرافيس الواقعة في جبال الألب بمنطقة سافوا العليا حيث تملك عائلتي ، منذ أربعة أجيالٍ ، جزءاً من جبلٍ، وحظيرة مواشٍ ، ومغارةً وكوخاً للرعيان ، وكلها مهملةٌ ولا درب يؤدي إليها . وحتى عندما كان أهلي على قيد الحياة ، كانت المزرعة مهجورةً بالنسبة إلى مصايف أكثر إلفةً ؛ ولم أمضِ فيها طفولتي كلّها سوى بعد ظهرٍ قصيرٍ ، إذ كنّا في النواحي ، وأراد والدي التحقق من أن الأرض " لا تزال موجودةً " والحظيرة قائمةً ، لا شيء سوى ذلك ، ولا أعتقد أنني أحتفظ عنها بأيّ ذكرياتٍ .

أيُّ حافزٍ مفاجيءٍ حملني على اعتبار هذه الأرض الباردة موطناً ضائعاً ؟ أيُّ صوتٍ همس لي ذات ليلةٍ أنني هنا ، من بين كل الأماكن ، سوف أرسل لحيتي ، وأنني هنا ، في أرافيس ، بين الحظيرة والصخور ، سوف أبحث عن الهدوء والسكينة عندما تحين الساعة ؟

لم يرافقني أحدٌ ، لا كلارنس ولا بياتريس ، فقد فضلّت كلتاهما ، ولكن كل واحدة على حدة ، الاسترخاء اللذيذ على الشاطيء بدلاً من وعورة جبالي . وفي الواقع، كنت مجبراً على النوم في سريرٍ بدائيٍّ بينما قام عمّالٌ، استأجرتهم على عجالةٍ ، بتحويل الحظيرة إلى ما يشبه المنزل ، ودرب الحمير إلى طريقٍ ممهدّةٍ لمرور السيارات . لم أطلب منهم القيام بتصليحاتٍ كبيرةٍ ، عاقداً العزم على الاضطلاع شخصياً ، على مرّ السنين، وبلمسة الشخص الهاوي ، بالترتيبات الحميمة .

لم أعد أطيق بكل بساطةٍ يديّ الحضريّتين وسحنتي الشاحبة . وربما اعتقد البعض ، وحتى المقرّبين مني ، أنني أجتاز إحدى هذه الأزمات التي

يصفها العرّافون الحديثون بسلسلةٍ من الأسماء الإغريقية ؛ وإذا ما صدّقناهم ، فكلُّ مرحلةٍ من مراحل الحياة ، وكلُّ مغامرةٍ من مغامرات الروح ، هي دليلٌ على مرضٍ يتطلَّبُ علاجاً ورعايةً وابتهالات . كانت كلارنس تقول ، عندما تعارفنا ، إنني إنسانٌ متقادمٌ أعيش خارج الزمن . ولم تكن مخطئةً أبداً في تشخيصها . فأنا أشعر بحنينٍ إلى تلك الحقبة التي عشتها في الكتب فقط ، والتي كان المرء لا يزال قادراً فيها على التحدث عن تعاسة الروح، أو الشعور بالضيق دون أن يتهمه الآخرون بالخَبَل.

وبالطبع ، فقد اشتقتُ لابنتي وزوجتي في ذلك الصيف ، غير أنني كنت أكثر اشتياقاً لعشب الدروب ورائحة الأرض الحيوانية والوحدة وسكينة قمم الجبال؛ أتأمل الجبل الأبيض أمامي ساعة الشروق ، حين تكون الطبيعة عبارةً عن ألوانٍ باهتةٍ وساكنةٍ ، وأراقبه ليلاً ، عندما يختفي القمر ، ويكون بياضه رمزاً للخلود .

في الليل الدامس بمزرعة أرافيس ، كلُّ الأصوات هي حشراتٌ ساعيةٌ وراء التناسل ، وكنت أستمتع بتمييزها كما يعدُّ البعض النجوم في السماء ؛ أما نومي، فكان قليلاً لا تشوبه الرغبة .

في أرافيس ، هذا الصيف ، كانت علاقتي اليومية الوحيدة باضطرابات العالم البعيدة هي مذياعٌ مبحوحٌ متهالكٌ ، أكل الدهر عليه وشرب، أديره في الصباح الباكر عندما أكون بانتظار العمال ، وأمامي جبنةٌ طازجةٌ مغمّسةٌ بالعسل ومزيّنةٌ بحبّات التوت البرّي .

في هذه الأجواء ، سمعتُ ، في أواخر تموز ، بمأساة نايبوتو . فالمآسي هي بالنسبة إلىالتاريخ ما تمثِّلهُ الكلماتُ للفكر ؛ لا نعرف أبداً إذا كانت هي التي تقولبُهُ أو تكتفي بالتعبير عنه . ولأن الصدف شاءت أن أكون مرةً شاهدَ عيانٍ مصدوماً ، كنت أعرف بأن ثوراتٍ محدودةً وعديدةً اندلعت ، وأعلنت جميعها بأسلوبها الخاص المأساة، غير أن هناك للأسف ، سقفاً

للضجيج لا تُسمع الأصوات بعده ، ولا يُحسب عدد القتلى ، ولئن تحدّثتُ عن الأمر بمرارةٍ ، فلأنني أظلُّ مقتنعاً بأن الداء كان قابلاً للشفاء ولفترةٍ طويلةٍ ، ولكنه قوبل بالإهمال طالما بقي على حاله .
ها أنا أنساق مرةً أخرى وراء الرغبة الخَرِفةِ والمزعجة بوعظ أبناء عصري، علماً أنني عاهدت نفسي على الالتزام بالوقائع...

وها أنا أعود إليها : ففي ٢٧ تموز ، اندلعت انتفاضةٌ في حيّ موتودي الذي تقطنه الجماعة الإثنية التي تحمل نفسَ الإسم . وكانت الاتهامات التي أطلَقَتَها قد أصبحت مألوفةً وطقوسيةً : " تعقيم " ، "تمييز عنصري " ، "خصي"، "إبادة جماعية". وأذكُرُها بين مزدوجين لأشدّدَ على تحفُّظي إزاء هذه العبارات التي تُلقى جزافاً ، ولكنه تحفظُ مشاهدٍ يعيش بمنأى عن الأحداث ؛ ففي نايبوتو ، كانت كلُّ كلمةٍ تدوي كضربة إزميلٍ . كانت نقمة الأهالي التي شهدتها على ضفاف الناتافال لا تزال خجولةً وبريئةً ، واستهدفت الواجهة المجدورة لمستوصفٍ ريفيٍّ . كيف لتجربتي القصيرة والمضحكة أن توضّح لي ما يجري في نايبوتو ؟ فهل للسعةِ نحلةٍ على إصبعٍ فضوليٍّ أن تعطي فكرةً واضحةً عن ثورة قفيرٍ تعرّض للهجوم ؟

قيل إن الانتفاضات نبعَت من ألف زقاقٍ ، وتدفّقت نحو وسط العاصمة ، كاسحةً كلَّ شيءٍ في طريقها ، مضرمةً النيران في الفيلات والمراكز التجارية والمصارف والسفارات . وعلى مشارف القصر الرئاسي ، أطلق جنودٌ مرتاعون النار على الحشود ، فسقط المتمردون بالمئات ، غير أن غيرهم تدفقوا من الشوارع الجانبية ، وتسلّقوا سور القصر بعد أن حطّموا البوابة الصغيرة المدعوّةَ " مدخل البساتنة " . عَبَرَ أفراد قبيلة موتودي هذه البوابة . كانوا مسلّحين بالعصيّ والسكاكين وبعض المسدّسات أو البنادق ، فاجتاحوا القصر وانتشروا في قاعاته ، وقتلوا رئيس البلاد الذي يرأس حفل استقبالٍ مع أفراد عائلته وأقاربه ومعظم المدعوين . وقبل بزوغ الفجر، كان

قد تعرّض للنهب والحرق كلٌّ من مبنىالإذاعة والتلفزيون الرسمي ومركز الإتصالات الدولية المدشن حديثاً فضلاً عن معظم المباني الحكومية.

وما أن أذيعت الأنباء حتى تشتّت الجيش ، وانضمّ كل ضابطٍ وملازمٍ أو جنديٍّ بسرعة إلى إقليم المجموعة الإثنية التي ينتمي إليها ، وهو المكان الوحيد الذي يشعر فيه بالأمان . وتحوّلت نايبوتو إلى رقعةِ شطرنجٍ مؤلفة من معازل متغطرسةٍ ، واستمرّت فيها المذابح دون هوادةٍ ، وانتقلت شيئاً فشيئاً إلى كل الأقاليم .

ما أثار هولَ العالم الخارجي هو أن آلاف السياح من كل الجنسيات كانوا منتشرين في أرجاء البلاد ، وقيل إن المئات منهم جُمِعوا في أحد الفنادق الكبرى في قلب العاصمة . فما السبيل لإغاثتهم ؟ لقد انعدمت سلطات البلاد، وانقسمت القوى النظامية إلى عصاباتٍ متناحرةٍ أو ، حسب تعبيرٍ قاسٍ لأحد المعلّقين في تلك الفترة ، " عادت إلى بدائيتها " ، وأقفلت المطارات وانقطعت الاتصالات نهائياً مع العالم الخارجي ، ولا شك أن معظم السفارات تعرّضت للهجوم .

كانت الحكومات تلزم صمت الحداد ، والعواصم تتشاور بشأن الموقف الذي يجب اتخّاذه .

هل تتدّخل ؟ وفي أيّ نقاطٍ من هذه المحرقة الهائلة ؟وبأيّ وسائل ؟ وضدّ من ؟

هل توجّهُ تحذيراتٍ ؟ ولكن من هم المسؤولون الذين لا يزالون في مناصبهم أو على قيد الحياة ليستمعوا إليها ؟ هل تتريّث وتكتفي بالمراقبة ؟ ولكنّ كلّ ساعةٍ تمضي قد تعني موت مئات الرعايا الأجانب ...

وبالطبع ، كانت كل دولةٍ تفكّرُ قبل أيّ شيءٍ برعاياها . وهذا ليس نقداً ، فأنا أكتفي بهذه الملاحظة ، وهي أنه في الشمال كما في الجنوب ، يهتم المرء، قبل كلّ شيءٍ ، بمصير مجموعته الإثنية التي ينتمي إليها ، وهكذا لا

أرجم أحداً بالحجارة . وأنا نفسي ، عندما سمعتُ هذه الأنباء ، ماذا فعلتُ أوّلاً ؟ سارعت للإتصال بكلارنس عند أهلها في سيت لأتأكّدَ من أن امرأتي الصحافية لا تنوي القيام بمشروعٍ جنونيٍّ والذهاب لمراقبة المذابح عن كثب!

ف

من بين كل الانقلابات الدموية التي عصفت بدول الجنوب خلال العقود المنصرمة، ما الذي جعل من مأساة نايبوتو تلك العلامة الفارقة ، ذاك المنعطف ، " سارايبفو القرن العشرين" كما وصفها أحد المؤرّخين المعاصرين؟

كان الانهيار المباغت وغير المتوقّع لكلّ أشكال السلطة ، ودوّامة العنف والعداء الصريح للشمال ولكلّ ممثّليه ورموزه ،كان كلُّ ذلك، يثبط العزائم ويشتّت الأفكار بالطبع ؛ ولكنّ الأسوأ هو أن بذور المأساة كانت موجودةً كلها دون استثناءٍ وبنفس إمكانات الفظاعة والجنون العشوائي في عشرٍ وعشرين ومئةِ عاصمةٍ أخرى في العالم مثل نايبوتو .

في كلّ مكانٍ ، عاث هذا "التعقيم" فساداً ؛ وفي كلّ مكانٍ ، ظهرت بوادر الانهيارات الكبرى ؛ وفي كلّ مكانٍ ، تصاعدت بالطبع النقمة نفسها ضد الشمال و"عملائه" في الداخل ، وانتشرت الاتهامات التي لن يعتبرها مراقبٌ محايدٌ مقنعةً، غير أن الجماهير لا يمكن إقناعها بل تأجيج غضبها: كانت النقمة مشروعةً ومبرّراتها الظاهرة قائمةً ، وهذا يكفي . وكان ذلك كافياً بالفعل .

إنه لمن الجائر عدم القول إن أشخاصاً كالطبيب فولبو ومنافسيه قد زادوا تأزيم وضعٍ، هو أصلاً ، ومنذ أمدٍ بعيدٍ ، متدهورٌ تدهوراً مطلقاً . فهم لم يخترعوا لا البؤس ولا الفساد ولا التعسّف ، ولا الأشكال المتعدّدة من العنصرية، ولم يحفروا بأيديهم هذا " الصدع الأفقي" بين الشمال والجنوب ؛ وربما بحثوا بعقلهم المشعوذ المريض عن حلولٍ لهذه الشرور غير أن اختراعهم كان الفتيل الذي أشعل النار .

عندما أذكرُ المقارنةَ مع ساراييفو ، أدركُ أنني أستعيد لصالحي طريقةً للتفكير شائعةً وكاذبةً . فمن يريد التحدُّث عن إحدى الحروب يجد نفسه مرغماً على تأريخ اندلاع المعارك والإشارة إلى الحدث الذي أطلق الشرارة الأولى . أما أنا الذي أدور في فلك اختصاصي العلمي بدلاً من فلك التاريخ، فهذا الترابط المنطقي لا يساعدني أبداً على فهم الأمور . وأنا أميل بطبعي للاعتقاد بأن الانقلابات الخطرة تتهيَّأ تحت السطح كالكوارث والأورام الخبيثة، فهي لا تنشأ بل تبرز للعيان، والوضع لا يختلف بالنسبة للحروب .

نعم ، لا أنكر أنني فكّرتُ مرةً أخرى باليرقانات . فهذا هو العالم الذي خبِرتُهُ ، وفيه أتلمّس الطريق ، وأجد بعض اليقين النادر ، فقد وُلِدَت وحوش الحاضر بالأمس ، ولكن كم من الأشخاص رأوا صورتها الحقيقية تحت القناع ؟ لا شيء في الواقع المريع الذي يشهده قرن شيخوختي كان مستحيلاً، وعصيّاً على التوقعات والتكهنات ، وحتمياً منذ خمسين أو تسعين عاماً خلت . ومع ذلك ، لم يتم التفكير بأي شيءٍ أو التكهن به أو تفاديه .

ولكن لِمَ العودة إلى الأصول والأسباب ؟ لِمَ السعي لمعارضة المنطق الظاهري؟ من الأفضل سرد الوقائع .

بعد ثلاثة أيامٍ من المخاوف والشكوك ، تأكّدت أسوأ الإشاعات . نعم ، كان التناحر مستمراً في نايبوتو وسائر أرجاء البلاد ، بالمدافع والسلاح الأبيض؛ وكذلك، لقي المئات من الأجانب مصرعهم ، من ديبلوماسيين وسوّاحٍ ومستوطنين ورجال أعمال ؛ ولكن، لم تظهر مؤشرات على أن النظام سوف يستتبُ قريباً . وقد توعّدت السلطات في واشنطن ولندن وبرلين وموسكو وباريس وغيرها من العواصم : " سوف ينال المجرمون عقابهم" ، هذا إذا أمكن تحديد هويّةِ هؤلاء المجرمين أوّلاً .

وصار المرء يتحسّر على الفترة التي كان الشمال فيها يتبع سياسة مزدوجةً، فيلجأ إلى رعاية قوة عظمى وأسلحتها وخطابها لشنّ هجومٍ على قوة

عظمى أخرى . لم يقتصر الطابع الوحشي لمأساة نـايبوتو ، والـذي لـن يمحـى من ذاكرتنا ، على تفاصيل المجازر أو حتى صور الشهادات التي بدأت تَرْشَحُ إلى الخارج ، بل ذلك الانطباع الذي أعطاه العـالم بأسره بـأن لا حـول لـه ولا قوة ، كما لو أن التاريخ قد بدأ فجأةً يتحدّث بلغةٍ غامضةٍ ، انبعثت مـن عصـرٍ آخر ، أو حطّت على الأرض من كوكبٍ غريب .

أدركُ اليوم هذه الظـاهرة بصـورةٍ أفضـل. فعندمـا يشـعرُ شـعبٌ بـأن بقاءه مهدّدٌ ، نشهد أحياناً انهياراً مباغتاً لكلّ القوانيـن الاجتماعيـة التـي تتحكّم عادةً بسلوكه. وما أكثر الشعوب والقبائل التي كـانت تشـعر بنفسـها فـي طـور الاندثار ! فأيُّ حواجز كانت قادرةً على الحدّ من جنونها ؟

كانت نايبوتو مجرّد محطّةٍ على درب الجلجلـة الطويـل . فمـا كـادت تستعيد بعض النظـام ، وتعـزل كـل مجموعـةٍ إثنيـةٍ فـي إقليمهـا الخـاص حتـى اندلعـت كـوارث فـي منـاطق أخـرى وفـق النمـوذج الدمـوّي نفسـه . ويتحـدّث المؤرِّخون اليوم عن "ظاهرة نايبوتو المرضيّة " ، أما في ذلـك اليـوم ، فكـانوا يتحدّثون عن "عدوى". وهذه الكلمة الأخيرة غير ملائمة ، فعندما تفقس بيـوض العقرب الواحدة تلو الأخرى ، لا يسعنا الحديث عن عدوى بكل معنى الكلمة ، غير أن ظاهرة محاكاةٍ قد حدثت بدون شكٍّ، وكان جليفـر سـيلاحظها بالتـأكيد، لو عاش في عصرنا . فعندما يظهر أحـد الأقـزام مـن المدافعيـن عـن الطـرف الدقيق للبيضة على مليون شاشة تلفزيون ، وهو يذبح قزماً آخـر مـن أنصـار الطرف الأدقّ ، يشعر كلُّ الأقزام المناصرين للطرف الأدقّ في العالم بالتهديد، ويكتشف العديد من المدافعين عن الطرف الدقيق للبيضة نزعتهم الإجرامية .

ألا يعرف الإختصاصيون المحاكاة التي يقوم بها المهووسون بإضرام الحرائق لأعمالهم والتي تضخّمها وسائل الإعلام ؟ فمشهد هـذه الحشـود التـي تطالب بموت " المعقّمين" لا يمكن أن يمـرَّ مـرور الكـرام لـدى الشـعوب التـي تعاني البلاء نفسه .

وبعد نايبوتو ، على من الدور ؟ كان بعض العقول المتبصّرة أو الحزينة يستقرىء في كلّ مكانٍ تقريباً " أعراضاً " و" مؤشراتٍ" ، أو "بوادر" أو "علائم"، وأذا ما صَدَقُوا ، فلن يُكْتَبَ للعديد من الدول النجاة من الداء المتفشّي .

لقد أبعدتني المأساة، لفترة من الوقت، عن كلارنس . كانت لدينا الرؤية نفسها للمخاطر المحدقة ، ولكنّها رأت فيها أسباباً جديدةً للنضال بينما كنت أتوق، أكثر من أي وقتٍ مضى ، للعودة إلى حياتي في المختبر . عندما كان للكلام من معنى ، قلتُ كلماتٍ قليلةً ، وعندما منحتني الحكمةُ دوراً ، صعدتُ إلى خشبة المسرح . ومن الآن فصاعداً ، صرنا نعيش في زمن الجنون ، وكنتُ فيه مجرّد دخيلٍ ، تحفةٍ أثريةٍ ، طللٍ وظاهرةٍ خارجةٍ عن الزمن – فلم المخادعة ؟ لماذا التظاهر بالتصدّي لسيل الأحقاد عندما لا يخفي الأقوياء عجزهم ؟

كان خطابي يلائم طباعي وخطاب كلارنس ينسجم مع طباعها . وكنت معجباً بها وهي لا تلومني ، نتناقش دون تشنّجٍ ، غير أن دروبنا افترقت .

عقدت هي العزم على تأليف "لجان العقلاء" في أكثر المناطق توتّراً ، لجان تكون مرتبطةً بالشبكة الأصلية وتمثّل بفضل تأثيرها في الرأي العام والحكّام ، والاحترام الذي يحظى به أعضاؤها ، " حواجز" للحدّ من تصاعد العنف . وقد حملت هذه المهمة العالمية الأبعاد كلارنس على التنقّل المستمر بين القارات، ولم تعد باريس ، في أفضل الأحوال ، أكثر من محطّةٍ كثيراً ما تحطُّ فيها عصا الترحال. أما أنا فقد اضطُررتُ ، من جهتي ، وفي الفترة نفسها ، للقيام بانتقالٍ من نوعٍ آخر تماماً، وربّما بدا مضحكاً بالنسبة للقارىء اليوم ، ولكنّه تطلّب مني مجهوداً مستمراً للتأقلم .

فعندما أكّدتُ لمدير المتحف قراري الحاسم بالعودة إلى "المنزل"، كرّرَ لي أنني سأنزل فيه على الرحب والسعة . ولكنّه أضاف: بدون أن يضمّن كلامه شرطاً ، "أنه من الأنسب له ولزملائي لو استطعتُ القيام بتحويل طفيفٍ في اختصاصي " وتحوّلتُ، كما فعلتُ حتى الساعة ، من الاهتمام بالحشرات المغمدة الأجنحة ، إلى القبول بالإشراف لسنةٍ أو سنتين على فريقِ أبحاثٍ حول الحشرات القشريّة الأجنحة.

" الفراشات" ؟ " . كانت ردّةُ فعلي الأولى هي التعجُّب وشيءٌ من الازدراء. لستُ أقلّ إنبهاراً من غيري أمام بهاء تلك المخلوقات والأناقة في رفرفة أجنحتها؛ فهي تتمتّعُ في بعض البقع المضيئة بعظمةٍ حقيقيةٍ . وكلُّ ما في الأمر أنني آثرتُ، دائماً، دراسةَ كائناتٍ أقلّ سحراً تحت العين المجرّدة .

" نعم ، الفراشات" ، أجاب المدير ، وكانت هذه التسمية الشائعة ترنُّ في فمه وفمي ككلمةٍ سوقيةٍ مصحوبةً حكماً بنحنحةٍ مزدرية : " أقترح عليك ذلك لأن لديَّ مركزاً شاغراً ، ولا ألحُّ عليك بقبول العرض فأنا أعرف أن أشخاصاً أصغر سناً منّي ومنك قد يتردّدون في التحوّل عن موضوعات بحثهم الأثيرة". لم يكن مصرّاً على موقفه ، ولكنّهُ ، بدون أن يبدي إصراراً، وضعني خفيةً أمام التحدّي والموافقة في هذه السنّ المتقدّمة على خوض غمار مجالٍ جديدٍ من الأبحاث . أضاف:" أدركُ تماماً أنّك كنتَ ، في الثلاثين من العمر، مرجعاً في مبحث الحشرات المغمدة الأجنحة ، ولا تزال بالرغم من سنوات الانقطاع عن العمل . وما عليك سوى القول، فأعهد إليك، من جديد، بهذا الاختصاص". وأوضح لي، بنبرةٍ خاليةٍ من أية محاولةٍ للإقناع، بأنّ الشخص الذي تسلّم المنصب خلال غيابي ، على استعدادٍ للتنازل عنه بكلّ طيبةِ خاطر.

لقد فهمتُ مقصَدَهُ : " تريد الفراشات ، فليكُنْ ! " لم أشأ أن تسبّبَ عودتي تغييراً في المناصب المكتسبة . ثم ، فقد أثار التحدّي حماسي ، وشعرتُ بنفسي قادراً على استكشاف آفاقٍ جديدةٍ ومتعطّشاً لإثبات ذلك .

قد يخفّف البعض من غلوائي ،فأنا لا أعتزم تغيير مهنتي ولا حتى اختصاصي ، إذ كنت أعمل دائماً في مبحث الحشرات . غير أن الشبه بين الجعران وحشرة الأستياناكس يكاد يضاهي الشبه بين العُقاب والقرد . وخلال أبحاثي في علم الحشرات ، درستُ، بالطبع، كل الفصائل الأساسية والفصائل الثانوية من حرشفيات الأجنحة إلى مزدوجة الجناح وعصبيات الأجنحة أو غشائيات الأجنحة . غير أنني مررتُ عليها مروراً سريعاً منذ زمنٍ بعيدٍ . وقد سبق لي أن قلت:" إن الحشرات المُغْمَدَة الأجنحة التي تضمُّ ثلاث مئة وستين ألف فصيلةٍ كانت تشغلني بما فيه الكفاية طوال الوقت" ! وقلت لنفسي:" سأقبل التحدّي وأعيد تأهيل نفسي ، ولو تطلّب الأمر الإنغماس من جديد في أمهات المراجع بدءاً من مؤلّفات لينّيه ".

وقد شاءت الصدف أن أتعرّفَ إلى الفراشات الأورانية خلال قراءاتي. ولا شكّ أنني سمعتُ عنها في إحدى المحاضرات أيام الدراسة ، فالإسم لم يكن غريباً عني ولو أنني لا أعرفُ شيئاً عن هيئتها وعاداتها .

إنها فراشةٌ كبيرةٌ كراحة الطفل ، مخطّطةٌ باللون الأخضر المعدني والأسود البرّاق، وأحياناً الأحمر الموشّى بالبرتقالي ، ومن الخلف بشريطٍ أبيض ، وهي تعيش في مناطق عديدة من العالم ، من المحيط الهادئ إلى مدغشقر، ومن الهند إلى الأمازون . أما الفصيلة التي استقطبت اهتمامي فكانت تلك التي تسمّى " أورانيا ريفايوس" والموجودة في أفريقيا الإستوائية خاصةً .

لقد لاحظ العلماء الذين اهتموا بهذه الفراشة ظاهرةً مذهلةً وفريدةً . ففي أيامٍ محدّدةٍ من السنة ، تحتشد عشرات الآلاف من هذه الفراشات في أماكن تحاذي فيها الغابةُ المحيطَ ، ثم تحلّق رأساً على علوّ مئات الأميال البحرية حتى تتهاوى من الإعياء وتغرق بعد أن لا تجد جزيرةً في الأفق لتستريح فيها .

إن الإناث تضع بيوضها في الغابة قبل موسم الهجرة ممّا يسمح ببقاء الفصيلة، غير أن معظمها تحلّقُ وهي لا تزال حبلى وتقود ذريّتها معها إلى الانتحار الجماعي .

لقد بهرني تحليق الفراشات الأورانية منذ اللحظة التي وقعت عيناي على تقارير الدراسات الأول . فتساءلتُ ما إذا كانت هذه الرحلة نحو العدم تشير إلى " عطلٍ " في غريزة البقاء ، أو خللٍ وراثيٍّ ، أو " سوء اتصال" في الاشارت المُرمَّزة التي يبدو أنها تتحكّم بهذه الهجرات ، والفرضيات لا عدّ ولا حصر لها .

إنها لحظةٌ مباركةٌ في حياة الباحث عندما يكتشف شغفاً جديداً . وكنتُ بحاجةٍ إلى هذا الشغف في هذه المرحلة من حياتي ، وأعجبتُ بموضوع البحث بل ونجحتُ ، دون عناءٍ ، في إقناع الطلاب الخمسة عشر الذين أشرفُ على أبحاثهم بتخصيص بعض الوقت للفراشات الأورانية . وأغرَيْتُهُم ، دون أن أقصد خداعهم ، برحلةٍ استكشافيةٍ محتملةٍ إلىكوستاريكا . غير أنني لم أُوفّق في الحصول على الأموال اللازمة لتغطية كلفة القيام ببعثةٍ دراسيةٍ حقيقيةٍ . وحتى لو تجاوزتُ هذه العقبة ، فكيف لي أن أبتعد عن باريس – أي عن بياتريس – طوال الأشهر التي تتطلّبها الأبحاث ، لا سيما وأن كلارنس غالباً ما تكون مسافرةً بدورها .

في بعض الأحيان ، أتحسّرُ لعدم القيام بهذه الرحلة . ولكنّ التقدُّمَ في السنّ يساعدني على مواساة النفس والقول إن الدراسة على الأرض كان بإمكانها أن تكون مفيدةً ولكن مملّةً ،وأنها لن تضيف شيئاً ، دون شكٍّ ، إلى الحقائق المعروفة أصلاً . فقد كان من الممكن والمشروع لفريق الأبحاث الذي أديره الإطلاع على الدراسات التي قام بها باحثون آخرون لاستيعابها والسعي لتأويلها .

لقد تسنّى لنا صياغة بعض الفرضيات ، فأدرجناها في مونوغرافيا لم تشأ الظروف أن أنشرها وما زالت قابعـةً في دُرْجي . وقد اعتبرتُ فيها أن سلوك الفراشات الأورانية لا ينجم عن فقدان غريزة البقاء بل ، علـى العكـس، عن رواسبَ غريزةٍ قديمةٍ لا تزال تقود هذه الحشرات إلى مكانٍ كانت تتكـاثر فيه فيما مضى ، ربّما يكـون جزيـرةً قد اختفت . وبالتـالي ، يبدو انتحارها عملاً لا إرادياً بسبب عدم قدرة غريزةِ البقاء التكيُّف مع الواقع الجديد . وقـد أعجب طلابي بهذه الآراء ، غير أن بعض زملائي أعربوا عن شكوكهم حيـال صياغتها .

لقد شغلت الفراشات الأورانية معظم وقتي في أوّلِ سنتين من حياتي المهنية التي عدتُ إليها بعد انقطاع . أما بقيّةُ الوقت ، فقد كرّسـتُهُ لمزرعـة أرافيس حيث كانت بياتريس ترافقني أحياناً وتشارك في أعمال الترميم . كـان المـنزل يتخـذ شـكلاً وروحـاً بـالرغم مـن وسـائل الراحـة البدائيـة ، والاسـتثناء الوحيد الذي قبلتُ به هو تزويد المنزل بجهازٍ مريحٍ يسـمح عـن بعـد بتشـغيل التدفئة ، وذلك لتفادي الشعور المزعـج الـذي يثـيره الدخـول إلـى مكـانٍ فسـيحٍ وبارد . ولم يكن يمضي أسبوعان دون أن أقصد المكان ، رغم الثلج المـتراكم على الطرقات الذي لم يثبط همتي وعزيمتي .

لم تزرْ كلارنس المكانَ أبداً، غير أننـا قرّرنـا، نحـن الثلاثـة، قضـاء شهرٍ كاملٍ معاً فـي الصـيف ؛ شـهر هـادىء يطيـب فيـه المكـوث فـي البيت والتمتع بالاستقرار والاستجمام . كانت هذه الكلمات توقظ لدى صديقتي رغبـةً ناعمةً سرعان مـا ترغـم نفسـها علـى كبتهـا . وأحيانـاً ، فـي عتمـة غرفتنـا ، تعترف لي بتعبها وسأمها ، ولكنها اختارت أن تكون مفصلاً ، ولا تشعر بأنـه يحّقُ لها التوقف حتى للتنعُّم بقسطٍ من الراحة . ولم تكـن تريـد، بـأيّ ثمـنٍ، أن يعيق، أيُّ ضعفٍ، مسيرتها .

استطعت ،' بالرغم من كلّ شيء، انتزاع وعدٍ منها بقضاء هذا الشهر الهادىء، مبرِّراً إلحاحي بأن ابنتنا لن تقبل عمّا قريبٍ قضاء الإجازة مع "أبويها العجوزين" ، وأن من واجب أمِّها البقاء بقربها وتكريس المزيد من الوقت للتحدُّث معها والإصغاء إليها . وبالرغم من احترامي للإلتزام الذي أخذته كلارنس على عاتقها ، وأسلوبها في تنظيم وقتها ، قرَّرتُ أن أمارس كل الضغوطات اللازمة لإرغامها على الوفاء بوعدها .

لم أضطر للأسف للجوء إلى قوة تأثيري ولا إلى قدرتي المشكوك فيها على الإقناع، لأنَّ يداً مجهولة ستقوم عبر أكثر الأساليب فعاليةً بتقرير الأمور بدلاً منّا .

ق

ذهبت كلارنس في جولةٍ أفريقيةٍ بعد أن حسمت أمرها في اللحظة الأخيرة، وقرّرت فجأةً زيارة نايبوتو لمدة يومين وحرصت على عدم إعلامي بذلك . وفي الواقع ، لم تشهد المدينة منذ شهرين اقتتالاً، غير أن الوضع فيها لم يزل مضطّرباً و"متقلّباً ".

كانت صديقتي تريد الاتصالَ مجدّداً بهذا البلد ، وإعادةَ الزخم إلى مكتبٍ لشبكة العقلاء تشكّلَ هناك ، وكان عاجزاً عن إسماعِ صوته . وفي الوقت نفسه ، تأملُ لقاءَ بعض الأشخاص الذين تعرّفت إليهم في رحلاتها السابقة ، لا سيَّما نانسي أوهورو ، صاحبة " النزل" التي تصادقتْ معها خلال إقامتنا منذ اثني عشر عاماً خلت.

وإذ حطّت طائرتُها في المطار حيث سادَ شيءٌ من النظام ، واقتصر الروّاد فيه على المتسوّلين ، دُهشت لاضطرارها لأن تحدّد المكان الذي يقع فيه النزل لسائق سيارة الأجرة الشاب . كان عليها أن تشعر بالريبة والحذر في تلك اللحظة ، وأن تزداد ريبتُها حين أخبرها السائق بأن الطريق التي تقود إلى النزل أصبحت مهجورةً .

كانت السيارة على بعد دقيقتين من بلوغ الهدف عندما اعترضها رجالٌ بلباسٍ عسكريٍّ ، فاضطر السائق للتوقّف قرب حاجزٍ بدائيٍّ ، عبارة عن غصنٍ وبرميلٍ مبقورٍ وكومةٍ من الحجارة ولا سيما بنادق متأهبة . كان الأمر يتعلّق، دون شكٍّ، بزمرةٍ من الجنود الذين تحوّلوا إلى أفّاقين وراحوا يعيثون الفساد عبر البلاد . لقد أفادت الصحف الأجنبية أنهم أوقفوا نشاطاتهم قرب العاصمة ، ولكنَّ هذه المعلومات لم تكن على ما يبدو دقيقةً.

أمرَ الرجال كلارنس بالترجّل من السيارة . وشاءت الصدف أن ينتمي السائق إلى المجموعة الإثنية نفسها التي ينتمي إليها اللصوص الذين

تركوا لـه السيارة، مكتفين "بمصـادرة" حقـائب الراكبـة . وعندمـا أحتجّـت كلارنس وعلا صوتها وتوعّدت، بل وانـتزعت مـن أحـد المعتدين حقيبـةَ اليد التـي تحتـوي علىجـواز سـفرها ونقودهـا ومفاتيحهـا وأوراقهـا ، فتلقّـت علـى مؤخّرة الرأس ضربةً بعقب البندقية طرحتها أرضاً فاقدةَ الوعي .

جرّها السائقُ إلى السيارة ، وبعد مفاوضـاتٍ صبـورةٍ، حصـل علـى الإذن بمتابعة طريقه .

ولحسـن الحـظّ ، كـانت نانسـي أوهـورو لا تـزال موجـودةً ، بدينـةً ومشرقة المحيّا كعادتها ، بالرغم من تصدُّع نَزلِها الذي لـم يتجاسـر أيُّ زبـونٍ علـى طـرق بابـه منـذ وقـتٍ طويـل . فقـامت بنقل كلارنـس إلـى مشـفى تحـت إشـراف الصليـب الأحمـر حيـث شَخَّصَ الأطبـاء إصابتَهـا علـى أنهـا ارتجـاجٌ دماغي .

عندمـا وقـع الحـادث ، كـانت نانســي قلقـةً علـى مصـير الضحيـة ومنهمكةً في إسعافها فلم تفكّر بالإتصال بـي . وعـلاوةً علـى ذلـك ، لـم تكـن تعرف عنواني، ولم تجد أيةَ ورقةٍ مع كلارنس تدلُّ عليه .

تابعتُ حياتي المعهودة طوال خمسة أيام دون أن ينتابني أيُّ حـدسٍ أو يعتريني القلق ، لا سيّما وأن صديقتـي كـانت معتـادةً البقـاء لفـتراتٍ طويلـةٍ دون أن تعلمني بأخبارها .

بعد ذلك ، وصلتني رسالةٌ من جنيف مسجّلة علـى الهـاتف، وتحديداً من مقرّ الصليب الأحمر ، مع رقم هاتفٍ وتشديدٍ على ضرورة الإتصال .

ما كانت أسـوأ لحظـة ؟ لـم تكـن تلـك اللحظـة التـي أُبلِغتُ فيهـا عـن الاعتداء الذي تعرّضت له كلارنس أو عـن خطـورة حالتهـا . لا ، فهـذا كنـت أخشاه وأتوقّعه عندما اتصلوا بي ، وكانت شفاهي تتمتمُ فقط صلاةً محمومـةً : "أرجو أن تكونَ على قيد الحياة ! ". ولم تكن أسوأ لحظةٍ عندمـا رأيتهـا ممـدَّدةً ومحاطةً بآلاتٍ مضيئةٍ تحدثُ ضجيجاً . لا ، كانت أسـوأ لحظـةٍ حيـن اتصلتُ

على الرقم في جنيف ، وانتظرت سماع الهاتف يرنُّ أربع مرات ، ثم سمعتُ أحدهم يرفع السمّاعة واضطررت لتهجئة إسمي منتظراً صدور الحكم :

– أريد أن أبلغك نبأً خطراً ، ولكنّ الشخص المعنيّ لا يزال على قيد الحياة، وحالته تراوح مكانها . أنتَ صديقُ كلارنس ، أليس كذلك ...

– كانت حيّةً ، حيّة . هذا كلُّ ما كنت أرجوه من السماء .

أعلمني الصوت بكلماتٍ مقتضبةٍ ما أصابها ، والإسعافات التي تلقتها حتى الساعة. كان الصليب الأحمر ينوي ترحيلَها إلى باريس في غضون ٧٢ ساعة .

– لو كانت المهلةُ أطولَ قبل عودتها ، لعرضنا عليك السفرَ للبقاء بجانبها .

كان الرجل الذي يخاطبني معتاداً على ما يبدو على التعامل مع أقارب الضحايا ، ويتكلّم بنبرةٍ رصينةٍ لا تبغي التطمين الكاذب ولو أنها مُطَمْئِنَةٌ . كان يستبقُ الأسئلة التي قد أطرحها ويتحاشاها ، متمكّناً في نهاية المطاف من حملي على الصبر لأطول وقتٍ ممكنٍ حتى لا أسافر وأسبّب الإزعاج لفرق الإغاثة .

– أقترح عليك أن نلتقي في المشفى .

وبعد ثلاثة أيام ، كنت جالساً ، ورأسي بين راحتيّ ، ومرفقاي مزروعان في فخذيّ ، على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ ، قرب سريرِ صديقتي الغارقة في غيبوبةٍ ، وإلى جانبي ، جلست بياتريس صامتةً ، مقطّبةَ الجبين ، جامدةَ النظرة ، كما لو أنها تتعلّمُ الرصانة .

في الأيام الأولى ، كنت أمكثُ بقربها ، في مقعدٍ غير مريح ، أتململُ مذهولاً ومشتّتَ الأفكار ، وأستعيدُ صورَ الماضي ، ثم صرتُ أزورها مع كتابٍ ، وبين الحين والآخر ، عندما أكون لوحدي معها ، أحاول الكلام بصوتٍ مرتفعٍ ، أخاطبها، أُطَمْئِنُها على وضعها . لقد قرأتُ أن المرضى،

حتى في حالة الغيبوبة ، يسمعون ويفهمون ما يقال حولهم ، وترتفع معنوياتهم وإن لم يتذكّروا شيئاً بعد استعادة وعيهم . وتحدّثتُ عن الأمر مع طبيب الأعصاب الذي كان يشرف عليها ، فلم يحاول تكذيبَ معلوماتي حيث قال :"لا شكَّ أن الأمر ينجح عندما لا تكون غيبوبةً عميقةً " ، ولكنني قرأتُ في عينيه الماكرتين : " إذا كان ذلك لا يساعد المريض ، فعلى الأقل يساعد أقاربه" .

والحقُّ أننا كنا ، أنا وبياتريس في تلك الأيام ، أكثر ضعفاً من كلارنس . وتذكرتُ جملةً تفوّهت بها صديقتي في بداية تعارفنا . كنت قد قلتُ لها لتوّي إننا عندما نحبُّ شخصاً ، فأقصى ما نتمنّاه هو الرحيل عن هذا العالم قبله . فأجابتني بنبرةٍ مرحةٍ : " الموت فعلٌ أنانيٌّ ! " . كان بوسعها الانتقال من لامبالاة الغيبوبة إلى لامبالاة الموت دون إلقاء نظرةٍ واحدةٍ على الرجل الذي يحبُّها والذي لن يقوى على العيش بعد رحيلها ؛ كان تخلّيها عني يبدو لي سطحياً وأنانياً .

لم تكن آرائي ، وكما يرى البعض ، في تلك الفترة ، ودودةً تجاه كلارنس. كنت ألومها على تعريض نفسها للخطر أكثر ممّا كنتُ أنقم على الشخص الذي سدّدَ لها تلك الضربة، فلا وجود له ولا مسؤولية يتحمّلها . كان ينتمي إلى أولئك الأشخاص الهائمين الذين يتزايد عددهم كل يوم ويتضاعف ، وهم ضحايا بقدر ما هم جلادون ، مسوخٌ ظهرت من قلب الفوضى وراحت تؤجّج سعيرَهَا . أمّا كلارنس ، فما هو عذرُها ؟

كنت ألومُها بنظراتي ، ثم أحتضنُها بعينيَّ ، وأعَدُهَا ، لو منحتني فرحةَ رؤيتها تعيش، ألا أفارقها وأعوّضها عن كلّ عاهاتها .

وقع الحادثُ في أواسط شهر آذار ، وفي الرابع عشر منه تحديداً ، ولم تتحرّك شفاهها من جديد قبل ٢ حزيران بعد الظهر . لم تلفظ كلماتٍ مفهومةً ، غير أن الأمر كان أشبه بالقيامة . كان الأطباء قد طمأنوني في مرحلةٍ مبكّرةٍ إلى الأهم ، وهو أن الدماغ لا يبدو معطوباً ، ومن المؤكّد أنها

ستتحرّك ثانيةً وتتكلّم وتنهض في حينه . أما أنا ، فكنت أعتبر هذه التطمينات مجرّد ترّهات ، وأنتظر كلمات كلارنس التي تهمّني أكثر من كلام الأطباء .

في الثاني من حزيران – وهو تاريخٌ سيبقى مباركاً إلى الأبد – ، فتحت عينيها وأيقنتُ أن ذلك الذكاء الذي سَحَرَني لا يزال موجوداً وراء الضمادات .

ومنذ ذلك الحين ، صرتُ قادراً ، من ساعةٍ إلى أخرى ، أن أشهد عودتها إلى الحياة ، ورحتُ أحادثُها طويلاً ، وهي تصغي إليَّ بدون كللٍ ، وتبتسم أحياناً وتوافقُ وتشكّكُ ، ولا تتحدّث كثيراً أو ببطءٍ ، ولكنّ نطقها تحسّنَ ، في غضون أيامٍ قليلةٍ ، فاطمأنّ قلبي على سلامة قدراتها العقلية .

سوف تحتفظُ طويلاً بآثار هذا الاعتداء . وكلُّ السنوات التالية ستكون بالنسبة إلينا نحن الإثنين إعادةَ تأهيلٍ صبورةً وانطلاقةً بطيئةً . غير أننا استخلصنا عبرةً من هذه المحنة ، وكانت كلارنس تقول لي : "في حين يتدهورُ وضعُ الآخرين مع تقدّمهم في السن ، أستعيدُ في الخمسين من عمري امتيازاً ينعم به الأطفال وحدهم، وهو التقدّم خطوةً خطوة وتعلُّمُ الحركة والفرح من جديد".

كانت تقول هذه الكلمات بوجهٍ يانعٍ ومشرقٍ لدرجة أنها أقنعتني في نهاية المطاف أن كلّ كائنٍ يجب أن يعيشَ محنةً قبل مواجهة المرحلة الثانية من حياته . وهذا الأمر ينطبق على الأفراد والمجتمعات البشرية والأجناس أيضاً . ربّما كان هذا هو ثمنُ عودة الروح .

ك

في العام العشرين من قرن بياتريس ، وفي شهر تموز ، بينما كانت كلارنس متشبّثةٌ بذراعي ، تقوم بنزهتها الصباحية عبر غرفة الطعام، أعلَنَ ملحقٌ إخباريٌّ لاهثٌ موتَ عبدان ، حاكم رمال ، " الجنرال الورِع " والطاغية الذي يحكم منذ ستة عشر عاماً أحد أغنى بلدان الجنوب . فلو صادفَ موتُه قبل بضع سنواتٍ ، لأثار فينا ارتياحاً مشروعاً . لقد عشنا في شبابنا تلك الحقبات السعيدة التي كانت العظّاياتُ فيها تتهاوى الواحدة تلو الأخرى وكأنها أوتادٌ شنيعةٌ تبعث رؤيتها السرور فينا . غير أن الزمن غيّرنا ، وتعلّمْنا أن نخشى الفوضى أكثر من الاستبداد . إنّ انهيارات كثيرة قد حدثت منذ مأساة نايبوتو ، وأسفرت عن الكثير من الوحشية والتقهقر بحيث يثيرُ التغييرُ وحده حماسَنا وتجذبنا الشعارات . إن ما يثير الضحك، هو أن أتساءل مَنْ الذي كان يشيخ ، أنا أم التاريخ، فالجواب، هنا، ليس واضحاً على الدوام .

عندما بزغ نجمُ عبدان ، وضع هذا الرجل حدّاً نهائياً لمملكةٍ منخورةٍ بالفساد. تحدّثَ عن الحرية والجمهورية ، فاستعادت هذه العذارى المستباحة ألف مرةٍ عذريتهنّ . كنّا بحاجةٍ للتصديق ، وقدجعلنا عبدان نصدّق .

عندما أعْدَمَ بالرصاص ، بُعَيْدَ تسلُّمِهِ زمامَ السلطة ، أحدَ أعوانِهِ بسبب طموحاته الهائلة ، غضضنا الطرفَ مقتنعين بأنه لا يجب التنديد بكل التجربة التي جاء بها لمُجرّد إقدامِهِ على ممارسة الحقّ المشروع في الدفاع عن النفس ، ومقتنعين كذلك؛ ولكننا لم نحسب حساباً لما يترتّب على موقفنا ، أنه ليس من حقّنا إعطاء دروسٍ لشعوب الجنوب ، نحن أبناء الشمال الأثرياء الذين يتمتّعون بالامتيازات ، نحن المستعمِرون السابقون .

وأكرّرُ أننا لم ننتبه أبداً لعواقب موقفنا هذا . فنحن – أي أنا وأبناء جيلي والأجيال التي تحيط بنا – كنا نستهجن القمع الذي يتعرّض له معارضٌ

أوكرانيّ ، ولكن ، عندما يُزجُ أحد سكان رمال في السجن ، فردّةُ فعلنا الأولى هي استحضارُ مفاهيم عدم التدخُّل المنسيَّة ،كما لو أن إلغاء الاستعمار بدأ مع بيلاطس البنطي . وربما بدأ ينحفرُ في الأذهان هذا "الصدع الأُفقي" ، الخط الفاصل بين القيم الأخلاقية ، أو كما قد يقول أحد الفلاسفة المنسيين في عصر طفولتي: الخط الفاصل بين " البشر والسكان الأصليين" . ففي العصر الذي عاد التمييز العنصري فيه للظهور ، فرض مفهوم " التنمية المنفصلة " نفسه على صعيد الأرض بكاملها ؛ فمن جهةٍ ، هناك الأمم المتحضّرة بمواطنيها ومؤسساتها؛ ومن جهةٍ أخرى ، هناك أشباه "بانتوستانات" ، أي محميّات غريبة محكومة وفق تقاليدها كان يجب أن تثير العجب والدهشة .

أذكر أنني التقيتُ أستاذاً جامعياً من رمال راح يتحسّرُ على الحقبة التي كان الحديث يدور فيها بعد عن "المهمة التحضُّرية " ؛ فعلى الأقل ، كان الرأي السائد وقتئذٍ ، ولو من الناحية النظرية البحتة ، أن كل الناس قابلون للتحضُّر . وهو يعتقد أن الموقف الأخبث هو ذلك الذي يقول إن كل الناس متحضّرون، من ناحية المبدأ ، وبالقدر نفسه ، وإن كلّ القيم تتساوى، وكل ما هو بشريّ هو إنساني ، وبالتالي، يجب أن يتبع كل إنسان الطريق التي رسمتها له جذوره وأصوله .

كان هذا الشاب يخفي نقمته تحت غطاءٍ باردٍ من التهكُّم والسخرية : " في السابق ، كنا ضحايا للعنصرية الإحتقارية ، واليوم نحن ضحايا للعنصرية الإحترامية التي لا تكترث لطموحاتنا وتنظر برأفة وشفقةٍ إلى عيوبنا، فتصبح أحقر بقايانا وأسفل تشويهاتنا " إرثاً حضارياً " . لكل واحدٍ عصره!".

كان هذا هو شعور العديد من الرماليين لا سيما النخبة المثقّفة منهم . أما عبدان فكان ، على العكس ، سعيداً بأن يعترف الآخرون بخصوصيته وأصالته ، فيتسربل بالزي التقليدي الفضفاض ليفهمّ الآخرين أنه يعتزم لعب

دور السلطة وفق قوانينه الخاصة ، وأن الأسلاف المتسامحين يؤيدونه في مسعاه . وعندما تصمت أصواتهم السحيقة أحياناً ، كان عبدان يعرف كيف يخرجها من جوفه أو يتحوّل إلى مزوّر .

كانت هذه المهارة كافيةً لفترةٍ طويلة ، فرعاياه قدّموا له فروضَ الطاعة ، ونحن في الشمال ، كنّا مذهولين . هل كان فاسداً ؟ فاسقاً وراءأسوار قصره العالية ؟ ولكنّهُ يحافظ في الشوارع بالهراوات على تأليهٍ جماعيٍّ . هل عيّنَ، في كل المناصب المهمة، أشقاءَه الكثيرين وأنسباءَه ؟ لو حدث ذلك في الشمال ، لتحدّثوا عن محاباة الأقارب ، أما في الجنوب ، فيتحدّثون عن "القاعدة العائلية" .كانت مفاهيم كثيرة تحتاج للترجمة ما أن تجتازَ " الصدع الأفقي" . وكانت كلارنس أوّلَ من لفت انتباهي إلى أن الأوروبيَّ الذي يعارض حكماً سلطوياً ، يسمّى "منشقاً " ؛ ولكنها ، عندما تحدّثت في أحد مقالاتها عن "المنشقّ الأفريقي" ، استبدل أحدُ رؤساء التحرير العبارة مباشرةً معتبراً إياها غير ملائمة ، واختار مكانها كلمة "معارض" دون أن يكلّفَ نفسه عناءَ استشارتها كا لو أنه يصحّحُ خطأً في الأسلوب أو الإملاء. وفي هذا السياق ، كان عاملٌ من الجنوب استقرّ في الشمال يدعى "مهاجر"، وعاملٌ من الشمال يعيش في الجنوب يدعى"مغترب". فلا يجب خلط الأمور !

لا أريد الإسرافَ في الأمثلة ، فكل ما أريده هنا هو أن أذكّرَ أولئك الذين تقلُّ أعمارهم عن الثلاثين، أو الذين نسوا المناخ الذي كان سائداً آنئذٍ ، والضباب الذي كان يغشي العيون ما أن يتعلّق الأمر باضطرابات الجنوب.

حدث الانقلابُ ضد عبدان قبيل بزوغ الفجر . كان ضباطٌ من الحرس الرئاسي قد اقتحموا حريم الجنرال وذبحوه مع الزوجة التي كان يمضي الليل بقربها . وفي هذه اللحظة عينها ، استولى جنودٌ آخرون على مبنى التلفزيون للإعلان عن موت " الطاغية الكافر ، الزنديق والمنافق ، المستزلِم للغرب، الفاسد والمُتّهم بتعقيم الشعوب" ، ودعوة الشعب إلى التمرُّد.

وسرعان ما تجاوب الناس لندائهم ، ولا شكّ أنــه كـان لديهم قنـوات نـافذة فـي أحيـاء مختلفـة. لقـد اسـتهدفـَ الهجـومُ أقـاربَ الجنرال أولاً ، ثـم أفـراد قبيلتــه وأعوانه، وفي ساعة متأخرةٍ من النهار ، ودون أن ندري إذا كان الأمر يتعلّـق بمتابعة الخطة الثورية نفسها أو بتدهور الوضع ، هوجمت المبـاني العصريـة حيث توجد مقرات الشركات الأجنبيــة . ثـم تدفّـق النـاس إلـى الأحيـاء السكنية الراقية حيث فيلات الرعايا الأجانب تجاور فيلات الريماليين الأثرياء ، وكـانت دوامةٌ من المذابح والاغتصاب والتعذيب والتدمير الذي فاق في الواقـع أعمـال النهب كما أكّد الشهود الذين بقوا على قيد الحياة؛ فلم يكن المتمـردون يطـالبون بشيء ولا ينهبون ولا يتميّز حقدهم بأي جشعٍ . وهذا الأمر يقتضــي التوضيـح لأن الجميع تحدّثوا وقتئذٍ– وحتى اليوم ، أصادف الكلام نفسه في بعض الكتـب التي لا تتوّخى الدقّة – عن "نايبوتو جديدة" . أليس ضرباً مـن التبسـيط إطـلاق هذا الإسم على كلّ انفجارٍ مباغتٍ يؤدي إلى الفوضى ؟ ومع ذلـك ، فمـا يمـيّز الحديث هو ذلك الاختلاف فـي الطبيعـة الـذي لمّحَ إليـه عمـانوئيل ليبـف أثنـاء الخطاب الذي ألقاه في نيويورك ، والذي كان الأشـخاص المقرّبـون مـن شـبكة العقلاء واهتماماتها وحدهم يحسنون اكتشافه . ولتبسيط الأمور ،كان للمتمردين نساءٌ ، في أحداث نايبوتو ، ولكنهـم محرومـون مـن ذريـة الإنـاث . أمـا فـي رمال ، فالذين انتفضوا ، بدءاً من الضباط المتمرّدين، كانوا يشـعرون بأنفسـهم محكومين بالعيش طوال حياتهم دون نساءٍ أو أطفالٍ أو منازل .

لماذا في رمال تحديـداً ؟ لا شـكّ أن "المـادة" والوسـائل المشـابهة لهـا سرعان ما انتشرت في هذا البلد الغنيّ والمتخلّف على حدّ سواء ، وعلى نطاقٍ واسع . فليس من بلد آخر كان الإيمان فيه بالتفوّق المطلق للذكر أمراً مفروغـاً منه وغير قابل للنقاش، وليس مـن دولـة أخـرى مـن دول الجنـوب كـانت فيهـا التكنولوجيا الحديثة ، لا سيما في المجال الطبي ، متاحةً بهذه السـهولة . لقد انتشرت وسائلُ الإنجـاب الانتقـائي سـريعاً دون أيّ رادعٍ أخلاقـيّ أو مـاديّ ،

في كلّ طبقات السكان ، الحضر منهم أم البدو الرُحّل. وخلال السنوات العجاف ، في نايبوتو ، كان يتم إحصاء أنثى واحدة من أصل خمسة مواليد أحياء ؛ أما في رمال ، فالمعدّل ، في السنوات المتعاقبة ، كان أقلّ من أنثى واحدة مقابل عشرين ذكراً ، وهذا مجرّد تخمينٍ، بالطبع، لأنّ عبدان كان من أولّ الحكّام الذين حظّروا نشرَ الاحصاءات السكانية وحتى جمعها.

هل كان تصرّفه سلوكاً لاواعياً ؟ أم نزعةً إجراميةً ؟ لقد وصفته الصحف بهذه الكلمات ، في الأيام التي أعقبت سقوط سيّدِ رمال . فهو على هذا الصعيد، لم يكن يشذُّ عن سائر الحكّام في تلك الفترة . فقلّةٌ منهم كانوا قادرين على القيام بمقاربةٍ رصينةٍ لقضايا لن تطرح قبل ١٥ أو ٣٠ عاماً ، ومعظمهم فضّلوا إهمالها كتَركةٍ مسمومةٍ لأي شخص تسوّل له نفسه خلافتهم بصلافة .

كان الجميع يعتقدون أن رمال ستبقى بمنأى عن الاضطرابات التي تعصف بالجنوب . كان الجميع يتظاهرون بانتقاد حكم عبدان ، غير أنهم يباركونه سرّاً قياساً بما يجري في كلّ مكانٍ تقريباً . وفي إحدى المرات – وكان ذلك، كما أذكر ، قبل ثلاثة أو أربعة أعوامٍ من الانفجار – أحصت منظّمةٌ إنسانيةٌ خلال السنة المنصرمة ٨٥٠ إعداماً بتهمة الاغتصاب . وقد أعلن الناطقون باسم الطاغية أنه قانون البلاد وتقاليد الشعب ، وأنه لن يسمح أن يُساقَ في دروب الهلاك ، وهو خطابٌ أصبح من الصعوبة الردّ عليه لا سيما وأن الإغتصاب ، كما نعرف تماماً ، لم يعد جنحةً فرديةً عاديةً بل تعبيراً عن عدوانيةٍ شاملة يخشى الجميع تصاعُدَها .

ربما تصبح حيرتي وحيرة كلارنس مفهومةً بصورةٍ أفضل في صبيحة هذا النهار من شهر تموز . وفي مساء اليوم التالي ، عندما أذيعت وقائع المذابح ، انجلى الغموض ، وكان علينا ، للأسف ، مشاطرة الشعور العام ، شعور المسؤولين والإعلام والشارع الذي راح يتحسّر على عصر

الفساد والاستبداد والرياء كما لو أنه عصرٌ ذهبيٌّ ، وفي الوقـت نفسـه، يتحفّظ حول الحاكم المخلوع وأساليبه .

كـان الغضـبُ الـذي اجتـاحَ رمـال يتمـيز بطـابعٍ ملحمـيٍّ فـي فظاعتـه وغلوائه. ولا أنوي بهذه الصفـة إضفـاء النبل علـى الجريمـة أو العظمـة علـى الجنون المدمّر ، بل أسعى، بكلّ بساطةٍ ، للتوضيح بأن الأحداث اكتسـبت منذ الأيام الأولى دلالةً تذكّر بيوم الدينونة . كما لو أن شيئاً غير قـابل للتقويـم قد حدث، وأن البشرية جمعاء أدركت ، فجأةً ، كابوساً نجحت بهـذا القدر أو ذاك في إغفاله .كانت هناك بالتأكيد صور الفظـائع وعـدد القتلـى ومـن بينهـم آلاف الرعايا الأجانب ، وحتى الحكومات التي كانت تتفاخر بشفافيتها لم تجرؤ علـى تأكيد المحصّلة . وأكثر من ذلـك ، سـاد ذاك الشـعور بـأن جـزءاً مـن العـالم ، أكبرَ جـزءٍ وأكـثرَه اكتظاظـاً بالسكان ، هـو فـي طـوره للتحـوّل إلـى منطقـةٍ محظـورةٍ ، وفضـاءٍ تهيم فيـه الأرواح ولا يملك أحدٌ التسلّل إليـه ، وسـوف يصبح الاتصال به مستحيلاً عمّا قريب .

عند هذه النقطـة، أدرك الشـمالُ أن هـذا "الكوكـب الواقـع فـي الأسـفل " الـذي اعتاد اعتباره عضـواً ميتـاً ، هـو جـزءٌ مـن جسده ، وبـدأ فجـأةً يعيش تفسُّخَ الجنوب كالاستئصال، بل أسوأ من ذلك، كالتآكل .

ل

كان عزائي المتواضع هو أن تصدُّعَ العالم سوف يكون له عظيم الأثر على إصلاح أحوال أسرتي .

لم أستشف أبداً بين كلارنس وبياتريس ذرّةَ انسجامٍ ولا خصاماً أو خلافاً . كان يبدو لي أنهما غريبتان الواحدة عن الأخرى غربةً لا عودة عنها . وقد سعيتُ جاهداً لتقريبهما ، وحاولتُ ، كلما سنحت لي الفرصة ، أن أفتعل بينهما خلوةً وتهامساً ومُسارّةً .. ولكن عبثاً ، فأسرتي بقيت مثلّثاً يفتقر إلى قاعدة . أنا وكلارنس ، أنا وبياتريس ، ثنائيان عموديان قبل ولادة ابنتي ، كما سبق أن أشرت، حين كانت بياتريس مجرّد مشروعٍ ورغبةٍ تكوّنت في أعماقي أكثر من أعماق امرأتي التي حملتها لإرضائي فقط .

كنتُ أنا الذي باحت له بياتريس بحماقتها الغرامية الأولى .وقد تأثرتُ وشعرتُ بالفخر لدرجةٍ أنني لم أفكّر بالتصرّف كأبٍ . وإذا كان التصرّف كأبٍ يعني التفوّهُ بكلامٍ مناسبٍ وبعظةٍ أخلاقيةٍ صارمةٍ ، فهذا الدور المحدّد للآخرين لا يلائمني . لقد حصلتُ على ما هو أفضل، على حظوة التمتّع بثقتها، ودمعتين ذَرَفَتْهُمَا على قميصي واحتضنتهما براحتيّ لأمنعهما من الجفاف .

وكنت أنا من تأثّرتْ به بياتريس حين اختارت دراسة البيولوجيا عوضاً عن الإعلام .

كانت أوضاعُ قبيلتي على هذه الحال عندما تعرّضت كلارنس للحادث الذي قلب هذا التوازن القائم رأساً على عقب . فطالما أن الأمّ كانت أماً والإبنةَ إبنةٌ ، تميّزت علاقتهما بالبرود ، أو بالفتور بعض الشيء ، والصورة التي كنت أتمنّاها بكلّ جوارحي ، صورة الأب والأم المتعانقين حول المهد لم تتحقّق أبداً . فعلى طاولتي ، وفي اللحظة التي كنت أكتب فيها هذه

السطور ، كانت توجد صورةٌ أخرى في إطارٍ يظهر فيها الأب والإبنة متعانقين حول كرسيٍّ متحركٍ . وهكذا وجدنا أنفسنا ، بفضل هذا الانقلاب ، وكانت بياتريس مفعمةً بمشاعر الأمومة الحنونة ، وكلارنس متشبّثة بمشاعرها البنويّة ، وغدت الاثنتان صديقتين أخيراً. وبعد هذا المخاض العسير ، لم تشهد صداقتهما ركوداً في مستنقع التفاهة . فقد تميّزت هذه العلاقة، على الفور ، باندفاعها ونهمها كغراميات بحّارٍ مخلصٍ ، وبنتائجها المثمرة أيضاً .

وفي يومٍ من الأيام ، لدى عودتي من المتحف ، رأيتهما في وضعٍ غير متوقّعٍ . كانت كلارنس تملي من كرسيّها جملاً متدافعةً ، وبياتريس جالسةً أرضاً كالكاتب الجالس القرفصاء ، أمام شاشة الحاسوب ، تَرقُنُ بإخلاصٍ كلامَ أمّها في مشهدٍ سوف يغدو مألوفاً . وفي بعض الأحيان ، عندما تصمت صديقتي ، كانت ابنتنا تجازف بسؤالٍ أو اعتراض ، فتتناقشان وتحتدمان وتعيدان القراءة وتصحّحان معاً. كان عملٌ مشتركٌ في طريقه إلى إبصار النور ، "وليدهما" هما الاثنتين ، وكنت ، في أفضل الأحوال ، عرّابه فقط .

قد يشعر رجلٌ غيري بنفسه مهدّداً ومخلوعاً عن عرشه ، ولكنني لا أفكّر على هذا النحو . وإذ غمرتني سعادةٌ عارمةٌ بتلاقيهما ، كنت أراقبهما وأصغي إليهما لمقاطعتهما أو مناداتهما ، وأقول لهما " يا بنات ! " ، سعيداً بأن يشملهما النداء نفسه بعنايته بالرغم من فارق السن بينهما .

عندما نُشِرَ مقالهما على حلقاتٍ في صحيفةٍ يوميةٍ معروفةٍ ، أتاحت لهما أحداثُ الساعة استقطابَ جمهورٍ عريضٍ من القراء المهتمّين . لم تكن الفكرة الأساسية للمقال جديدةً . ففي المجتمعات البشرية كما لدى الأفراد ، يوجد مبدأٌ ذكوريٌّ هو مبدأ العدوان ، ومبدأٌ أنثويٌّ هو مبدأ الاستمرارية . ويعاني بعض الرجال من هرموناتٍ ذكوريةٍ فائضةٍ ، أو من وجود صبغيةٍ

ذكوريةٍ زائدة ، وهؤلاء الأشخاص يتمتعون أحياناً بالذكاء ، ولكنه ذكاءٌ منحرفٌ بسبب عدوانيتهم الشديدة ، وموجَّهٌ في أغلب الأحيان نحو الجريمة؛ وسجلاتُ المحاكم حافلةٌ بحالاتٍ كثيرةٍ من هذا القبيل .وتساءلت بياتريس وكلارنس : ألا نشهد مثل هذه الظاهرة على الصعيد العالمي ؟ ألم نلحق ضرراً عظيماً بمجتمعاتٍ ومجموعات إثنيةٍ وشعوبٍ وربما بالجنس البشري برمته بسبب بعض العلماء الذين تخلّوا عن مبادئهم ، وكذلك بسبب هذا "الصدع الأفقي" الذي لم يعرف أحدٌ التكهّن به ؟

لا أريد مناقشة هذه المقولة ، فقيمتها ليست في دقّتها العلمية بقدر ما هي في قدرتها على تفهُّم نوعية الأحداث الجارية التي تعجز أمامها عقولنا الرصينة . فهل تكون شعوب الجنوب قد تحوّلت أمام أعيننا إلى مسوخٍ متعطّشةٍ للعنف لأنها محرومةٌ من كلّ حياةٍ طبيعيةٍ وممنوعةٌ من أيّ مستقبل؟. ولتأكيد هذه الرؤية ، كانت المسألة تتطلّب الذهاب أبعد من ظواهر الأمور . فقد لاحظ الجميع التشوُّه الذي أصاب هرم الأعمار الذي يترجم علمياً الفظائع اليومية، فمن نايبوتو إلى رمال ، كانت ذاكرتنا تزخر أصلاً بفصولٍ كثيرةٍ من الدمار والدماء ، والجميع يتوقّع أن يكون الغد القريب على هذه الشاكلة .

عندما يجد المرء نفسه فجأةً على الضفة الثانية من الفظاعة ، تبدو الأشياء منطقيةً وبدهيةً ومتوقّعةً وحتميةً. نعم ، بالتأكيد ، كان كلُّ شيءٍ قابلاً للتكهُّن ، منذ اللحظة التي ظهر فيها " الصدع الأفقي" ، منذ اللحظة التي استولى فيها المشعوذون على أسرار الحياة ؛ ولا ننسى أن بذور الفوضى كانت كلُّها موجودةً أصلاً في القرن الماضي : تلك المدن التي تنهار الواحدة تلو الأخرى ، تلك الأمم التي تتصدّع ، ذاك الهروب العبثي نحو سلفيةٍ بائدةٍ ، وكلُّ تلك الأشكال من الإستبعاد والانكفاء .

السبب والنتيجة : ما أعظم هذه الخدعة ، قد يقول لي قائلٌ :" في ظلّ الإمكانات اللامتناهية ، من كان سيتعرّف على المنعطف الذي يقود إلى

الهاوية"؟ وأجيب:" إنني عرفتُ رجالاً ونساءً كانوا يقرأون أسرار الحياة كما في كتابٍ مفتوحٍ . لقد رحل البعض ، وبقي البعض الآخر حولي ، وما زلتُ أصطلي نارهم المقدّسة . كانوا رجالاً ونساءً عرفوا ، كما قلتُ ، رؤية "اليرقانة" في خطوط الصورة" .

بيد أنني أرى من واجبي أن أصبَّ اهتمامي علىهذه "الصورة"، وأخصّص لها بعض الفقرات . فكلُّ إنسانٍ بمقدوره، اليوم، أن يرى مثلي ما آل إليه العالم، ولا شيء مما سأقوله غير معروف ، ولا شيء يفاجىء ، ولكن، هذه هي المهمة العبثية التي اضطلعتُ بها ، أن أكون شاهداً ورسّاماً خبيراً وكاتبَ خاتمات .

أنّى للذين عرفوا مثلي عصر الحواجز الواهية ، والكون الذي تتصل أرجاؤه بآلاف الدروب المضيئة ، أن يهتدوا السبيل في هذا الكوكب المعزول الأطراف؟ لم أتوقّع أبداً أن هذا الاتساع سوف يكون زائلاً ، وأن كل هذه الأسوار سوف تنتصبُ منيعةً على دروب الفكر .

أوصدت دولُ الجنوب أبوابَها الواحدة بعد الأخرى كما تنطفىء الأنوار في معسكرٍ ليلاً ، لا للخلود إلى النوم ، فالظلام خيّمَ في الداخل ، والجفون لم تعد تنتظر بزوغ الفجر .

لقد قدّمَ لنا الماضي مئةَ مثالٍ عن مجتمعاتٍ استسلمت فجأةً للجنون ، وقد حرصنا على إظهار التعاطف معها ، غير أن هذا الوضع كان يلائمنا ؛ فالعالم لا يزال يخوض دوّامةً من العويل ، وسحقاً للمتخلّفين والمتهالكين والمنهكين ، والتاريخ على عجلةٍ من أمره ، ولا يسعه التوقّف عند كلّ محطّةٍ من المرارة والتفجُّع . ولكن أين كان التاريخ يمضي ؟ ومع من كان متواعداً ؟ ومتى ؟

من كان ليجرؤ على استشراف التراجع ؟ التراجع ، هذه الفكرة البائسة والمضحكة والمهرطقة والغريبة . كنا مصرّين على النظر إلى التاريخ

كما لو أنه نهرٌ يجري وسط طبيعةٍ مسطّحةٍ ، ويتخبّطُ في الأرض الوعرة ، ويمر ببعض الشلالات. وماذا لو لم يكن مجراه مرسوماً من قبل ؟ وماذا لو ضلَّ السبيل في الصحراء ، وضاع وسط متاهةٍ من المستنقعات الآسنة ، عاجزاً عن بلوغ البحر ؟

هل هذه كلماتٌ يائسةٌ ؟ كلُّ ما أتمنّاهُ هو أن تشيخ بياتريس في عالمٍ تجدّدت قواه ، وأن تأتي في المستقبل فواصلُ ضخمةٌ لتواري هذه العقود المشؤومة.

قبل الأحداث التي اندلعت في رمال ، كان بعضُ الدول يحذّر رعاياه من الذهاب إلى البلدان الخطرة .

كانت هذه هي التسمية الخجولة التي تشمل مبدئياً بعض المناطق مثل نايبوتو التي شهدت سورتها من الجنون القاتل .

فرمال لم تندرج أبداً على قائمة هذه البلدان لأن الجنرال عبدان قضى فيها على التسيُّب الأمني واستأصلَ العنف ، ولا أحد تجاسر على الإشارة إلى الخطر عند ذكر اسمه . وكان سقوطه العنيف والمصير الذي آل إليه الرعايا الأجانب الذين كانوا يعيشون في حماه يدلّان على أن لا بلد آمنٌ بعد اليوم ما أن نتجاوزَ خطَّ الجحيم .

لقد قامت السلطات في الشمال بإجلاء عشرات الآلاف من العائلات المقيمة في الجنوب دون اعتبارٍ للحساسيات الدبلوماسية . وتمسكّت قلّةٌ من وزارات الخارجية بالتمييز بين البلدان التي "ظهر" فيها العنف والأخرى التي لم يزل فيها " كامناً " . غير أن الدلالات اضمحلّت وسط التنصّل الذي لاذ به الجميع.

كانت ردّةُ الفعل مفهومةً تماماً ،و لكنّها عجلّت الانهيار . فأمام مشهد آلاف الرعايا الأجانب الذين يحزمون حقائبهم على عجلٍ ويحتشدون في المطارات، كيف يستأنف السكان المحليون حياتهم اليومية ؟ وقد انتقلت العدوى

إلى العديد من البلدان التي كانت آمنةً حتى الساعة ، وأضيف إلى نزوح الرعايا الأجانب نزوح النخبة المحلية إضافة الى الناس العاديين الذين هالَهُم وروّعَهم المستقبل .

وحتى اليوم ، وبعد أن أصبحنا على علمٍ بالمزيد من التفاصيل حول جذور الأحداث التي ابتلي بها الكوكب ، يرفض الكثيرون النظر إلى شعوب الجنوب كضحايا ، ويحتفظون عنهم بصورتين : الأولى هي حشود المهاجرين الذين يعيشون على بعد خطوتين منا ، والثانية هي العصابات المسعورة هناك، بعيداً، والتي تمعن في تدمير عالمٍ استعصى عليها فهمه، وتقوم ، بالدرجة الأولى ، بمعاقبة نفسها . وذات يومٍ ، ربما أصدرت محكمة التاريخ أحكاماً متأخّرةً ضد جريمة " الحرمان من المستقبل " .

أما هنا ، في الشمال ، فالويلات لا تصيبنا إلا عرضاً . فلنفكّر أحياناً بالذين يخضعون لعواقبها . فلنفكّر بتلك البلدان التي لم يعد أحدٌ يتجاسر على السفر إليها ، والتي أوصدت أبوابها أمام العالم الخارجي ، وتفكّكت إلى قبائل متناحرةٍ وسط اليأس العام. لقد تخلّى عنها أفضل أبنائها ، وراحت تصارع من أجل البقاء كالعشب البري الذي ينبت بين الأطلال . ولا شيء في الأفق سوى المزيد من الأطلال .

في رمال ، كما في ثلثي دول العالم ، صار الزمن يمضي متثاقلَ الخُطى . فلم تعد الطائرات تحطُّ أو تقلع ، باستثناء راجمةٍ باليةٍ ، واختفت ، في غضون أشهرٍ قليلةٍ، الطرقات ، تلك الأبعاد المترامية التي شقّها الجنرال عبدان بتكلفةٍ باهظةٍ كما لو أراد أن يتحدّى الصحراء ، وغرقت تحت الرمال الناقمة . وعادت المناجم كهوفاً ، وتحلّلت الآلاتُ ببطءٍ وسط الصدأ والإهمال، وبقيت بعض المباني منتصبةً في الأحياء الراقية ، ولكنّها غدت سوداءَ ومتصدّعةً ومبقورةً بمعظمها وكأنها معالم متهكّمةٌ لحضارةٍ عاشت يوماً واحداً تقول حجارتها : ها إن ألفيةً أخرى قد ولّت إلى غير رجعةٍ .

من رمال إلى نايبوتو ، من الشرق الأدنــى أو الأقصــى ، مـن أكـواخ العالم الجديد ، لا يزال الناس يهربون ، كلّما سنحت لهم الفرصـــة ، علـى متـن البواخر أو علــى ظـهر البغـال . إنـهم آخـر حـاملي عصـور التنويـر القديمـة ، يلوذون بالفرار كالكلمات الأخيرة التي يلفظها إنسانٌ يحتضر .

لا حاجة بهم لبوصلةٍ من أجل الوصول إلى الشمال ، شمال المتوسّـط والريـو غرانـدي ، فأسـلافهم قـد سبقوهم إلـى هنـاك ، والطريـقُ محفورةٌ فـي جيناتهم ، ومشاقّها عذبةٌ ووعورتُها مغفورةٌ سلفاً . وفي دول الهجـرة ، يشـعر الكثيرون بأنهم يعيشون اجتياحاً ، ولكن ما العمل ، فلا يمكن إعادة غريقٍ إلـى البحر .

أذكـر أننـي قـرأتُ فيمـا مضـى ، لأكـثر الأقـلام إخلاصـاً ، اسـتعارةً غريبةً . فقد قال الكاتب:" إنّ كوكبنا يشبه صاروخاً يتألف من طـابقين ، الأول ينفصلُ ويهوي إلـى الأرض ، وفـي سقوطِهِ يتفكّكُ ، والثـاني ينفصـلُ بـدوره وينطلقُ في الفضاء ، كاملاً وحراً وطليقاً ".

وحتى في الفترة التي نُشِرَ فيها هذا النـص، كـان مـن السـهل التهكّـم والتصوُّر، على سبيل المثال ماذا كان يحدث لو أن الكوكب الواقـع فـي الأسـفل تفكّكَ وبقي متعلّقاً بالكوكب العلـويّ بمفصـلٍ غير محكـم الإقفـال . كـانت تلـك أوهام أبناء عصري ، ساذجةً ، مخزيـةً ولئيمـةً . ومـع ذلـك ، فهـي مشـروعةٌ على غرار كلّ غرائز البقاء .

م

هل كان بمقدوري ألاّ أعرفَ بأن ساعةَ الفراق تخيّمُ دائماً بين الأب وابنته. كان كلُّ ما أتمنّاه هو ألا أضطرَّ لمعاناتها بالطريقة التقليديّة، فأمدُّ ذراعي على باب مبنى، و أرافق بياتريس بخطى خرقاء و أسلمُها ثم أعود الى الصف الخلفي متحمّلاً النظرات التي تقتضيها المناسبة... قلت لنفسي إن الفراق لم يعد يجري بهذا الأسلوب . فلا طرحة ولا وشاح ولا ذراع أبوي ولا مدعوون.

وعندما تحين الساعة ، لن تكون مرتبطةً بموعدٍ محدّد.

لقد احتطتُ للأمر ، و صارحت ابنتي في وقت مبكّرٍ حتى قبل مغامرتها العاطفية الأولى، وأكّدتُ لها أن غرفتها هي ملكٌ لها و أن هذا المنزلَ منزلها، وبإمكانها مغادرته على هواها ثم الرجوع إليه، وحدها أو بصحبة أصدقائها، فمهما ابتعدت، سوف تحتاج للاحتفاظ في "المؤخرة" بحنانٍ مكانٍ تحتفظ فيه على الأقلّ ببعض الأشياء من طفولتها . و قد قالت لي "نعم" متأثّرةً ، ودعتني مداعبَةً بكل الأسماء المزيّفة التي أحبها . وكنت مطمئناً وفخوراً . فبعد كل الاعتبارات ، أرى أن الحياة لم تدمّر مخطّطاتي بل زعزعتها قليلاً ، بما يكفي لتبقى هي الحياة.

عندما بدأت بياتريس تعاشرُ مرسي، لم أضطّر لبذلِ جهدٍ من أجل استلطافه. كان والدُه مصرياً و أمُّه فرنسيةً من منطقة سافوا ، و قد قال إنها هي التي أصرّت على إعطائه هذا الإسم الذي يسخر منه عن طيبة خاطر : "عندما أعرّفُ عن نفسي، ألفظ مرسي بسرعةٍ ، فيعتقد الرجال أن اسمي مارسيل ، وتتصوّر النساء أنه موريس! " . منذ لقائنا الأول ، حدّثتُه بالطبع عن زيارتي القصيرة والوحيدة التي قمتُ بها إلى بلده الأم ، بمناسبة الندوة حول الجُعْران ؛ واعترف لي أنه عاش دائماً في فرنسا أو سويسرا ، وزار

القاهرة مرتين فقط في إجازةٍ قصيرةٍ . وقد خاب أمل كلارنس لسماعه يقول إنه لم يزر الإسكندرية قط، وهي المدينة التي تفاخر بأن جذورها تتحدَّر منها .

أعربت بياتريس عن دهشتها :

– لطالما اعتقدتُ أن عائلتك من سالونيكا .

وأردفتُ بدوري عن سوءِ نيّةٍ :

– وأنا اعتقدتُ أنها من أوديسا .

ووضعت كلارنس كتفها على كتف مرسي :

– إشرحْ لهما أن موطني هو مجرَّةٌ من المدن ! قلْ لهما إننا ولدنا معاً في نور المشرق وأنَّ الغربَ لم يعرف صحوتَهُ إلا تحت أنوارنا ! قلْ لهما إن المشرق لم يعشْ دوماً في الظلمات ! حدِّثهما عن الاسكندرية وإزمير وأنطاكية وسالونيكا ، ووادي الملوك ونهر الأردن ونهر الفرات . ولكن تراكَ تجهلها ؟

كانت تتحدَّث بمزيجٍ من الإطناب والمرح ، وكان مرسي حزيناً كما نحزن لرؤية مهرّجٍ يبكي .

ومع ذلك ، فهو لم يكن حزيناً معظم الأحيان . فقد التقت به بياتريس في المختبر الذي توظّفت فيه ، وكان يعتبر فيه أحد ألمع الباحثين وأكثرهم هَزْراً، خليطاً مُسلّياً سَحَرَها منذ اليوم الأول . كانت لهما البشرة البرونزية نفسها، والقامة عينها ، والسن ذاتها مع فارق بضعة شهورٍ ، ويعطيان الانطباع أنهما قد عاشا دائماً يداً بيدٍ . وسرعان ما أصبح مرسي جزءاً من حياتنا بشعره القصير الأجعد ورأسه المتطاول المنسوخ عن جداريةٍ فرعونيةٍ وضحكته الصافية .

كان والداه يعيشان في جنيف ، وكلاهما متخصّصان في الصيدلة ، وهو يقطن بجوارنا بعد أن استأجر شقةً صغيرةً قرب حلباتِ لوتيس . وأكثر من مرّةٍ ، كدتُ أعرض عليه ، بواسطة بياتريس ، أن ينتقل للعيش معنا ،

غير أنني أحجمتُ ، فلم أكـن أشـعر بـأنني أملكُ الحقّ فـي تسـريع الأمـور أو إعطائها صفةً رسميةً .

وأعتقد أن مرسي ، بحكم حيائه الشرقي ، لم يمضِ ليلـةً فـي شـقتنا . أما بياتريس فكانت تغيب معظم الوقت وخاصةً في نهاية الأسبوع . وفـي أحـد الأيام ، إذ كنتُ عائداً من المتحف ، وجدتُ أشياءَها مرتّبةً فـي صنـاديق قـرب الباب . وإذ فطنتْ كلارنس لتأثري ، شرحت لي أن ابنتنا تحتاج ، وقد بلغت الخامسة والعشرين ، لعيش حياتها مـع رجلٍ .وكـدتُ أحتـجُّ ، وأقـول: "لمـاذا" علـى نحـوٍ مثيرٍ للشـفقة" ، وبقـي السـؤال معلّقـاً علـى شـفتيّ .اختليـتُ بنفسـي بكبرياءٍ في مكتبي ، مصمّماً على عدم الخروج قبل أن تنقلَ الصناديق .

وأنا الذي كنتُ أخشى أن ينطبـع رحيـل بيـاتريس فـي ذاكرتـي علـى هيئة حفل عرس...كان رحيلها مجـرّد صنـاديق وأكـوامٍ مـن الكتـبِ والملابـسَ المطويّةِ والصور المؤطّرة وتلك الغرفة التي صـارتِ فائقـةَ الـترتيبِ والتنظيـمِ بحكـم غيـاب صاحبتهـا . رحتُ أتصفّحُ ، للترويـح عـن نفسـي ، مجموعـة الحشـرات المُغمَّدَة الأجنحـة التـي أملكهـا ، معيـداً لصـقَ بعـض الأسـماء التـي انزاحت عن مكانها .

وعندما سئمتُ عملي هـذا ، وبعد أن حـان موعد العشـاء ، وذرفـتُ دمعتين إلزاميّتين ، عدتُ إلى قواعدي سالماً . فهكذا تجري الأمور في علاقـة الحب ، لأننا لا نستعدُّ لساعة الرحيل .

في اليوم التالي ، جاءت بياتريس ومرسي لتناول الفطور معنا ، وقد قدّرتُ كثيراً هذه البادرة اللطيفة . كانت ابنتي مرحـةً وأكـثر هـزراً مـن العـادة كما لو أنها أرادت إفهامي أنها لا تزال تعرف كيف تكون طفلةً ، طفلتي .

لم يكن أحدٌ منا نحن الأربعة على علمٍ بحمّلها . ولم أعرف بالأمر إلا بعد أسابيع ، على هامش الحديث . فقد نُشرت استطلاعاتٌ حول وضـع النسـاء في رمال ودولٍ أخرى من دول الجنوب . ونظراً لتضاؤل أعدادهنّ ، افترضنا

جميعاً أنهن سوف يتمتعن بالحظوة والاحترام والاهتمام ، وكلُّ ما حدث هو أن الطمع بهنّ تضاعف. وربما تكون هذه أبشع صورةٍ سوف تحتفظ بها الأجيال القادمة عنا ، تلك النساء الأسيرات ، المحاصرات ، واللواتي يمثّلنَ ممتلكاتٍ ثمينةً لقبائلهنّ ، ومثار الصراعات الدموية ؛ لم يعد بمقدورهنّ الخروج إلى الشارع دون مرافقةٍ خوفاً من تعرضهن للاغتصاب أو الخطف . وعلّقتُ قائلاً :" ها قد عدنا إلى زمن خطف السبايا ! "

وضعت بياتريس يدها على يد مرسي وأعلنت : " أرجو أن يكون ولداً ! ". كانت هذه الأمنية تبدو شديدة الغرابة صادرةً عنها ! ومع ذلك ، لم أعلّق على ما قالته بل على البشرى نفسها ، فنهضتُ ووقفتُ وراء الكرسيّ الذي كانت ابنتي تجلس عليه، وانحنيتُ فوقها طابعاً قبلةً على جبينها ومتحسّساً براحة يدي بطنها الذي لم يتكوّر بعد .وضحكت هي كما لو أرادت أن تعطي لنفسها التكوّر الذي لم يظهرْ : " أنا في الشهر الثالث" .

رمقتُ كلارنس بطرف عيني . لقد تفاجأت مثلي غير أن موقفها كان مختلفاً:

– هل هذا عصرٌ يصحّ فيه المجيء إلى العالم ؟

وفي المساء ، انتقدتها بمرارةٍ على كلماتها تلك . فمهما كانت مآسي عصرنا، فهي ليست بالكلمات التي تقال لأمٍّ عتيدة . كانت بياتريس على أهبةِ خوض غمار مغامرةٍ مفرحةٍ ومتعبةٍ ،ولا يجب أن نحيطها بقلقنا ، فهل نستقبل الطفل الذي سيولد على هذا النحو ؟ هناك كائنٌ واحدٌ في العالم قد يكون غالياً وعزيزاً عندي بقدر بياتريس وهو طفلها . وحتى لو أنهكتني الحياة ، سوف أجدّدُ عقدي معها لعشرين عاماً ، لا لسببٍ بل لرؤية هذا الشيء الصغير ينمو ، واصطحابه إلى الحدائق العامة ، والتنعّم بوجهه المشرق أمام حلوى غزل البنات .

التصقت بي كلارنس :

– أنت متوقّدُ الرغبة هذا المساء ، ضُمُّني إلى صدرك ، اريد أن أستقي حبَّكَ داخلي ، كلّ حبّك لي ولبياتريس ولطفل بياتريس .

الحبُّ وسيلةٌ للتهرُّب ، العناق حجّةٌ دامغةٌ ، النشـوة حديثاً لـه بقيـة ، فهل أتذمّر من هذا التملُّص ؟ لقد عرفتْ كلارنس دائماً اجتذابَ جسدي لصالحها ، وهكذا هدأت أفكاري حتى اليوم التالي .

في الصباح ، سلّمت كلارنس بـأنني على صواب . لم توافق على المضمون – فهي لم تشاركني أبداً انبهاري أمام الأطفال – بل على الموقف الذي يجب أن نتخذَهُ على الأقل أمام ابنتنا ، غير أنها أضافت ملاحظةً عنيدةً وساهمةً :

– ... ولكنّ بياترس محقّةٌ في رغبتها بإنجاب طفلٍ ذكرٍ في مثل هذه الظروف.

– أيّ ظروفٍ ؟ لسنا في رمال ولا نايبوتو ، على حدّ علمي !

– لا شكّ في ذلك ! ولكننا موجودون على الكوكب نفسه . فـأيُّ شرٍّ يبقى محدوداً ؟ الضغائن تنتقل بالعدوى والتخلّف كذلك .

لم يسبق لي ان أصغيتُ بخفّةٍ إلى رؤى كلارنس . كانت تميل دائماً إلىأكثر السيناريوهات تشاؤماً ، والتاريخ ينزع أحياناً للقيام بالمثل .

ولم يكن الاثنان على خطأٍ في تحليلهما للوضع غير أنهما اكتفيا بإعلان التشخيص.

كلارنس والتاريخ ، شخصان في حياتي غالباً ما كانا متواطئين ، الأولى بحكم بصيرتها الثاقبة ، والثاني بسبب ضلاله الشديد .

ن

أنجبت بياتريس ، كما تمنّت ، طفلاً ذكراً أسمَتْهُ فلوريان . عندما زرتُها بعد ساعةٍ من الولادة ، دُهِشتُ لرؤية رجال أمنٍ مسلّحين في الرواق . كنتُ قد شاهدتُ في الأفلام أكثر ممّا رأيتُ في الحياة عناصر من الشرطة في مشفى لمراقبة سجينٍ مريضٍ، أو لحراسة شخصٍ تعرّضَ لمحاولةِ اغتيالٍ ، أو شخصٍ مهدّدٍ بالقتل . ولكن، ما سبب وجودهم في دارٍ للتوليد ؟ اعتقدتُ للوهلة الأولى أن إحدى السجينات تضع مولودها .

أوضح لي مرسي :

– إنهم هنا بسبب الإشاعات .

– أيّ إشاعات ؟

آه ، بلى ! تذكّرتُ الآن . منذ بضعة أشهرٍ ، سَرَتْ إشاعاتٌ مفادها أن عصاباتٍ من المهرّبين الدنيئين خطفوا طفلاتٍ رضيعاتٍ قبل " بيعهنّ " في دولٍ نائيةٍ تضاءل فيها عدد الإناث . ووقتها ، لم أكترث للأمر ، وكنت على حقٍّ بعض الشيء ، فالرهاب الذي أثارته الإشاعات لم يكن بحجم الحقائق . ولطالما شهدنا ، حسب السنوات ، أطفالاً وشابات يختفون ، ولم يتوصّلْ أحدٌ للإثبات أبداً ، على حدّ علمي ، أن عمليات الخطف هذه تمّت على صعيد مغايرٍ تماماً خلال السنوات التي أتحدّث عنها .

أما ما أخطأتُ في تقديره بالمقابل، فهو حجم الهلع الذي كان ينتشر، وربما كنت تفاعلتُ أكثر مع الوضع لو أنجبتْ بياتريس بنتاً .

يبدو هذا الخوف مفهوماً تماماً الآن بعد مرور الوقت . ففي الشمال ، بلغت الفجوة بين الأجيال ذروتها . لقد سبق أن شرحتُ كيف أمكن تفادي الأسوأ والأعظم ، وأكرّرُ أن الخلل بقي طفيفاً بين الذكور والإناث بالمقارنة مع تفاوت المعدّلات في الجنوب . غير أن هذا الخلل كان من الأهمية بمكانٍ،

ويعتبر الاختصاصيون أنه السبب في التصاعد المفاجيء لانحراف المراهقين . لقد عرف بعض المجتمعات غداة الحروب فتراتٍ ارتفع فيها عدد الإناث ، وبالرغم من اليأس والحرمان والتقنين ، كانت تلك الفترات بالنسبةللتاريخ أوقاتاً هانئةً استعاد فيها البشر أنفاسهم . وحتى الساعة ، لم تظهر مجتمعاتٌ نشهد فيها بالحجم الطبيعي فائضاً ساحقاً في عدد الذكور الشبان . ولو حدث هذا التفاوت في بيئةٍ طبيعيةٍ ، لأمكن مقاربته بالمزيد من الرويّة . ولكن الوضعَ لم يكن على هذا النحو إطلاقاً . فمنذ أحداث رمال ، هبّت ريحٌ من القلق على العالم ، وتوقّفت فجأةً تيارات التبادل القديمة ، وتباطأت التيارات الأخرى ، وانكمش الكوكب انكماشاً واضحاً وضَمُرَ كتفاحةٍ عفنةٍ أو شديدة النضوج . كانت رمال في السابق حاملةَ لواء شكلٍ من أشكال الرخاء ، وقد أعلن سقوطها المريع بداية عصرٍ جديدٍ ، عصر الانحطاط والإعياء .

أفضّلُ هذه العبارة على عبارة " الأزمة الكبرى" التي لا يزال أبناء عصري يتشبثّون بها في خيالهم . ولا يعني ذلك أنني أنفي أيَّ شبهٍ لها بالخميس الأسود عام ١٩٢٩ وكلّ أشكال القلق الجليلة للقرن المنصرم . غير أنّ أوجهَ الشبه تواري بقدر ما تكشف ، وقرن بياتريس لا يحاكي عصراً آخر، وإنْ لاحظنا هنا وهناك ، في ملامحه ، بعض الأهوال القديمة .

لا ريب أن علماءَ الاقتصاد يستطيعون أن يحلّلوا بصورةٍ أفضل مني الطريقة التي زعزع فيها انهيارُ الجنوب رخاءَ الشمال ، وهم يجيدون وصف الذعر الذي دبّ في الأسواق المالية العالمية والإفلاسات المتلاحقة والشركات المتعثّرة والانتحارات والكتب التي صدرت وأظهرت أرقام الفقر الجديد .

بيد أن الأرقام لا تفعل سوى التلعثم بما تصرخ به الشوارع عالياً ، تلك الشوارع المهجورة التي تتجمّد هلعاً . فاجتيازنا شارعاً باريسيًا يعجُّ بالمارّةِ والحركة ، والاكتشاف بأننا نسير فيه وحدنا ، نسمع وقع خطانا ، ونشعر بأننا ملاحقون وربما محسودون بسبب السترة القشيبة التي نرتديها ،

والمرور أمام أحد المقاهي حيث نكتشف أن بوابةً من الحديد تحول دون الدخول إليه ، ونصل إلى مقهى آخر ، ونجد أنفسنا نهمسُ في أذنِ صاحبه ببعض التفاهات القنوعة ، تلك هي الذهنية السائدة في قرن بياتريس .

لم تسيطر هذه الذهنية في كلّ مكانٍ بصورةٍ متزامنة . فقد استغرق انتشار الفقر سنيناً عديدةً . كان وباءً جرثومتُه خمولةٌ ولكنّها معديةٌ بشكلٍ غير قابلٍ للنقاش. وقد تماشت العادات المعيشية معه ، فافتقر العديد من الناس إلى مقوّمات العيش، والأشخاص الذين كانوا يملكون القدرة على الإنفاق أصبحوا يخجلون أو يخشون القيام بذلك . واستشرت أعمال العنف في المدن الكبرى، ولم تعد الأرياف آمنةً كما في السابق .

كانت الإشاعات حول أعمال الخطف مجرّد عارضٍ من أعراض الداء . فتعزّزت الحراسة في دور التوليد وأمام الحضانات والمدارس . وكنت أباركُ السماء كلّ يومٍ لأن بياتريس أنجبت طفلاً ذكراً ؛ فالأشخاص الأخرون كانوا مضطرين لمرافقة بناتهم باستمرارٍ ، وحتى المراهقات منهنّ كنّ يحتجن إلىأكثر من مرافقٍ واحدٍ .

اضطرت كلُّ حكومات الشمال لاتخاذِ ترتيباتٍ أمنيةٍ جبّارةٍ ، غير أن مشهد هذه الإجراءات ، وإنْ ردَعَ البعضَ عن الجريمة ، فقد ذكّرَ السكان المحليين "العاديين"بالتسيُّب الأمني السائد ،ولم يشجّعهم على المغامرة والخروج إلى الشوارع.

وهكذا ، قبع الناس في بيوتهم ، لسوء حظّ التجّار وأصحاب المطاعم ومنظمي الحفلات . ماذا كان الناس يفعلون في منازلهم ؟ كانوا يشاهدون على شاشة التلفاز وقائع العنف اليومي ، في مدينتهم نفسها ، ثم في الدول المجاورة ، والبلدان البعيدة حيث العنف يشكّلُ هاجساً يومياً ، ويستمرُّ دون هوادةٍ في دول الجنوب .

كان عصر الانحطاط والإعياء هذا – ولكن لماذا أتحدثُ عنه بصيغة الماضي؟ فهو لا يزال حاضراً – ، عصر الريبة وكل أشكال الخلط . وصار الأجنبيُّ الغريب الأسمر البشرة والأجعد الشعر حاملاً متقلّلاً للعنف . لم أنظر في حياتي إلى الأمور من هذه الزاوية ، ولن أفعل ما حييت . فالمرأة التي اخترت وأحببت ، والإبنة التي أنجبتها لي ، والصهر الذي استقبلت وتبنّيت ، كانوا ثلاثتهم ينتمون إلى سرب المهاجرين الأسمر ، وأنا بدوري أنتمي إلى هذا السرب عن طريق الارتباط والحب والاقتناع أو المزاج ، وشعرتُ بنفسي متضامناً معه على الدوام . غير أنني لا أرجم بالحجارة جيراني المروَّعين ؛ فأنا لا أزدري مخاوفهم ، وأحرص على عدم الخوض في تحليلها لأنها تكتسب في نظرهم شكل الحقائق المبرمة . فهم يعتبرون أن بؤس العالم أجمع قد اجتاحهم ، وكذلك النقمة التي يحملها البؤس في معيّته ، هذه النقمة المختزنة الوضيعة التي لا يجرؤ بعض المهاجرين على التخلّص منها .

ماذا كنتُ لأقول لو أن الناس ما زالوا يسمعون ؟هل أقول إن الأسلاف يتحمّلون بعض الوزر ؟ وإن وزرنا نحن يخيّم بوطأته علينا ؟ وإنّ البؤس هو مرشدٌ خبيثٌ شأنه في ذلك شأن الرخاء ؟ وإنّ الخلاص يكون شاملاً أو لا يكون ؟ وإنّ ...

ولكن الزمن الراهن لا يتحمَّلَ هذا الخطاب . فعندما نعجزُ عن القضاءِ على الجُذَام ، نتّهِمُ المجذومين أنفسهم ونشيّدُ المحاجر الصحية . يا لهذه الحكمة الأزلية ، يا لهذا الجنون الأزلي .

هاء

بعد كلّ ما كتبتُ ، هل أتجاسر وأضيف أن مآسي العالم قادتني تقريباً إلى حيث أردت الرحيل ؟

أوضّحُ مقصدي . ففي السابق ، كانت كلارنس تتخيّلُ تقاعدنا جولةً حول العالم لا تعرف الملل أو العياء ، وتعتقد أنها لا تحتاج إلى حياةٍ مستقرّةٍ للاستراحة من حُمّى الترحال بل إلى أسلوبٍ آخر في زيارة هذه البلدان نفسها، بتؤدةٍ ودون ساعةٍ أو كرّاسٍ ، دون أيّ التزامٍ ، ولو التزام المتعة ، لا شيء غير نزهاتٍ هادئة .

وجاءت الأحداث لتقف بمرصاد أحلامها المشرقية ، وتمزّق صورتها الاستوائية، فحُرِمَت من الهروب والحلم بسبب وضعها الصحّي ولا سيّما وضع العالم .

عندما كانت مشاريعها لا تزال مطروحةً ، كانت كلارنس تحدّثني عنها عشية نهاراتنا المرهقة ، فأتركها تبحر بعيداً . وفي تلك اللحظات ، أطوّقُ خصرها ، كما لو كنا نقوم بنزهةٍ ساكنةٍ ، وأبعدُ رأسي قليلاً فأتأملُ وجهها المشرق ، وأكتفي بلثم شعرها الذي بدأ يغزوه الشيب وكتفيها السمراوين العاريتين ، ولا أسوّل لنفسي اعتراض مجال رؤيتها .

إنني لا أعارضها بالطبع ، ومع ذلك ، فقد كانت فكرتي عن تقاعدنا مختلفةً تماماً عن فكرتها . هي تحلم بتقاعدٍ كسولٍ كثير الترحال ، وأنا أحلم بتقاعدٍ دراسيٍّ ومستقرٍ – مجهرٌ في حظيرةٍ بمنطقة سافوا . غير أنني لن أفكّر قط بفرض هذه العزلة على صديقتي بل كنت تبعتها على الطرقات ، ثم ، مع تقدُّم السن ، كانت هي التي تبعتني إلى كوخي .وقد شاءت الأقدار أن نغفلَ محطّةً ، هي محطّتها .

كانت أحلامي ، منذ وقتٍ طويلٍ ، تسكن قرب جبال الألب ؛ وجاءت

أحلام كلارنس لتنضمّ إليها . كان كلٌّ منا يتوق الآن إلى العيش في هذا المرصد المعلّق على سطح أوروبا ، فقد نحافظ على تبصُّرنا لو ابتعدنا . وهي الكرامة الأخيرة المتاحة للأشخاص الذين يمضون في طريقهم نحو الشيخوخة.

في العام الثلاثين من قرن بياتريس ، نقلتُ إلى أرافيس مكتبتي وأدواتي ومجموعة الحشرات التي أملكها وثيابي الشتوية . وهكذا تكرّسَ المصيف سكناً نهائياً لكلّ الفصول التي بقيت لي .

بتُّ لا أطيق المدينة ، فالناس فيها يمشون بمحاذاة الجدران ، بهالاتٍ رماديةٍ حول العيون ونظراتٍ كالحة . وأتخيّل أن الوضع كان مماثلاً إبّان الحرب العالمية الثانية عندما كانت الليالي قارسةً وفحمُ التدفئة شحيحاً .

أما اليوم ، فلا حرب ولا صقيع بل إعياءٌ وسأم ، الإحساس بالهزيمة دون اندفاع المحارب ، وفي الأحشاء شتاءٌ لن تقوى أيُّ نارٍعلى التخفيف من برده . لم أعد أتعرف على الوجوه والشوارع ، وأنتفض أحياناً إذ أصغي إلى أفكاري ، فالخوف يولّدُ الكوابيس .

كان خوفي مزدوجاً .فكوني حضرياً ، كنت أرمق بريبةٍ كلّ وجهٍ غير مألوف ، وكلّ تجمُّعٍ ؛ ولو استطعتُ ، لحولّتُ، بإيماءةٍ من يدي، إلى رمادٍ ، كلّ المارة الذين يخيفني ظلُّهم ... وفي أحدى الأمسيات الشتوية ، لمحتُ قرب زاوية الشارع الذي أقطن فيه ، مجموعةً من الشبان قد أضرموا على الرصيف شعلةً من الفرح كان شررها يرسلُ زفيراً . في السابق ، كان المشهد يفرحني ، وربما ألقيتُ على مسامعهم دعابةً وديّةً . أما اليوم ، فقد غيّرتُ وجهة سيري لتحاشيهم، وقبل أن أدخل إلى المبنى الذي أسكن فيه ، حدجتهم من بعيدٍ بنظرةٍ تقطر حقداً .

وإذ دخلتُ شقتي ، وبعد أن أوصدتُ ثلاث مرّاتٍ البابَ المصفّحَ ، استسلمتُ لرعبٍ آخر ، رعبٍ من نفسي ، مما فعلته المدينة المظلمة بي ،

رعبٍ وخجلٍ من النظرة التي صرت أرى من خلالها أمثالي والعالم .

كان يجب أن أبتعدَ ، وبسرعةٍ ، أن أسترجعَ ، في الرحيل، صفائي وسكينتي . وعندما أصبح بمأمنٍ من البشر ، ربما أتعلّمُ من جديدٍ أن أحبّهم .

في الآونة الأخيرة ، كان الشيء الوحيد الذي يربطني بباريس وجود بياتريس وفلوريان ومرسي . ولو اضطررت للهروب ، فيجب أن يرافقني كلُّ أفراد عائلتي.

أنا أميل عادةً إلى السماح للناس ، حتىالأقربين ، بمتابعة طريقهم ؛ فاحترام الآخرين وإن كانوا على ضلالٍ ، كان دائماً شيئاً مقدّساً عندي . أما هذه المرة، فقد عقدتُ العزمَ على انتهاك قدسية موقفي ، وأمعنتُ إصراراً ، متلاعباً على كلّ أوتار الحبّ والخوف ، لحمل ابنتي على حسم قرارها . وكان مرسي يخضع بدوره لإلحاح والديه اللذين يعرضون عليه ، وعلى بياتريس ، وظيفةً في جنيف . و من هناك ، يصلون بأقلّ من ساعةٍ واحدةٍ إلى أرافيس. وأخيراً ، قبلوا العرض فتنفّستُ الصعداء .ولم أستعدْ رغبتي في العيش أو استطعتُ استئنافَ عملي إلا بعد أن أصبحوا على مقربةٍ مني.

لم يكن قد خطر ببالي بعدُ الشروعَ في كتابة هذه الشهادة . فالوقت الذي لا أكرّسُهُ لعائلتي ، كنت أمضيه قرب مجهري ومع مجموعة الحشرات المُغْمَدَة الأجنحة.ولو صدف أن عثرتُ أحياناً في صناديقي على إحدى رسائل أندريه، أو قصاصةِ جريدةٍ مقتطعةٍ أو منسوخةٍ ، فكنت أودعها أحد الدروج دون أن أكلّفَ نفسي عناء قراءتها .

متى خطرت لي فكرة التحوّل إلى مدوّن أحداث ؟ ربما ، بكلّ بساطةٍ ، في اليوم الذي وجدتُ فيه صدفةً مفكّرةً قديمةً لا تزال بكراً تحمل تاريخ السنة نفسها التي ولدت فيها بياتريس . وبقيت هذه المفكّرة أسابيع طويلة على طاولتي ــ دون أن أقرّرَ التخلّص منها أو الاحتفاظ بها . ثم ، رحتُ أتصفّحها ، في يومٍ من الأيام ، وبيدي قلمُ حبرٍ ، ووجدتُ نفسي أدوّنُ على صفحاتها السطور الأولى .

وبعد فترةٍ وجيزةٍ ، ودون أن أصارح أحداً ، ولا حتى كلارنس – ربما لم أكن واثقاً حتى هذه الأيام الأخيرة من قدرتي على إنهاء كتاب بعيدٍ كلّ البعد عن أبحاثي في علم الحشرات – اعتدتُ الاختلاء بنفسي لساعاتٍ طويلةٍ، أكتب صفحةً تلو الأخرى ، على إيقاع الذكريات ، مستهدياً ، من أجل تسلسل الفصول ، بحروف الأبجدية ، من الألف إلى الياء ...

ها أنا قد اقتربتُ من الخاتمة ، وأشعر بعبءٍ قد انزاح عن كاهلي بعض الشيء ، لم أكن أدرك أنني أرزح تحت وطأته . هل يُنشر هذا النصُّ يوماً؟ هل يوجد من يعيره اهتماماً ؟ وبعد كم سنة ؟ أرغب بالقول إنّ الأمر ليس من شأني ، وأيّاً كان مصيره ، فقد انتهى دوري ؛ فعندما نلقي بزجاجةٍ إلى البحر ، نتمنى بالطبع أن يصطادها أحدهم ولكننا لا نرافقها سباحةً .

ثم ، ففي هذه اللحظة ، وأنا لا أخجل من الاعتراف بذلك ، همّي الوحيد هو إبعاد قبيلتي عن اضطرابات العالم وإبقاؤها قدر الإمكان بمنأى عن العنف والإحباط والاحتفاظ بمكانٍ للعيش الرغيد في مملكتي الصغيرة في أرافيس .

لقد حوّلتْ أيامٌ عديدةٌ من الهوايات المجتهدة ملاذي الجبلي أرضاً قابلةً للسكن ، واتخّذَ أمام ناظري شكلَ أرارات – ذاك الجبل في أرمينيا حيث يقال إن سفينةَ نوح قد رَسَتْ ؛ والخوف يكتسح العالم كمياه الطوفان والمشهد قد يبدو عظيماً للذين لم يعانوا البَلَل .

عظيماً ، كم تبدو هذه الكلمة لاذعةً ، فكلُّ مأساةٍ عظيمةٌ ، ومع ذلك، فكلُّ ديمومةٍ عظيمةٌ ... والحقُّ يقال إنني كنتُ أتوقّعُ لقرن شيخوختي روائع وأفراحاً أخرى .

كم من مرةٍ تساءلتُ عن السبب الذي أوصلنا إلى ما نحن عليه . لقد استعرضتُ في الصفحات السابقة الأحداثَ والانطباعاتِ والأسبابَ الظاهرية. وبينما أتهيّأ لمغادرة المسرح ، دون عجلةٍ ودون حسرةٍ ، أشعر أنني لا أزال عاجزاً عن القول ما إذا كان بالإمكان تغيير الأقدار في لحظةٍ من اللحظات ،

وإعطاءها منحىً أكثر انسجاماً مع أحلام البشر . وتبقى حيرتي قائمةً وتصبح ملحّةً أحياناً بالرغم من قراءتي لشهادتي مراراً وتكراراً ، ولنصوصٍ أخرى صدرت في هذه السنوات الأخيرة .هل كلُّ ما حدث كان قضاءً وقدراً ؟ لا أعتقد ، ولا يسعني إلا الإيمان بوجود حلولٍ أخرى ...

غالباً ما أفكّر بهذه المصير الزائل . وأحياناً ، خلال نزهاتي اليومية على دروب جبالي ، مستسلماً لأحلام اليقظة ، أعود ستين عاماً إلى الوراء قبل بداية قرن بياتريس ، وأحاول تخيّل الدروب التي كان الجنس المزعج الذي أنتمي إليه قادراً على سلوكها .

إنني أعيد بناءَ عالمٍ مختلفٍ في الوقت الذي تستغرقه نزهتي ، عالم تكون فيه الحرية والبحبوحة قد انتشرتا من إنسانٍ إلى آخر كالموجات على سطح الماء، عالم يتمثّل التحدّي الوحيد فيه أمام الطبّ في القضاء على الشيخوخة والموت قضاءً مبرماً ، بعد أن تغلّبَ على كلّ الأمراض وقهر الأوبئة ؛ عالم لا يعرف الجهل والعنف ، عالم تخلّصَ من آخر البقع المظلمة . نعم ، وبشريةً تصالحت مع نفسها ، معطاء ومنتصرة ، ترنو صوب النجوم والأبدية .

لكنتُ فخوراً بالانتماء إلى ذلك الجنس البشري .

في أحد الأيام ، لن أعودَ من نزهتي . أعرف ذلك ، وأنتظر الساعة ولا أشعر بالرهبة . سوف أرحل من دربٍ مألوفٍ ، وأطلقُ العنانَ لأفكاري . وفجأةً ، إذ يتملّكني العياء من مخطّطاتي ، والنشوة والفرح ، يبدأ قلبي يختلج وأبحث عن سنديانةٍ ودودةٍ لأستند إلى جذعها .

هناك ، في هذا الوضع ، في ذاك المزيج من الهلع والسكينة المطلقة، تلوحُ لي للحظةٍ أعظمُ رؤيا : فيظهرُ أمامي العالم الذي عرفتُ مجرّد كابوسٍ تافهٍ ، ويتحوّلُ عالمُ أحلامي إلى حقيقة . وأستعيدُ إيماني بـه، كلّ لحظةٍ أكثر من التي سبقتها . وهذا العالم هو الذي ستعانقه عيناي للمرة الأخيرة . ويفترُّ ثغري عن ابتسامةٍ طفوليةٍ تضيءُ لحيتي التي بلون الجبال، وأغلقُ عينيَّ بطمأنينة .



توجد في أسواق الشرق «حبّاتُ فول» عجيبةٌ تقول المعتقدات القديمة إنها تملك القدرة على زيادة المواليد الذكور. وعندما يحصل الراوي، وهو عالِمُ حشراتٍ فرنسيٌّ متخصص في الجعران، على بعضٍ منها خلال رحلة قام بها إلى مصر، لم يكن يعرف أن العالم مقبل على مرحلة حاسمة من تاريخه. فسوف تتضاءل المواليد الإناث في كلِّ أرجاء العالم دون سببٍ وجيه ظاهر. فهل تكون «حبّاتُ الفول» وراء هذه اللعنة؟ سوف يسعى العالِم وصديقته لمعرفة الحقيقة من خلال تحقيقٍ مثير يحملهما إلى المناطق الإستوائية.

هذه الرواية لأمين معلوف، الشرسة والحنونة، المرحة والرصينة، تستدعي أكثر من تاويل. فهي رواية الحب «الأمومي» لأب تجاه ابنته، ورواية رجل متمسك «بانوثة العالم»، ورواية داءٍ غامضٍ يقضي على النساء وينهش الرجال، وروايةُ حولَ انقسام كوكبنا إلى جنوبٍ يتداعى وشمال يتذمر، ورواية اللقاء المرعب بينَ مساوىء السلفية وشرور الحداثة.

وربما كانت هذه الرواية، قبل أي شيء، رواية النهاية المحيِّرة لعصرنا، وهي تلقي نظرةً قلقةً على القرن الحادي والعشرين الحاضر بقوةٍ والذي يدعوه الكاتب بغموض «القرن الأول بعدَ بياتريس».

نعم، «الفراشات»، أعاد المدير القول، وكان لهذه التسمية في فمه مثلما كان لها في فمي، وَقْعُ كلمةٍ عامية، تُرافقُها بالضرورة سعلة خفيفة مُزدَرِية. «أقترح عليك ذلك لأن هناك مكاناً شاغراً، لكني لا أُلحّ، أعرف أن أشخاصاً أكثر شباباً منك ومني قد يترددون في التحول عن موضوعاتهم المفضلة.». لم يكن يلح، إلا أنه، دون أن يلح، كان يعلن، سراً، عجزي عن الخوض في مجال جديد من الأبحاث، في عمر متقدم بهذا الشكل. «لا أجهل أنك، حجةٌ في موضوع مغمدات الأجنحة منذ كنتَ في الثلاثين، ومازلتَ رغم هذه السنوات من الانقطاع. يكفيك أن تقول كلمة واحدة، لأكلفك بهذا القطاع من جديد.» وأوضح بأقل ما يمكن من الإقناع أن الشخص الذي كُلِّف به طيلة غيابي سيتنحّى بطيبة خاطر.

لقد فهمت. «تَحَوّلْ إلى الفراشات!» لم أكن أريد أن تَقلِب عودتي المواقعَ المكتسبة. ثم إن التحدي كان يثيرني. كنت أشعر بأنني قادر تماماً على ارتياد طرق جديدة، وأتعجل لأبرهن على ذلك.

سيقال لي، ليس هناك داعٍ للمبالغة، إذ أنني لم أكن أغير مهنتي، ولا حتى مادة عملي. وما زلت في موضوع الحشرات. ولكن الشَّبَه بين الجُعَل وفراشة الأستياناكس، يعادل الشَّبَهَ بين النسر وقرد الشمبانزي تقريباً. لاشك أني في دراستي لعلم الحشرات، درست جميع الفصائل والرُّتيبات، الحرشفيات ومزدوجات الأجنحة، كبيرات الفكوك وعديمات الأجنحة. لكن الأمر كان مجرد مرور سريع، وتمَّ ذلك قبل سنين. ثم إنني، وهذا ما وجدتُ الفرصة للإشارة إليه، كان لدي ما أشغل به

أيامي بوجود أنواعي الثلاثمئة والستين ألفاً من مغمدات الأجنحة! قلت لنفسي، لابأس، سأتدرب بشكل إضافي، حتى لو اضطررت للاستغراق من جديد في جميع الكلاسيكيات القديمة بدءاً بـ لينّيه(1).

هكذا وأثناء قراءاتي الاعتباطية تعرفت على فراشات من نوع الأورانيات. لاشك أنها ذُكرت أمامي في أحد الدروس، فالاسم لم يكن غريباً عليّ. لكني لم أكن أعرف شيئاً عن ردائها أو عن عاداتها.

إنها كبيرة بحجم يد طفل، محززة بالأخضر المعدني، والأسود اللامع، وأحياناً أيضاً بالأحمر البرتقالي، وإلى الوراء شريط حاشية أبيض. يمكن مشاهدة الأورانية في مناطق مختلفة من الكرة الأرضية، من المحيط الهادىء إلى مدغشقر، ومن الهند إلى الأمازون. النوع الذي استرعى انتباهي بشكل خاص هو ذلك الذي يُعرف باسم أورانيا ريفيوس، والذي نجده خاصةً في أمريكا المدارية.

استطاع العلماء الذين اهتموا بها أن يلاحظوا ظاهرة مفاجِئة وتستحق المشاهدة: في أيام معينة من السنة، تتجمع عشرات الآلاف من هذه الأورانيات في أماكن من الغابة متاخمة للمحيط، ثم تطير إلى الأمام بشكل مستقيم، مئات الأميال البحرية، إلى أن تقع من الإنهاك وتغرق، كونها لم تجد أية جزيرة تحط عليها.

(1) شارل لينّه: عالم طبيعيات سويدي صنف النباتات إلى 24 طبقة، وكان تصنيفه لمملكة الحيوان، فريداً بالنسبة لعصره 1707 - 1787 .

تضع بعض الإناث بيوضها في الغابة قبل الهجرة، الأمر الذي يضمن بقاء النوع؛ لكن معظمها تطير وهي ماتزال في مرحلة الحمل، جارَّةً ذرِّيَتها إلى انتحارها الجماعي.

سحَرَني طيرانُ الأورانيات منذ اللحظة التي وقع فيها نظري على بيان الملاحظات الأولى. كنت أتساءل إذا كانت هذه الرحلة إلى العدم تعكس «عطلاً» في غريزة البقاء، أو خللاً وراثياً، أو «خطأ» مأساوياً في نقل الإشارات المرمَّزة التي يبدو أنها تحكم هذه الهجرات؛ وكان بوسعنا مضاعفة الفرضيات.

إنها لحظة مباركة في حياة باحثٍ، تلك اللحظة التي يكتشف لنفسه فيها هوىً جديداً، كنت أحتاج إليه في هذه المرحلة من تجوالي. استوطنني موضوعي هذا إلى درجة نجحت معها بدون مشقة، في إقناع الطلاب الذين يصل عددهم إلى حوالىالخمسة عشر طالباً، ممن كنت أدير أبحاثَهم، أن يخصصوا جزءاً من وقتهم للأورانيات. أغريتُهم ، دون أن يكون في نيَّتي خداعهم، برحلة إلى كوستاريكا. إلا أنني لم أنجح في الحصول على الاعتمادات اللازمة لبعثة حقيقية للدراسة. أتساءل، فيما إذا تخطيت هذه العقبة، كيف سأتمكن من الابتعاد عن باريس ـ أي عن بياتريس ـ طوال الأشهر التي قد يحتاجها بحثٌ من هذا النوع، في وقتٍ كانت كلارانس متغيبة فيه غالباً.

يحدث لي حتى اليوم أن آسَفَ لكوني لم أقم بتلك الرحلة. إلا أني أعزِّي نفسي، يساعدني السن الذي أنا فيه، بالقول بأن

رصد الموضوع على أرض الواقع شيء مفيد لكنه مضجر، وأنه لا يضيف، بالتأكيد، شيئاً للوقائع المعروفة مسبقاً. كان من المفهوم والمشروع بالنسبة لأعضاء فريقي أن يعكفوا على أعمال الرصد التي أجراها آخرون من أجل تمثُّلها ومحاولة تفسيرها.

استطعنا أن نصوغ بعض الفرضيات التي كانت مادةً لدراسة وافية لم تعطني الظروف متسعاً من الوقت لنشرها، ومازال موجودة في أدراجي. أعبر فيها عن رأي مفاده أن سلوك الأورانيات ليس نتيجة فقدان غريزة البقاء، بل على العكس، هو نتيجة بقاء رد فعل سَلَفي مازال يقود هذه الحشرات إلى أماكن كانت في الماضي تتكاثر فيها، ربما جزيرةٌ يُحتَمَلُ أنها اختفت. هكذا يكون انتحارها الظاهري فعلاً لا إرادياً سبَّبَهُ سوءُ تكيُّفِ غريزة البقاء مع حقائق جديدة. فتَنَتْ هذه الأفكار طلابي، إلا أن بعض الزملاء أبدوا تشككاً إزاء التعبير.

شغلت الأورانيات قوام العامين الأولين من مهنتي العلمية التي استعَدْتُها. كنت أخصص الوقت الذي يتبقى، لـِ أرافيس، حيث كانت بياتريس ترافقني أحياناً وتشارك في الأعمال. كان المنزل يتخذ شكلاً وروحاً، رغم وسائل الراحة التي هي أقرب إلى البدائية. التنازل الوحيد الذي قدَّمتُه للتجهيزات الحديثة، أني ركَّبتُ فيه ذلك الجهاز المريح الذي يسمح بتشغيل التدفئة عن بعد، من أجل تفادي الانزعاج من دخول مكان واسع جلَّدَهُ البرد. لم يكن يمضي قط أسبوعان دون أن

أذهب إلى هناك، ولم تكن تردعني عن ذلك حتى كثافة الثلج على الطرقات.

لم تأت كلارانس إلى المكان أبداً بعد، إلا أننا اتفقنا على مشروع قضاء شهر من الصيف فيه، نحن الثلاثة معاً؛ شهر هادىء، وحياة بيتية، ساكنة، ومُرَمَّمة. كانت هذه الكلمات توقظ لدى رفيقتي رغبة حلوة كانت تُجبر نفسها على إسكاتها. كانت تعترف أحياناً في ظلام غرفتنا، ببعض التعب، ولكنها اختارت أن تكون عَجَلةً في آلة، ولم تعد تشعر أن لها الحق بالتوقف، حتى من أجل استراحة. لم تكن تريد أن يقف ضَعفُها عائقاً في طريق معركتها، أياً كان الثمن.

تمكنتُ مع ذلك، من أن أنتزع منها وعداً بذلك الشهر من السلام، مركِّزاً بصورة خاصة على أن ابنتنا لن تلبث أن ترفض فكرة قضاء العطلة مع «أبويها العجوزين»، وأنه يتعين على أمها أن تُلازِمها أكثر، أن تكلمها وتستمع إليها. رغم احترامي لالتزام كلارانس، وكذلك لكيفية تنظيمها لوقتها، فقد كنت مصمماً أن أمارس جميع الضغوط اللازمة من أجل حملها على الوفاء بوعدها.

لم أحتَج للأسف، لاستخدام قدرتي على التأثير، ولا قدرتي المشكوك بها على الإقناع. يدٌ مجهولة اتخذت القرار بدلاً منا، بأكبر قدر من الفعالية العنيدة.

U

ذهبت كلارانس في جولة في أفريقيا. قررت، في اللحظة الأخيرة، حريصةً على تجنب إخباري بالأمر، أن تتوقف لمدة يومين في نايبوتو. صحيح أنه لم يُشَر فيها منذ شهور لأية مجازر، إلا أن الوضع هناك كان مايزال غامضاً، متقلباً، و«سريع التطاير».

أرادت رفيقتي إعادة الصلة بالبلد، وإعادة تنشيط أحد هوائيات «شبكة الحكماء» الذي تَشَكَّلَ فيها ولم يتمكن من إيصال صوته؛ كانت تأمل بالمناسبة ذاتها أن تلتقي ثانيةً ببعض الأشخاص الذين تعرفت إليهم في رحلات سابقة، وخصوصاً نانسي أوهورو، مالكة الـ «مانسيون»، التي ربطتها بها صداقة أثناء إقامتنا، قبل اثني عشر عاماً.

عند وصولها إلى المطار، حيث كان يخيم مايشبه النظام، ولكن بدون أي دفق آخر سوى دفق المتسولين، أدهشَها أن تضطر إلى تقديم شرح عن المكان الذي توجد فيه أوهورو مانسيون، لسائق سيارة الأجرة الشاب جداً. كان عليها منذ ذلك الوقت أن تحذر، وأن تزيد من حذرها حين نبَّهها الرجل بأن الطريق لم يعد مطروقاً جداً.

مع ذلك لم تكن السيارة تبعد أكثر من دقيقتين عن الهدف حين اعترض طريقَها رجالٌ بثياب عسكرية؛ أُجبر السائق على

التوقف قرب متراس موجَز ـ غصن شجرة ضخم، وبرميل مبقور، وبعض الأحجار المكومة، وبشكل خاص رشاشات مصوَّبة ـ . كان الأمر يتعلق حتماً بواحدة من عصابات الجنود الذين تحولوا إلى السلب والذين كانوا يعيثون فساداً في طول البلاد بكاملها. كانت الصحافة الأجنبية تقول بأنهم ما عادوا ينفذون عملياتهم في جوار العاصمة؛ كان واضحاً للعيان خطأ ذلك الكلام.

تلقت كلارانس الأمر بالنزول من السيارة. كان سائقها ينتمي بالمصادفة، للجماعة العرقية ذاتها التي ينتمي إليها اللصوص، بحيث تركوا له سيارته، مكتفين بـ «مصادرة» أمتعة المسافرة التي برفقته. عندما احتجَّت هذه ورفعت صوتها، مهدِّدة، ووصلت إلى حد انتزاع حقيبة اليد التي تحتوي على جواز سفرها، ونقودها، ومفاتيحها، وأوراقها من أحد المعتدين، تلقت ضربة عصا على مؤخرة جمجمتها، طرحتها أرضاً، فاقدة الوعي.

جرَّها السائق إلى السيارة، وحصل، بعد نقاش ممل وصبور، على الإذن بمتابعة طريقه.

للحظ السعيد جداً، كانت نانسي أوهورو هناك، ودائماً بالقدر ذاته من الرحابة والابتسام رغم خراب الـ «مانسيون» الذي تملكه، والذي لم يجازف أي زبون بطبيعة الحال، في الذهاب إليه منذ زمن طويل جداً. نقلت كلارانس إلى مستشفى يديره الصليب الأحمر، حيث تم تشخيص صدمة خطيرة في الجمجمة.

حين وقع الحادث، كانت نانسي أشد انشغالاً بمصير الضحية وبوسائل الرعاية التي كانت تقدم لها، من أن تحاول

الاتصال بي؛ فضلاً عن أنها لم تكن تعرف إحداثياتي، كما لم تُترك لـِ كلارانس أية ورقة يمكن أن تشير إلى عنوان.

تابعتُ إذن حياتي الروتينية اليومية خلال خمسة أيام، دون أدنى هاجس، ودون أدنى شعور بالقلق، فلطالما اعتادت رفيقتي أن تمضي أوقاتاً طويلة دون أن ترسل أي خبر عنها.

تلقيتُ من جنيف، من مقر الصليب الأحمر، رسالة على مسجلة هاتفي، ليس فيها سوى رقم هاتف وطلب بالاتصال العاجل.

أية لحظة كانت الأسوأ؟ ليست تلك التي علمتُ فيها بالهجوم الذي وقعت كلارانس ضحية له، وبخطورة حالتها. لا، فقد خشيت ذلك منذ تلقيت المكالمة، كانت شفتاي تهمهمان فقط بصلاة محمومة: «فلتكن على قيد الحياة!». أسوأ اللحظات لم تكن كذلك تلك التي لمحتُها فيها، ممددةً، وماتزال غائبة عن الوعي، «مضمدة» مثل مومياء، ومحاطة بأجهزة مضيئة وذات دوي. لا، أسوأ اللحظات كانت تلك التي، سمعتُ فيها، بعد أن طلبت الرقم في جنيف، و عددتُ رنات الجرس الأربع، حركةَ رفع السماعة، واضطررت أن ألفظ فيها مقاطع اسمي بانتظار الحُكم.

ـ لدي خبر خطير أخبرك به، لكن الشخص المعني حي، وحالته ثابتة. لابد أنك رفيق كلارانس...

إنها حية. حية. هذا كل ماكنت أطلبه من السماء.

أخبرني الصوت ببضع كلمات بما حدث لها، وأشكال

العناية التي أُغدِقت عليها حتى اللحظة. كانوا ينوون إعادتها إلى باريس خلال الاثنتين والسبعين ساعة.

ـ لو كانت المهلة أطول، كنا اقترحنا عليك أن تذهب لتلازمها قرب سريرها.

كان من الواضح أن لدى الرجل الذي كلمني، عادة التعامل مع ذوي الأشخاص الذين تعرضوا للحوادث. بدت نبرة صوته منخفضة ورزينة لاتدَّعي أنها تُطمئِن مجاناً، وهذا هو بالذات، مايجعلها تبدو مهدِّئة. كان يستَبِقُ المطالبَ التي كان يمكن أن أصوغها، يلتفُّ عليها، متمكناً في نهاية الأمر من جعلي أصبر أطول وقت ممكن حتى لا أذهب وأضطرب بين أقدام فرق الإنقاذ.

ـ سأقترح عليك أن توافينا فقط إلى المستشفى.

بعد ثلاثة أيام من ذلك، استقر بي المقام فوق كرسي بلاستيكي قرب سرير رفيقتي الهامدة، رأسي بين يديّ، ومرفقيّ مغروسان في فخذيّ. وإلى جواري بياتريس، صامتة، بعينين مغضَّنتين ومحدِّقتين، كما لو أنها كانت تتعلم الوقار.

في الأيام الأولى، بقيتُ هناك، متضايقاً في جلستي، شديد التحرك، مشتَّتَ الذهن، أستعرض صورَ الماضي. بدأت بعدها أحضر وبحوزتي كتاب؛ ومن وقت لآخر، كنت أحاول الكلام بصوت مرتفع حين أكون وحدي مع كلارانس، مخاطباً إياها، أطمئنها عن حالتها؛ فقد قرأت أن المرضى، حتى وهم

في غيبوبة، قادرون على سَماعِ وفَهْمِ مايقال حولهم، وأنهم حتى لو لم يتذكروا الكلام حين يعودون إلى الوعي، فإنه أحياناً يرفع معنوياتهم. قال لي، طبيبُ أمراض عصبية يشرف على حالتها، كلمةً في ذلك، دون أن يكون قصده تماماً إعادتي إلى الصواب. «بلا شك، حين لا تكون الغيبوبة عميقة جداً...» أما في عينيه الماكرتين فكنت أقرأ: «إذا لم يستطع ذلك أن يساعد المريض، فربما يساعد أقرباءه.»

صحيح أننا، بياتريس وأنا، كنا أكثر هشاشة، في تلك الأيام، من كلارانس. تذكرتُ آنذاك جملةً قالتْها رفيقتي في أحد لقاءاتنا الأولى. كنت قد قلت لها للتو إننا حين نحب أحداً، فإن أكثر مانتمناه هو مغادرة العالم قبله. أجابت بصوت عابث: «الموت فعل أناني!» هل كانت الحالة التي هي فيها حالياً، أقل أنانية؟ كان يمكن أن تنتقل من لامبالاة الغيبوبة إلى لامبالاة الموت دون نظرة إلى الشخص الذي كان يحبها، والذي لن يستعيد، في حال موتها، طعم العيش ذاته قط؛ كان هذا الهجر يبدو لي فظاً بعض الشيء.

كما يُرى، لم تكن جميع الأفكار التي مرت ببالي آنذاك، حنونة إزاء كلارانس. كنت مغتاظاً لمخاطرتها بنفسها بهذا الشكل، أكثر مما كنت حاقداً على المجهول الذي ضربها. لم يكن لهذا الأخير، في نظري، وجودٌ أو مسؤولية. كان ينتمي إلى تلك الكائنات الوحشية، التي يزداد عددها يوماً بعد يوم، وربما يتضاعف أيضاً، كائنات ظُلِمت بقدر ما ظَلَمت ، وحوش ولدت من العماء وعملت على استمراره. أما كلارانس، فأي عذر يمكن أن يكون لها؟

كنت أحمل عليها بعينيَّ، وفي اللحظة التي تلي أحضنها ثانية، واعداً إياها، إن هي بقيت على قيد الحياة، ألا أبتعد عنها بعد الآن وأن أرمم كل عاهاتها، مقابل هذه الهدية.

وقع حادثها في منتصف آذار، في 14 منه تماماً؛ وبعد ظهيرة يوم 2 تموز فقط، تحركت شفتاها من جديد. لم تكن تقول شيئاً مفهوماً بعد، ولكن ذلك كان انبعاثاً من الموت. صحيح أن الأطباء طمأنوني في وقت مبكر جداً حول الشيء الجوهري: الدماغ ليس متضرراً؛ وكان يكفي أن ننتظر، وستتحرك ثانيةً بالتأكيد، ستتكلم، وستنهض. أما أنا، فلم يكن ذلك أكثر من كلام منمَّق بالنسبة لي؛ فقد كنت أنتظر كلمات كلارانس أكثر مما أنتظر كلمات الأطباء.

في يوم 2 تموز ذاته ـ تاريخ مبارك إلى الأبد ـ فتحت عينيها، ورأيت جيداً أنه داخل هذه الضمادات كان مايزال يقيم ذلك الذكاء الذي فتَنَني.

أصبح باستطاعتي، منذ الآن، أن أرصد ولادتها الثانية من ساعة إلى ساعة؛ كنت أكلمها طويلاً، وكان يبدو أنها تسمع دون تعب، وتبتسم أحياناً، تؤيد، أو تُشكِّك. تتكلم قليلاً وبشكل بطيء، إنما بقدرٍ من الوضوح جعَلَني أطمئن بعد مضي بضعة أيام، على مَلَكاتها العقلية.

كان عليها أن تجرجر آثار ذلك العدوان وقتاً طويلاً أيضاً. وسوف تكون كل السنين القادمة بالنسبة لكلينا، بمثابة إعادة تربية صبورة، وصعود جديد وبطيء. ولكننا توصَّلنا، إلى رؤيةِ فرصةٍ مؤاتية في هذه النكبة: «في الوقت الذي يميل

فيه الآخرون إلى الانحطاط مع تقدم العمر، قالت كلارانس، أستعيد أنا، في الخمسين من عمري، امتيازاً يخص الأطفال، هو امتياز التقدم خطوة خطوة، وإعادةُ تعلُمِ الحركات والمباهج.»

كانت تقول ذلك بوجه فيه قدر من الطراوة والطلاقة أقنعني أن كل كائن يحتاج إلى سقطة قوية قبل أن يصل إلى السفح الآخر من حياته. الأفراد والمجتمعات الإنسانية، والنوع البشري أيضاً. ربما كان ذلك هو ثمن الرمق الجديد.

٧

في العام العشرين من قرن بياتريس، في شهر تموز، وبينما كانت كلارانس متشبثة بذراعي، تقوم بنزهتها الصباحية من طرف المسكن حتى طرفه الآخر، أُعلن في شكل عاجل ولاهث، نبأ وفاة عبدان، زعيم ريمال، «الجنرال الشديد التُّقى»، الحاكم الطاغية منذ ستة عشر عاماً، لبلدٍ من أكثر بلدان الجنوب غنى.

لو حدث هذا الاختفاء قبل بضع سنين خلت، لما أثار لدينا إلّا ارتياحاً مشروعاً؛ فقد عشنا، شباباً، تلك الأوقات المرحة التي كانت تتساقط فيها تلك العظاءات، الواحدةُ إثر الأخرى. لعبة بولينغ فظيعة كانت أعيُننا تتسلى بمرآها. لكن الزمن غيَّرَنا، تعلَّمْنا أن نخشى الفوضى أكثر مما نخشى الاستبداد. حصل منذ أحداث نايبوتو، من الانهيارات، ونتج عنها من الأعمال الوحشية، ومن الانكفاءات، أكثر بكثير من أن نتحمَّس للتغيير بحد ذاته فقط، وأكثر بكثير من أن تغرينا الشعارات. سيكون مضحكاً، أليس كذلك، أن أسأل إن كنت أنا من يشيخ أم التاريخ، لكن الجواب لايبدو لي بديهياً دائماً.

وضع عبدان حين وصل إلى الحكم، حداً لملَكية فاسدة قطعاً. قال حرية وجمهورية، وعادت هاتان العذراوان اللتان انتُهِكتا ألف مرة، عذراوين من جديد؛ كنا بحاجة للإيمان،

وتَرَكّنا عبدان نؤمن. وحين أعدَمَ بالرصاص، بعد وصوله إلى سدة الحكم بوقت قليل، أحدَ معاونيه الطموحين للغاية، أشَحْنا بوجوهنا، مقتنعين بأنه لاينبغي إدانة تجربته بناء على هذا الفعل الذي هو دفاع مشروع عن النفس. مقتنعين أيضاً، ولكننا لم نكن آنذاك نقدِّرُ ما ينطوي عليه موقفُنا، أننا بصفتنا أبناء الشمال، وأصحاب الثروة، المحظوظون، والمستعمِرون القدامى، لا يحقُّ لنا أن نعطي دروساً لشعوب الجنوب.

أكرر، لم نكن، بأي شكل من الأشكال، نرى ماينطوي عليه موقفنا. نحن ـ أقصد أنا، وجيلي والأجيال التي كانت تحيط بنا ـ كنا نثور إذا أُسكِت أحد المعارضين الأوكرانيين، أما إذا أُلقي بأحد الريماليين في زنزانة، فإننا نهتدي فجأةً إلى مفهوم عدم التدخل، الذي كان منسياً. لنصدق أن إزالة الاستعمار بدأت مع بيلاطس البنطي[1] . ربما كانت هذه هي الطريقة التي انحفر بها في الأذهان ذلك «الصدع الأفقي»، الخط الذي يقسم القيم الأخلاقية، أو مثلما قال فيلسوف منسي من أيام طفولتي، الخط الفاصل بين «البشر وبين سكان البلد». في الوقت ذاته الذي انحسر فيه التمييز العنصري، فَرَضَ مفهوم «التطور المنفصل» نفسَه على صعيد الكوكب بأسره: الأمم المتحضرة، بمواطنيها، ومؤسساتها، من ناحية، وتلك الـ «بانتوستانات»، أو المحميات الجذابة التي تُساس وفقاً لأعراف أهلها والتي كان يُفترض أن تُذهِلَنا، من ناحيةٍ أخرى.

أذكر أنني التقيت بأحد الجامعيين الريماليين، وصل به

(1) بيلاطس البنطي: حاكم يهودا في العهد الروماني. حوالىالقرن 39 بعد الميلاد.

الأمر إلى حد الأسف على أيام «البعثات الحضارية»؛ كان هناك على الأقل إقرارٌ، حتى لو لم يكن إلا على المستوى النظري الخالص، بأن جميع الناس كانوا قابلين للتحضر. وكان الموقف الأكثر إضراراً في رأيه، هو ذلك الذي يقوم على «التأكيد بأن الجميع متحضرون، بحكم التعريف، وبالدرجة ذاتها، وأن جميع القيم متساوية، وأن كل ما له علاقة بالإنسان هو إنساني، وأنه يتعين على كل واحد بالتالي، أن يتبع الميل المنقوش على جذوره».

كان الشاب يخفي غيظه الشديد بستار من التهكم البارد: «في الماضي كنا نعاني من عنصرية مزدَرِية؛ واليوم نخضع لعنصرية موقِّرة. غير عابئة بتطلعاتنا، لكن الإحساس بثِقَلنا قد لَيَّنَها. يتحول أَخَسُّ أشكال البقاء، وأكثر التشوهات إذلالاً، إلى «إرث ثقافي». لكلٍّ قرنُه!»

كان ذلك هو شعور العديد من الريماليين، خاصة ضمن الشريحة الأكثر تعلماً. أما عبدان، فكان على العكس، يغتبط برؤية الآخرين يُقِرُّون بخصوصيته، وأصالته. كان يختال بالثوب التقليدي الفضفاض لكي يوحي جيداً بأنه ينوي أن يلعب لعبة السلطة حسب قواعده الخاصة، التي ينظر إليها الأجدادُ بعين الرضى التام. وحين تصمتُ أصواتُهُم الأَلْفيَّة، أحياناً، كان عبدان يعرف كيف يتكلم من بطنه، وكيف يكون مُلَفِّقاً بطيبة خاطر.

بقيت هذه المهارة كافية لزمن طويل. وكان رعاياه طيِّعين؛ ونحن، أهل الشمال، كنا مفتونين. ألم يكن مرتشياً؟ ألم يكن منحل الأخلاق خلف أسوار قصوره العالية؟ لكنه في الشوارع، كان يحافظ، بمساعدة الهراوات، على الورع

الجماعي. ألم يعيِّن أخوَته العديدين وأبناءَ عمومته في جميع المناصب الهامة؟ لو حدث هذا في الشمال، لَتكلَّمَ الناس عن محاباة الأقارب؛ أما والأمر يتعلق بالجنوب، فكان يقال «قاعدة عائلية». كان العديد من المفاهيم يحتاج للترجمة بهذا الشكل بمجرد أن يجتاز «الصدع الأفقي». كلارانس هي التي لفتت نظري إلى ذلك: الأوروبي الذي يعارض النظام الاستبدادي كان يسمى «منشقاً»؛ لكنها حين تكلمت يوماً في مقال لها، عن «منشق أفريقي»، عمد أحد رؤساء التحرير، وقد حَكَمَ بأن الكلمة في غير مكانها، إلى استبدالها من تلقاء نفسه، بكلمة «مُعارض»، دون أن يشعر حتى بالحاجة لاستشارتها، كما لو أنه يصحح خطيئة في الأسلوب أو في الإملاء. ويندرج تحت منطق الأفكار ذاته، أن يسمى عامل من الجنوب يقيم في الشمال «مهاجر»؛ ويقال لعامل من الشمال يقيم في الجنوب «مغترب». فدعونا لا نخلط الأمور!

لا أريد مُراكَمَةَ الأمثلة، نيتي الوحيدة هنا هي أن أذكِّر من هم دون الثلاثين، أو الذين ربما يكونون قد نسوا، أيَّ جوٍّ كان يسود آنذاك، وأيَّ ضباب كان يتشكل مثل ستار بمجرد أن يتعلق الأمر بالاضطرابات التي تحدث في الجنوب.

حدثت الانتفاضة ضد عبدان قبل الفجر بقليل. دخل ضباط من الحرس إلى مكان حريم الجنرال، وذبحوه مع الزوجة التي كانت تقاسمه ليلته؛ وفي اللحظة ذاتها، استولى عسكريون آخرون على مقر التلفزيون ليعلنوا موت «الطاغية الكافر، المارق، المخادع، خادم الغرب المفسِد والمعقَّم»، ويَدْعوا الشعب للثورة. في الحال لُبِّيَت دعوتهم، إذ كان لهم

بلا شك مساندون أقوياء في أحياء مختلفة. هوجم أقرباءُ الجنرال أولاً، وأفرادُ عشيرته، ومعاونوه. وفي وقت آخر من النهار، ودون أن يُعرف إن كان الأمر استمراراً للمخطط الثوري ذاته أم أن انزلاقاً قد حدث، هوجمتْ الأبنية الحديثة التي كانت تضم مكاتب الشركات الأجنبية. ثم تدفقت الجموع باتجاه الأحياء السكنية حيث كانت فيلات المستوطنين الأوروبيين تتجاور مع فيلات الريماليين الأثرياء؛ صار الأمر عندئذٍ إسرافاً في القتل والاغتصاب والتعذيب والتدمير؛ من ناحية أخرى حدث تدميرٌ أكثر مما حدث نهب، مثلما لاحظ شهود بقوا على قيد الحياة؛ لم يكن المنتفضون يطلبون شيئاً، ولا يسرقون شيئاً، لم يكن يشوب حقدَهم أيُّ طمع.

من المهم توضيح ذلك، لأنهم تكلموا آنذاك ـ بل إنني أقرأ ذلك حتى اليوم، في بعض الكتب غير الدقيقة ـ عن «نايبوتو جديدة». أليس في إطلاق هذه التسمية على كل انفجار مفاجىء يفضي إلى الفوضى الشاملة، شيء من التبسيط؟ مع أنه كان يوجد بين الحدَثينْ، ذلك الاختلاف في طبيعة كل منهما، الذي أشار إليه إمانويل لييف في خطابه بنيويورك، والذي كان الأشخاص القريبون من شبكة الحكماء ومن مشاغلها، وحدهم القادرون آنذاك على كشفه. لكي أبسّط أقول: إن المنتفضين في نايبوتو كان مايزال لديهم نساء، إلاّ أنه لم يعد لديهم بنات؛ أما الذين انتفضوا في ريمال، بدءاً بالضباط المتمردين، فكانوا يشعرون أنهم محكومون بقضاء حياتهم كلها دونما نساء، أو أطفال، أو أسرة.

لماذا في ريمال تحديداً؟ بلا شك لأنه في هذا البلد الغني والمتقهقر رغم غناه، استُخدِمت «المادة» والوسائل الشبيهة

بها في وقت مبكر جداً، وعلى نطاق واسع جداً. لم يكن الإيمان بالتفوق المطلق للذكر، أمر مسلَّم به إلى هذا الحد في أي مكان آخر، ولم تكن التكنولوجيا الحديثة، وخاصةً في مجال الطب، سهلة المنال بهذا الشكل، في أي مكان آخر من مناطق الجنوب. انتشرت وسائل الولادات الانتقائية بسرعة كبيرة، بين كل شرائح السكان الحضر أو الرُحَّل دون أي حاجز أخلاقي أو مالي. أما في نايبوتو، وفي أكثر السنين مَحْلاً، فكانت ماتزال تولد بنت بين خمسة مواليد أحياء؛ بينما كانت النسبة في ريمال، ولعدة سنين متتالية، أقل من بنت لعشرين صبياً ـ وليس هذا أكثر من تقديرات، بطبيعة الحال، فقد كان عبدان أحد أوائل القادة الذين منعوا نشر وحتى جمع الأرقام التي تخص السكان.

هل كان ذلك عدم وعي؟ هل كان عماء مجرماً؟ تلك هي الكلمات التي استخدمتها الصحافة في الأيام التي تلت سقوط زعيم ريمال؛ مع ذلك لم يكن ذلك الزعيم يختلف في شيء عن قادة العصر الآخرين. قلائل جداً هم الذين كانوا قادرين على التأمل بِرَصانةٍ، في مسائل قد لاتُطرح إلا بعد خمسة عشر أو ثلاثين عاماً؛ كانت الغالبية تفضل تركها إرثاً مسموماً لذاك الذي سيكون له التغطرس الكافي وهو يتحول إلى وريث.

من ناحية أخرى، كان الجميع يعتقدون بأن ريمال سوف تبقى في منأىً عن الاضطرابات التي تهز الجنوب. كانوا يتظاهرون أنهم يلعنون قبضة عبدان الشديدة، أما حين يرون ما كان يحدث في كل مكان تقريباً، فكانوا يباركونها بصمت.

في إحدى المرات ـ أذكر أن ذلك حدث قبل الانفجار بثلاثة أو أربعة أعوام ـ ، أحصَتْ منظمةٌ إنسانية أنه حدث في

ريمال في الإثني عشر شهراً الماضية، ثمان مئة وخمسون عملية إعدام حتى الموت بتهمة الاغتصاب؛ طلب المستبدُ تقديم الإجابة التالية: إنه امتثل لقانون بلاده، وتقاليد شعبه، وبأنه لن يدع نفسه تنجرُ إلى الدروب التي تقود إلى الهلاك. كان الرد على هذا القول يزداد صعوبة أكثر فأكثر، لاسيما أنه كان معلوماً علم اليقين بأن الاغتصاب لم يعد جنحة فردية، بل صار تعبيراً عن عدوانية شاملة يخشى الجميعُ هيجانَها.

ربما تُفهم الآن وبشكل أفضل، الحيرةُ التي وقعنا فيها أنا وكلارانس، في ذلك الصباح من شهر تموز. منذ المساء، وفي اليوم التالي بصورة خاصة، حين عُرفت أنباء المجازر، لم يعد هناك مكان كبير للغموض؛ كان يتعين علينا، للأسف، الانضمام للشعور السائد، شعور المسؤولين، ووسائل الإعلام، والناس في الشارع الذين كانوا ينتهون، وهم يبدون التحفظات إزاء الشخص المخلوع ونهجه، إلى الإعراب عن الأسف على أيام الفساد، والاستبداد، والازدواجية، باعتبارها أيام عصر ذهبي.

كان في السُعار الذي تدفق على ريمال، شيء ملحمي في هوله ومغالاته. لا أريد، عبر هذه الكلمة، أن أمنح الجريمةَ طابعَ النُبل، ولا أن أضفي الرِفعةَ على الجنون المدمِّر. لا، أحاول فقط أن أوضِّح أن الأحداث اكتسبت، منذ الأيام الأولى، معنى رؤيوياً مرتبطاً بقيامة العالم. كما لو أن شيئاً يتعذر إصلاحه قد حدث للتو، كما لو أن البشرية بكاملها وعَتْ فجأةً كابوساً كانت قد تمكنت، من إخفائه، إلى حد ما، عن نفسها. كان هناك بالطبع، صور الرعب، وعدد الموتى، الذين كان

بينهم مئات الأجانب ـ حتى الحكومات التي تتباهى بالشفافية، لم تكن تجرؤ أن تؤكد الأرقام ـ. ولكن هناك المزيد من الشعور بأن قسماً من العالم، القسم الأكبر، والأكثر ازدحاماً بالسكان، كان يتحول إلى منطقة ممنوعة، إلى أنصال ما عاد بوسع أحد أن يجازف بعبورها، ولن يلبث أي تبادل أن يصير مستحيلاً معها.

ودفعة واحدة، أدرك الشمال أن هذا «الكوكب الذي في الأسفل»، الذي اعتاد أن يعتبره ثقلاً ميتاً، كان يشكل جزءاً من جسده الخاص، وراح فجأةً يعيش انهيار الجنوب كأنه تَشَوُّه أو، أسوأ، كأنه غنغرينا.

أي عزاء ضئيل، أنّ كسر العالم سيكون له أفضل أثر مرَمِّم بالنسبة لبيتي الخاص.

لم يبدُ لي أبداً أن هناك أدنى شراكة بين كلارانس وبياتريس ـ كما لايوجد أيضاً أي تضاد ولا أي خلاف ـ . كان يبدو لي أنهما بقيتا غريبتين الواحدة عن الأخرى بطريقة لاشفاء منها. كنت أجتهد في محاولة تقريبهما، فأوجِد بينهما كلما سنحت الفرصة، لقاء وجهاً لوجه، تهامساً، أو مسارّة... بلا طائل. بقيتْ أُسرتي مثلثاً بلا ذراعين، كلارانس وأنا، بياتريس وأنا، ثنائيين عموديين، وكان هذا، مثلما أشرت سابقاً، منذ ماقبل ولادة ابنتي، حين لم تكن سوى مشروع، ورغبة، تشكلتْ فيّ أكثر مما في زوجتي، التي لم تحمل بها إلا من أجل إرضائي.

باحت بياتريس بأول تجربة حب حمقاء لي أنا. تأثرتُ وشعرت بالإطراء إلى درجة لم أفكر معها بالتصرف كأب؛ إذا كان قوام التصرف كأب هو الإدلاء ببضع كلمات لائقة، وبضع مواعظ مطلقة لاتحتمل النقاش، فإن هذا الدور الذي خطّه آخرون، لم يكن يستهويني؛ حصلت على ماهو أفضل، حصلت على امتياز ثقتها، دمعتين ذرفَتْهما فوق قميصي، دمعتين

غطّيتُهما براحة يدي كما لو أنني أردت مَنعَهُما من أن تجفّا.

كذلك كنت أنا من اقتَدَتْ به بياتريس حين اختارت أن تدرس البيولوجيا بدلاً من الصحافة.

كانت أمور قبيلتي قد وصلت إلى هذا المستوى حين جاء حادث كلارانس ليقلب اللعبة القائمة. طالما أن الأم كانت أماً والابنة ابنة، فإن العلاقة بينهما ظلّت باردة، ونوعاً ما منشّاة. الصورة التي كنت أناديها بكل قواي، صورة أب وأم متحاضِنَين، منشرِحَين حول مهد، لم تتحقق أبداً؛ لدي على طاولتي، في اللحظة التي أكتب فيها هذه الأسطر، صورة أخرى مؤطرة: أب وابنة متحاضنَين حول كرسي نقّال. بهذا الشكل اجتمعنا من جديد، بفضل تبادل الأدوار هذا كانت بياتريس تتصرف بحنان أمومي، وكانت كلارانس ذات مسلك بَنَوي صلب. المهم لقد أصبحتا صديقتين في نهاية الأمر.

بعد هذه الفترة الطويلة جداً من الكمون، لم يعد ممكناً، أن تؤول علاقتُهما إلى الركود في مياه ضحلة، وهذا ماينبغي. فقد أصبحت، دفعة واحدة، علاقة جامحة ونَهِمة، مثل علاقة حب بحّارٍ وفيّ. كانت أيضاً علاقة مثمرة.

في أحد الأيام، لدى عودتي من متحف العلوم الطبيعية، رأيتهما في حال غير متوقعة: كلارانس جالسة في أريكتها، تُملي جملاً تتدافع بقوة، وبياتريس جالسة أرضاً، مقعية أمام الشاشة، تكتب، موقّعةً بنزاهة كمن يوقّع على البيانو، كلام الأم. أحياناً، عندما كانت رفيقتي تصمت، تحاول ابنتُنا أن تطرح سؤالاً أو تقدم اعتراضاً. كانتا تتجادلان، تتحمسان،

تعيدان القراءة، تصححان سوية. عمل مشترك لهما كان يتشكل. «طفل» لهما، لم أكن أنا في أفضل الأحوال، أكثر من عرّاب له.

لو أن رجلاً آخر في مكاني، لَشَعَر بأنه مهدد ومعزول. أنا لست هكذا، كان لقاؤهما يفعمني. كنت أراقبهما، أستمع إليهما؛ ولكي أقاطعهما أو أناديهما أقول: يا «بنات!»، مفتوناً بِكَوني أشملُهما بهذا الشكل، دون تمييز بين الأعمار، بالتسمية الحامية ذاتها.

حين نُشرت مقالاتهما، مسلسلةً، في صحيفة يومية ذات سمعة، ضمنت لهما الأخبار اليومية جمهوراً واسعاً ومهتماً.

لم تكن فكرة المنطلق جديدة: يوجد لدى المجتمعات الإنسانية، كما لدى الأفراد، مبدأ مذكر، هو مبدأ عدواني، ومبدأ مؤنث، هو مبدأ استمراري. بعض الرجال يعانون من فرط في الهرمونات الذكرية، أو من وجود صبغيّات مذكرة فائضة؛ هؤلاء يكونون أذكياء أحياناً، ولكن ذكاءهم مشوه، كما يقال، بعدوانية مفرطة، غالباً ماتتجه نحو الإجرام؛ وربما ضمّت حوليات المحاكم حالاتٍ لاتحصى من هذا النوع. أليست هذه هي الظاهرة التي نشهدها، تساءلت كلارانس وبياتريس، ولكن على صعيد الكوكب؟ ألم نتسبَّب، نتيجة خطأ بعض العلماء عديمي الذمة، وكذلك نتيجة ذلك «الصدع الأفقي» الذي لم يستطع أحدٌ تَداركَه، بحدوث اختلال هائل في مجتمعات، وإثنيات، وشعوب، وربما في الجنس البشري بكامله؟

لا أريد أن أجادل في قيمة هذا الطرح، الذي لا تنبع قيمته من دقته العلمية بقدر ما تنبع من قدرته على التطابق بقوة مع الأحداث الجارية، التي كانت أذهانُنا الجميلةُ عزلاءَ أمامها. بناء على هذا، تكون شعوب الجنوب قد تحولت، أمام أعيننا، إثر تغير مفاجىء في الجينات، إلى كيانات مهووسة بالعنف، لأنها حرِمت من أي وجود طبيعي، ومنعت من أن يكون لها مستقبل؟ كان هناك أشياء أكثر بكثير من مظهر الأشياء لأجل تأكيد رؤية من هذا النوع. أمكَنَ لكل فرد أن يتأمل أهرامات الأعمار المتفاوتة تلك، إنها نقل بارع للفظاعات اليومية؛ من نايبوتو إلى ريمال، مشاهد لاتحصى من الدخان والدم كانت تنتصب كالشواخص في ذاكرتنا، وكل منا يستشف أن المستقبل القريب سيكون بالألوان ذاتها.

حين نجد أنفسنا فجأةً على السفح الآخر من الرعب، يبدو كل شيء منطقياً، بديهياً، متوقعاً، ومحتَّماً. نعم، قطعاً، كان كل شيء متوقعاً، منذ اللحظة التي انحفر فيها ذلك «الصدع الأفقي»، منذ اللحظة التي وقعت فيها أسرار الحياة بين أيدي المشعوذين المتمرنين؛ كانت جميع المقدمات المنطقية للفوضى الشاملة موجودة في القرن الماضي: تلك المدن التي كانت تضمحل، الواحدة تلو الأخرى، تلك الأمم التي كانت تتفتت، ذلك الهرب المُنافي للعقل إلى ألف سنة ولَّت، تلك الاستبعادات، وتلك الانزواءات.

سيقال لي، يالها من حيلة عبقرية، السبب والنتيجة! من هو الذي كان سيستطيع، ضمن الاحتمالات اللانهائية، أن يتعرف في الوقت المناسب على انعطاف يوم القيامة؟ سأجيب

بأني عرفت رجالاً ونساء كانوا يقرؤون أسرار العالم بسهولة؛ بعضهم مضوا، وبعضهم مازالوا حولي، ومازلت أتدفأ بنارهم المقدسة. رجال ونساء عَرِفوا، كما سبق أن قلت، كيف يرون حدود «الصورة» داخل «اليرقة».

ولكن عليَّ أن أخصص بضع مقاطع مركزاً على «الصورة». بوسع كل إنسان أن يرى، مثلما أرى، الشكل الذي راح العالم يتشبَّهُ به اليوم. لاشيء سيكون مجهولاً فيما قد أصفه بأنه مجهول، لاشيء سيكون مفاجِئاً؛ إنما تلك هي المهمة العبثية التي وضعتُها لنفسي، شاهد، رسام شرعي، كاتب محكمة يكتب مشاهد روائية.

كيف سيمكن، للذين عاشوا مثلي، عصر الحواجز المموَّهة، والكون الذي يرتبط بنفسه بألف طريق مضيء، التعرف على أنفسهم في هذا الكوكب المقطَّع بحواجز. أبداً ما كنت لأصدق أن هذا الانبساط قد يكون زائلاً، وهذا القدر من الأسوار، التي يصعب اجتيازها، قد يقام في الطرقات وفي العقول.

انغلقت بلدان الجنوب، بلداً إثر آخر، ومثلما يحدث في مخيم، انطفأت النيران في الليل. ولكن لم يكن ذلك من أجل فترة من النوم. فقد كانت الظلمة تُطبق نهائياً، أما الأجفان فلم تكن تنتظر الفجر.

زوَّدَنا القرن الماضي بمئة نموذج لمجتمعات كانت تغرق فجأةً في العته. كان الناس يتعهدون أن يرأفوا، إلا أنهم كانوا يتكيفون. كان العالم مايزال يركض في دُوار من

الصياح، أما المتخلفون، والمتورطون، والمنهكون فأمرهم لله، التاريخ في عجلة من أمره، ولايستطيع التوقف في كل محطة من المرارة. ولكن، إلى أين كان يمضي هذا التاريخ؟ كان لديه موعد مع ماذا؟ وفي أي تاريخ؟

من هو إذن ذاك الذي كان يجرؤ أن يتنبأ بالنكوص؟ النكوص، فكرة كئيبة، مضحكة، شاذة، غير لائقة. نتشبث بأن ننظر إلى التاريخ وكأنه نهر يجري في مشهد مسطح، يجنُّ في الأرض الوعرة، ويقاسي من بعض الشلالات. وماذا لو لم يكن سريره محفوراً مسبقاً؟ وماذا لو عجز عن الوصول إلى البحر وضاع في الصحراء، تائهاً وموزَّعاً إلى قطع عديدة من سبخات راكدة؟

كلمات مخيِّبة؟ آمل فقط أن يتاح لـِ بياتريستي أن تشيخ في عالم بُعث من جديد؛ وأن يُتَوصل، في المستقبل، إلى حصر هذه العقود اللعينة بين قوسين هائلين.

منذ ماقبل حوادث ريمال، نصحتْ بعض بلدان الشمال رعاياها بعدم التوجه إلى المناطق الخطرة. وهي دعوة متحفظة، تنحصر مبدئياً بالمناطق التي سبق أن شهدت فيضاً من التقتيل، مثل نايبوتو.

لم تظهر ريمال في القوائم أبداً بالطبع، فقد أزال الجنرال عبدان الخطر، أليس كذلك، واجتث العنف؛ ما كان أحد ليوجه في حقه إهانةً بالكلام عن خطر. كان سقوطه العنيف جداً، والمصير الذي لاقاه الأجانب الذين كانوا يعيشون تحت

حمايته، أشياء تعني أنه لم يعد هناك أية وجهة آمنة منذ اللحظة التي يتم فيها اجتياز خط العرض الجهنمي.

كف السعي لمراعاة الحساسيات الدبلوماسية، وبوشر بترحيل العائلات المقيمة في الجنوب بعشرات الآلاف. بقي عدد ضئيل من دواوين القنصليات متمسكاً بتمييز أخير بين البلدان التي كان العنف فيها «معلناً»، وتلك التي كان مايزال فيها «كامناً». زالت هذه الفوارق، على أية حال، في النداء الذي كان يسري في العالم : انجوا بأرواحكم.

ارتكاسة مفهومة جداً لكنها عجّلت في التدهور. فكيف يمكن للسكان المحليين أن يتابعوا مجرى حياتهم اليومية، أمام مشهد الآلاف من المغتربين الذين يجمعون أمتعتهم على عجل لكي يذهبوا ويتكوموا في المطارات؟ لقد أخذ الجنون ببلدان عديدة كانت حتى ذلك الوقت شبه هادئة؛ أُضيفَ إلى رحيل الأجانب، رحيلُ النُخب المحلية، وحتى رحيل أناس من العامة، الذين كان المستقبل يثير الرعب في نفوسهم.

حتى اليوم، في الوقت الذي نعرف فيه أشياء أكثر بكثير حول سبب الأحداث التي ابتلي بها الكوكب، كم من الناس مازالوا يرفضون أن يروا في سكان الجنوب ضحايا ولايحتفظون إلا بصورتين لهم: هذه الكثرة المهاجرة، إنهم قريبون منا، قريبون جداً؛ أو تلك العشائر المعتوهة، في البعيد، المستبسلة في هدم عالم لم تعد تفهمه، والتي كانت تعاقب نفسها بنفسها قبل كل شيء. ربما تقوم محكمة للتاريخ يوماً ما، بإصدار حكم متأخر بتهمة «حرمان من المستقبل».

هنا، في الشمال، لاتصيبنا المصائب إلا بطريقة غير مباشرة. لنفكر أحياناً بأولئك الذين يتعرضون للصدمة. لنفكر بتلك البلدان التي ما عاد أحد يجرؤ أن يخاطر بالذهاب إليها، والتي أُغلقت دون العالم الخارجي، وتفككت إلى قبائل تقاتل كل منها الأخرى بضراوة، في قلب البؤس الشامل، وقد هجرها أفضل أبنائها، تمارس بقاءها في الخرائب مثل الأعشاب المجنونة. وفي الأفق خرائب أخرى.

في ريمال ، كما في ثلثين كبيرين من الكوكب، صار الزمن من الآن فصاعداً يراوح في مكانه. لم تعد الطائرات تحط، ولم تعد تقلع، كان هناك فقط قاذفة قنابل قديمة. والطرقات، الممتدة إلى ما لانهاية، والتي شقها الجنرال بنفقات مفرطة، كما لو أنه أراد أن يُطَوِّق الصحراء بها، امَّحت خلال بضعة أشهر، غارقة تحت الرمال المنتقِمة. المناجم عادت مغائر، والآلات انحلَّت بصبر في الصدأ والنسيان. في الأحياء الحديثة، مازالت الأبنية قائمة، لكنها مسودَّة، مشجوجة، ومعظمها مبعوج. آثار وقحة لحضارة ذات يوم. تقول الأحجار، هاقد انقضت ألف سنة، ألف أخرى.

مازال الناس، من ريمال، من نايبوتو، من كل الشرق القريب أو الأقصى، ومن أفريقيا، وأيضاً من أكواخ العالم الجديد القذرة، يهربون كلما استطاعوا، بالمراكب أو على ظهور البغال. حَمَلة الأنوار القديمة، الأخيرون، يهربون مثلما تهرب الكلمات من فم رجل يموت.

للوصول إلى الشمال، حيث البحر المتوسط، وريو غراندي، لاتوجد أية حاجة للبوصلة، سبقهم الأكبر منهم،

الطريق منقوشة على مورثاتهم، مشقَّاتها عذبة، وقسوتها مصفوح عنها مسبقاً. الكثيرون في البلدان المستقبِلة، يعتبرون أنهم تعرضوا لاجتياح؛ ولكن ما العمل، لايعاد قذف الغريق في الماء.

أذكر أني قرأت قديماً، بقلم كاتب من أصحاب أفضل النوايا، وصفاً مجازياً غريباً. كوكبنا، يقول المؤلف، يشبه صاروخاً بطابقين، أحدهما ينخلع ويقع ثانيةً على الأرض، ويتحطم أثناء سقوطه؛ والآخر ينفصل، ويندفع في الفضاء، سليماً ومتخففاً من حمله.

حتى في اللحظة التي نشر فيها ذلك النص، كان من السهل أن يتهكم المرء، متخيلاً على سبيل المثال، ما الذي كان سيحدث لو أن أسفل الكوكب تحطم وهو مازال معلقاً بأعلاه بواسطة مسمار لم يُحلّ جيداً... ولكن أوهام معاصريَّ كانت هكذا، ساذجةً، مخزيةً، وحقيرة؛ إلا أنها مع ذلك مشروعة، مثلما هي جميع ارتكاسات البقاء.

X

هل أستطيع أن أنكر أن ساعة الفراق تُحلِّق بلا انقطاع بين الأب والابنة. كنت آمل فقط ألا أعيشها بالأشكال القديمة، أمد ذراعي لبياتريس عند باب بناء، أرافقها بضع خطوات خرقاء، أسلّمُها ثم أعود إلى الصفوف، أحتمل النظرات الخاصة بالمناسبة دون تأثر... لا، قلت لنفسي، لم تعد ساعات الرحيل تُعاش هكذا. لا ثوب ولا طَرْحة. لاذراع أبوية ولا مدعوون. عندما سيحدث هذا الأمر لن يكون مثبّتاً إلى تاريخ معين.

قمة الاحتياطات، هي أنني انفتحت في وقت مبكر جداً على ابنتي، منذ ماقبل مغامرتها الأولى: كنت ألح بأن غرفتها هي غرفتها، وأن هذا البيت هو بيتها، وأن بوسعها، كما يحلو لها، أن تغادره ثم تعود إليه، وحدها أو مع أصدقاء؛ مهما ذهبت بعيداً، ستحتاج أن تحافظ في «خلفية رأسها» على عزاءِ وجودِ ميناءِ ارتباطٍ تحتفظُ فيه على الأقل ببعض الأشياء من طفولتها. قالت «نعم»، بتأثر، وأسمتني، مداعِبةً، بكل الأسماء الملاطِفة التي أحبها. كنت مطمئناً وفخوراً.

إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار، فإن الحياة لم تكن ضارية بالنسبة لبيتي، هزته قليلاً فقط. بما كان كافياً فقط لاستمرار الحياة.

حين بدأت بياتريس تصادق مرسي، لم أضطر لبذل أي جهد من أجل نيل صداقته. كان من أب مصري وأم من السافوا؛ هي التي أصرت، مع ذلك، أن تسميه بهذا الاسم، الذي كان يسخر منه بطيبة قلب. «حين أقدم نفسي، ألفظ مرسي بسرعة كبيرة؛ الرجال يسمعون مارسيل والنساء موريس!» حدَّثتُه، بالطبع، منذ لقائنا الأول عن زيارتي المختصرة والوحيدة لبلده، وقت انعقاد المؤتمر عن الجُعَل.اعترف لي أنه هو ذاته قد عاش على الدوام في فرنسا أو في سويسرا، وأنه لم يذهب إلى القاهرة إلا مرتين، لقضاء إجازتين قصيرتين؛ وشعرت كلارانس بالخيبة من كونه لم يطأ الاسكندرية ، المدينة التي تتباهى بأنها منها.

ـ كنت أظن أن أسرتك جاءت من سالونيك، قالت بياتريس مندهشة.

ـ وأنا من أوديسا، قلت بسوء نية تام.

وضعت كلارانس يدها على كتف مرسي.

ـ اشرحْ لهما أن وطني هو مجرَّة من المدن! اشرحْ لهما أننا، أنت وأنا، ولدنا من نور الشرق، وأن الغرب لم يفِق إلا على أنوارنا! قل لهما إن الشرق لم يكن على الدوام غارقاً في العتمة! احك لهما عن إزمير وأنطاكية وسالونيك، وعن وادي الملوك، والأردن، وعن الفرات. ولكنك ربما لاتعرف!

كانت تتكلم بمزيج من التشدق ومن السخرية، وكان مرسي حزيناً، مثلما يمكن للمرء أن يكون عند رؤية دموع مهرج.

مع ذلك فلم يكن يغلب عليه الحزن. التقت به بياتريس في

المخبر حيث تم توظيفها للتو؛ كان يعتبر أكثر الباحثين فيه براعة، لكنه الأكثر إضحاكاً أيضاً . مزيج ممتع فُتنتُ به منذ اليوم الأول. كان لهما اللون البرونزي ذاته، الطول ذاته، والعمر ذاته مع فارق بضع شهور، كانا يعطيان الانطباع بأنهما عاشا على الدوام يداً بيد. سرعان ما أصبح مرسي، بشعره القصير والأجعد، ورأسه البيضوي المنقول عن جدارية فرعونية، وضحكته الصريحة، إنما المُراعية، جزءاً من حياتنا العائلية.

كان أبواه يعيشان في جنيف، وكلاهما مختص بعلم الأدوية؛ هو كان جاراً لنا، بعد أن عثر لنفسه على استديو صغير قرب رملة لوتيس. كدت أقترح عليه أكثر من مرة ، عن طريق بياتريس، أن يأتي ويقيم عندنا، إلا أنني لم أفعل ذلك قط. لم أكن أشعر أن من حقي تعجيل الأمور، أو نقلها إلى إطار الشكليات.

لم يمضِ مرسي الليل في شقتنا قط، أفترض أن ذلك يعود للتحفظ الشرقي؛ وكانت بياتريس بالمقابل، كثيراً ما تتغيب، خاصة في نهايات الأسابيع. وفي أحد الأيام، لدى عودتي من متحف العلوم الطبيعية، وجدت أشياءها موضوعة في كرتونات قرب الباب. شرحتْ لي كلارانس وقد أدركت انفعالي، أن ابنتنا كانت بحاجة، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، لأن تعيش حياة كاملة مع رجل. أوشكتُ أن أناقش. همست بـِ «لماذا؟» تدعو للشفقة، وبقي سؤالي معلقاً. ذهبت وأغلقت على نفسي، بكرامة، في مكتبي، مصمماً ألا أخرج إلا بعد أن تكون الكرتونات قد نُقلت.

أنا الذي كنت أخشى أن ينزرع رحيل بياتريس في

ذاكرتي باحتفال ما... لم يكن هناك سوى هذه الكرتونات، والكتب المكدسة، والثياب المطوية، والصور المؤطرة، ثم هذه الغرفة التي كانت مرتبة بعناية شديدة، ينظمها الغياب الآن. طفتُ، كي أسلي نفسي، على مجموعتي من مغمدات الأجنحة، معيداً لصق بعض الأسماء التي تزحزحت من أماكنها.

حين سئمت، ولم يكن ذلك قبل العشاء، ذرفت الدمعتين النظاميتين، لم أخرج عن المعايير؛ هكذا، في ارتباطات الحب، لايعدُ المرء العدَّة من أجل الرحيل.

في اليوم التالي، حضرت بياتريس ومرسي للفطور، وقدَّرتُ هذه اللفتة اللطيفة. بدت ابنتي مبتهجة، وأكثر ظرفاً من المعتاد، كما لو أن طفلتي أرادت أن تقول لي إنها ماتزال تعرف أن تكون طفلة.

لم يكن أحد منا نحن الأربعة يشك بأنها حبلى. كان يجب أن أعلم بذلك من خلال عطفةِ نقاشٍ دارَ بعد أسابيع. كانت قد أذيعت للتو تحقيقات حول مصير النساء في ريمال، كما في بلدان أخرى من الجنوب. كان بوسعنا الافتراض أنهن، بسبب ندرتهن المتزايدة، ربما يحظين بالتبجيل، والحب، والملاطفة؛ بينما صرن فقط أكثر عرضة للطمع بهن. ربما كانت هذه هي أسوأ صورة تحفظها عنّا القرون القادمة، هؤلاء النساء المترهبات، المحاصرات، ملكيات ثمينة لقبائلهن، رهان نزاعات دامية؛ لم يكنَّ يستطعن الخروج إلى الشارع دون مرافقين، خشية الاغتصاب والاختطاف. « هاقد عدنا، قلتُ ملاحِظاً، إلى زمن اختطاف السبايا!»

وضعت بياتريس يدها فوق يد مرسي، وأفلتتْ جملة:

«أتمنى أن يكون صبياً!» كان صدور أمنية من هذا النوع على لسان بياتريس، غير لائق! مع ذلك، لم أتوقف عند هذا، بل توقّفتُ، كيف أعبِّر، عند النبأ الخام: نهضتُ في الحال، أحطتُ الكرسي الذي كانت تجلس عليه ابنتي، ثم انحنيتُ فوقها، وضعتُ شفتي فوق جبينها وراحة يدي فوق بطنها الذي مازال مسطحاً. «أنا في الشهر الثالث»، ضحكتْ لكي تعطي نفسها بساطةً وصدقاً.

رحت أراقب كلارانس بطرف عيني، كانت تشعر بقدر ماشعرتُ به من المفاجأة، لكن رد فعلها كان مختلفاً.

ـ هل هذا زمن من المناسب أن يولد أحد فيه فعلاً؟

عند المساء، عاتبتُها عتاباً مراً في غرفتنا على هذه الكلمات. أياً كانت مآسي قرننا، لا تُقال هذه الكلمات أمام امرأة تنتظر مولوداً. كانت بياتريس على مشارف مغامرة مهيجة للنفس وصعبة، وليس الغم هو ما يجب أن نحيطها به؛ والطفل الذي سيولد، هل علينا أن نستقبله بهذه الطريقة؟ كائن وحيد يمكن أن أحبه بقدر ما أحب بياتريس: إنه طفل بياتريس. حتى إن تعبت من الحياة، فسوف أجدد عمري عشرين عاماً، لا لغرضٍ آخر سوى رؤية هذا الشيء الصغير يكبر، واصطحابه في نزهات إلى البساتين، ورؤية وجهه يشعّ لمرأى لحية جده.

التصقت كلارانس بي.

ـ إنك تشتعل هذا المساء، قالت، ضمني إليك، أريد أن أجني حبك وأودِعه فيَّ، كلَّ حبك لي، لبياتريس، ولطفل بياتريس.

الحب كـ زَوَغان، العناق كَـ حجة نهائية، والاستمتاع كنقاط فاصلة، هل كان بوسعي أن أشكو من هذا التحول في مجرى الأمور؟ عرفتْ كلارانس على الدوام كيف تفوز بجسدي لصالح قضيتها؛ هدأت أفكاري حتى الصباح.

وفي الصباح، صوَّبتْ كلامي، من حيث الجوهر فقط ـ لم تشاركني قط شعوري السعيد بالعَجَب أمام الطفولة ـ، حول الموقف الذي يجب أن نتخذه في حضور ابنتنا على الأقل. أضافت مع ذلك، على سبيل الملاحظة، بعناد وتَفَكُّر:

ـ...لكن بياتريس محقة في رغبتها بولد في هذه الظروف.

ـ أية ظروف؟ لسنا في ريمال، ولا في نايبوتو، إن لم أكن مخطئاً!

ـ بالتأكيد، ولكننا نقيم على الكوكب ذاته. ماهو الشر الذي سيمكن منعه من الانتشار؟ الأحقاد مُعدِية، والنكوص يمكن أن يكون كذلك.

لم يسبق لي أبداً أن استمعتُ بخفة لرؤى كلارانس، فمن بين جميع السيناريوهات، كانت تميل لأكثرها هولاً؛ وكان لدى التاريخ، مع الأسف، الميل المزعج ذاته في بعض الأحيان. لا أحد منهما، سواء هي أم التاريخ، كان يتيه في التحليلات؛ كانا يكتفيان بالنطق بالأحكام.

كلارانس والتاريخ، شخصان في حياتي، شريكان في الغالب؛ لكن أحدهما ينطلق من أقصى الوضوح، والآخر من أقصى العماء.

Y

تحققت رغبة بياتريس، وأنجبت صبياً، أسمته فلوريان. حين ذهبتُ إليها، بعد ساعة من الولادة، أدهشني أن أرى رجالاً مسلحين في الممشى. سبق أن رأيت، في السينما وليس في الحياة، رجال شرطة في أحد المشافي، من أجل مراقبة سجين مريض، أو حراسة ضحية عملية اعتداء، أو شخصية مهدَّدة. أما في دار توليد؟ كان افتراضي الأول هو أن سجينة جاءت لتلد. مرسي هو الذي صحح لي خطئي:

ـ هذا بسبب الشائعات.

ـ أية شائعات؟

آه، بلى! الآن تذكرت. منذ بضعة أشهر، سرت شائعات تقول إن عصابات من المتاجرين القذرين قامت باختطاف فتيات حديثات السن بهدف عرضهن «للبيع» في المناطق التي تفتقر إليهن. اكتفيت برفع كتفيّ إلى الأعلى، وبمعنى ما، لم أكن مخطئاً. الذُّهان الذي خلقته هذه الشائعات لم يكن يقارن مع الوقائع المثبتة. إذا نظرنا للمعدل الوسطي بين السنوات الجيدة والسنوات السيئة، نرى أنه كانت هناك على الدوام حوادث اختفاء أطفال وفتيات؛ وعلى حد علمي، لم يستطع أحد أن يثبت قط، أن حوادث اختطاف من هذا النوع قد حدثت

على مستوىً مختلفٍ اختلافاً ذا مغزى، خلال الأعوام التي أتحدث عنها.

الشيء الذي كنت مخطئاً فيه، بالمقابل، هو أنني لم أقدِّر جيداً حجم الخوف الذي كان يتفشى. ربما كنت أدركته أكثر لو أن بياتريس أنجبت بنتاً.

من يرصد هذا الخوف مع ابتعاد الزمن، يجد أنه مفهوم جداً. في الشمال بلغت الأجيال الطائشة سن الرشد. سبق لي أن شرحت كيف تم تجنُّب الأسوأ، وأكرر هنا أن عدم التوازن بين الصِّبيَة والبنات كان مايزال متواضعاً إذا ما قارنَّاهُ بالتفاوت الحاصل في الجنوب. لكنه لم يكن بلا دلالةٍ مع ذلك، وكان الأخصائيون يُرجعون إليه صعود الإجرام بين المراهقين. شهدت بعض المجتمعات، بُعيد الحروب، فتراتٍ كان عدد النساء فيها فائضاً؛ ولكن، رغم البؤس، ورغم الحرمان والتقنين، كانت تلك الفترات في نظر التاريخ، فترات من الهدوء استعادَ فيها البشرُ أنفاسهم؛ حتى اللحظة، لم يلاحظ أحد قط، مجتمعات بالحجم الطبيعي، يكون عدد شبانها الذكور فائضاً بشكل ساحق.

لو أن ذلك التفاوت حصل في وسط سويّ، ربما كان بالإمكان التصدي له بقدر أكبر من الصفاء. لم يكن الأمر كذلك قطعاً. بعد أحداث ريمال، هبَّتْ رياح من القلق على العالم، انقطعت بشراسة، تيارات تبادل عريقة وتباطأت التيارات الأخرى، ضاق العالم بشكل ظاهر وضَمرَ، مثل تفاحة مريضة أو ناضجة جداً؛ كانت ريمال منذ عهد قريب، حاملةَ لواء شكلٍ من أشكال الازدهار؛ وكان سقوطها ينذر إنذاراً عنيفاً، بقدوم عصر جديد هو عصر النكوص والعياء.

أفضّل هذا التعبير على تعبير «الاكتئاب الشديد»، الذي يتمسك به معاصرون يفتقرون إلى الخيال. هذا لا يعني بأنني أنكر أي شبه بالخميس الأسود من عام 1929، وجميع أشكال القلق الجليلة للقرن المنصرم. إلا أن المقارنات تُخفي بقدر ماتكشف. لايشبه عصر بياتريس أي عصر آخر، حتى لو اكتشفنا هنا وهناك في ملامحه بعض الفظاعات المتخلفة من عصور ماضية.

يشرح علماء الاقتصاد بشكل أفضل مما يمكنني أن أفعل، كيف زعزع انهيار الجنوب رخاء الشمال. يعرفون كيف يصِفون الذعر في ساحات البورصة، والإفلاسات المتلاحقة، والشركات المنهارة، والانتحارات. نُشرت كتبٌ تورِدُ الأرقام الدالة على الفقر الجديد.

لكن الأرقام لاتفعل شيئاً سوى أنها تُتَمتِمُ بما تصيح به الطرقات بأعلى صوتها، جميع هذه الطرقات الخالية، الباردة من الرعب. أن تجتاز شارعاً رئيسياً في باريس، كان منذ عهد قريب يعج بالناس، وتكتشف أنك وحيد فيه، أن تسمع صوت خطاك، وتشعر أنك مُراقَب، وربما محسود لأنك ترتدي معطفاً جديداً، أن تمر أمام مقهى، وتكتشف أنه قد حُجز عليه للتو بشبكة من الحديد؛ أن تصل إلى مقهى آخر، وتجد نفسك وأنت تهمس فيه في أذن صاحب المقهى ببعض التفاهات الانهزامية. هذه هي روح عصر بياتريس.

لم تَجِلّ هذه الروح في كل مكان بالوقت ذاته. احتاج الفقر إلى سنين لكي ينتشر، باعتباره وباء ذا ڤيروس كسول، لكنه معدٍ بالتأكيد. توافقت عادات العيش معه: كثير من الناس

كانوا بالكاد يملكون ما يبقيهم أحياء؛ أولئك الذين كانوا يستطيعون الإنفاق، كانوا يخافون أو يخجلون من القيام بذلك؛ امتلأت المدن الكبيرة بالعنف، وأصبحت الأرياف أقل حفاوة بشكل متزايد.

لم تكن شائعات الاختطاف سوى عرض من أعراض الشر. عُززت الرقابة في دور التوليد، وأمام الحضانات، والمدارس. كنت أبارك السماء كل يوم لأن بياتريس أنجبَتْ صبياً. أولئك الذين كان لديهم بنات كان يتعين عليهم مرافقتهن دون توقف؛ كان يجب مرافقتهن حتى وهن مراهقات، ومن الأفضل أن يرافقهن أكثر من شخص .

اضطرت جميع حكومات الشمال أن تكرس مجهوداً متزايداً من أجل الأمن. ولكن إذا كان منظر هذه الترتيبات، يردع بعض الأشخاص عن ارتكاب جُنَحِهم، فإنه كان يذكِّر السكان «العاديين» بانعدام الأمن السائد، ولا يشجعهم على المجازفة بأنفسهم في الشوارع.

كان الناس إذن، يلزَمون بيوتهم، لشدة سوء حظ البقالين وأصحاب المطاعم، ومنظمي الاستعراضات. وماذا يفعلون في بيوتهم؟ كانوا يشاهدون على الشاشة المنزلية، روايات العنف اليومي، في مدنهم الخاصة والمناطق المجاورة أولاً، ثم روايات المناطق البعيدة ولكن المُرهِقة كالهاجس، والتي كانت مستمرة بدون انقطاع في بلدان الجنوب.

عصر النكوص والعياء هذا، كان ـ ما الذي يدعوني للكلام بالماضي؟ لم يكن، إنه الآن كذلك ـ عصر الارتياب وعصر كل الخلائط. يبدو فيه الغريب، الأسمر البرونزي، ذو الشعر القصير الأجعد، ناقلاً متجولاً للعنف. لم أر الأشياء أبداً

من منظور هذه الأيام، ولن أراها هكذا أبداً. المرأة التي اخترتها وأحببتها، البنت التي أنجبتها لي، والصهر الذي استقبلته وتبنيته، ينتمون ثلاثتهم إلى الخليط الأسمر للمهاجرين، وأنا نفسي، بحكم الولاء، وبحكم الحب، بحكم القناعة أو بحكم الطبع، لطالما شعرت أني متضامن مع هذا الخليط. لكني لن ألقي باللوم على جيراني الخائفين. لا أحتقر خوفهم. وأحترس من الاستنتاجات، هم يرون ظاهر الأمور. يعتبرون أنهم تعرضوا لاجتياح من قِبَل شقاء العالم، والأحقاد التي يحملها هذا الشقاء، متاعاً كريهاً لا يجرؤ بعضُ المهاجرين أن يتخلصوا منه.

ماذا كنت سأقول لو أن الناس مازالوا يستمعون؟ هل كنت سأقول إن الأجداد يتحملون قسطاً من المسؤولية؟ وأننا نتحمل قسطنا المرهق منها؟ إن الشقاء مرشِد سيء بقدر ماهو الرخاء؟ إن الخلاص إما أن يكون على مستوى الكوكب أو لايكون؟ إن...

لكن هذه اللغة لم تعد لغة هذا الزمان. حين نعجز أمام البَرَص، نهاجم البُرص، نقيم أسوار الحجر الصحي. حكمة عريقة، وجنون عريق.

L

بعد الذي كتبته للتو، هل سأجرؤ أن أضيف بأن مصائب العالم قادتني، تقريباً، إلى حيث كنت أتمنى أن أصل بالذات؟

أوضِّح. كانت كلارانس، فيما مضى، تتصور فترة تقاعدها، تقاعدنا، كـ جولة لاتنتهي حول العالم. لكي تُشفى من جنون السفر، كانت تفكر أنها تحتاج ليس لحياة ساكنة، بل لطريقة أخرى في السفر إلى البلدان ذاتها، طريقة أبطأ، دون ساعة ولا مفكرة جيب، دون أي نوع من الواجبات، سوى واجب المتعة، لاشيء آخر سوى تسكع رائق في سلسلة من الأماكن.

جاءت الأحداث لكي تشوه أحلامها المتصلة بالشرق، وتمزق صورتها عن المناطق المدارية. أصبحت ممنوعة من الهرب، بسبب حالتها قليلاً، وبسبب حالة الكوكب بشكل خاص.

عندما كانت مشاريعها ماتزال ذات معنى، كانت كلارانس تحدثني عنها في مساء الأيام المرهقة. كنت أدعها تبحر. في تلك اللحظات أمسكها من خصرها برقة، كما لو أننا نقوم بنزهة ونحن ثابتين في مكاننا. حين ترجع رأسها إلى الخلف، كنت أراقب وجهها المشرق، لم أكن أقبِّل إلّا شعرها المبيضّ بالكاد، وكتفيها الأسمرين العاريين. لم أكن لأعيق

حقل رؤيتها، لقاء أي شيء في العالم.

وبالطبع، لم أكن أعارضها. كان لدي مع ذلك مفهوم مختلف تماماً لتقاعدنا؛ كان مفهومها متعطلاً ومتنقلاً، ومفهومي مجتهداً وساكناً ـ ميكروسكوب في مستودع في السافوا. ولكني ما كنت لأفرض هذا الدير على رفيقتي، بل كنت سألحق بها أولاً على الطرقات، ثم، وبمساعدة العمر، تلحق بي هي إلى كوخي. أراد القدر أن نُسقط مرحلةً، هي مرحلتها.

كانت أحلامي منذ سنين تسكن في جوار الألب؛ حيث وافقتها أحلام كلارانس. كنا نطمح حالياً أنا وهي، أن نعيش في هذا المكان الذي هو أشبه بمرقب مائل فوق سطح أوروبا؛ ربما نستطيع، إذ نبتعد بهذا الشكل، أن نحافظ على صحوننا، آخر مايتبقى للكائنات التي تشيخ من الكرامة.

في السنة الثلاثين من قرن بياتريس، نقلت مكتبتي، وأدواتي، مجموعة حشراتي، وثيابي الشتوية إلى أرافيس. هكذا، كُرس مكان الاصطياف، مكاناً للإقامة النهائية، لجميع الفصول المتبقية لي.

كانت المدينة قد أصبحت لاتطاق، بالنسبة لي. الناس يسيرون بمحاذاة الجدران، بهالات رمادية، ونظرات رمادية؛ يخيّل لي أن الأمر كان مشابهاً لزمن الحرب الثانية، حين كانت الليالي باردة ولا يوجد فحم. أما اليوم فليس هناك حرب ولا برد، هناك كَلَل. طعم الهزيمة لكن بدون الإثارة المرافقة للعمليات الحربية. الشتاء في الأحشاء، شتاءٌ لاتنفع أية نار في تلطيفه.

لم أعد أتعرف على الناس ولا على الشوارع، كنت أنتفض أحياناً وأنا أستمع إلى أفكاري الخاصة. الخوف يولِّد مُسوخاً.

كان خوفي الخاص مزدوجاً. كنت، كابن مدينة، أحدج كل وجه مجهول، وكل تجمع، بنظرة حذرة؛ أتمنى لو أستطيع، بحركة، أن أحيل جميع المارة الذين كان ظلُّهم يقلقني، إلى رماد... في أحد أماسي الشتاء، رأيت في زاوية شارعي، مجموعة من الشبان الذين أشعلوا على الرصيف نوعاً من نيران الأعياد، التي كانت تُفرقع. في الماضي كان الأمر سيسليني، وكنت سأمازحهم بود؛ ولكني، بدلاً من ذلك، قمت بلفة كاملة لكي أتجنبهم، وقبل أن أدخل المبنى الذي أقيم فيه، رشقتهم من بعيد بنظرة مليئة بالكره.

بعد أن أصبحت في مسكني، وأرتجت الباب المصفح بقفل ثلاثي، استسلمت للخوف الآخر، الخوف من نفسي، مما فعلَته المدينة المظلمة بي، خوف وخجل من النظرة التي ألقيها اليوم على أشباهي وعلى العالم.

كان يجب أن أبتعد، دون إبطاء، أن أستعيد الصفاء من خلال الابتعاد. وحين أكون بعيداً عن البشر، ربما أتعلم كيف أحبهم من جديد.

في الأوقات الأخيرة كان الشيء الوحيد الذي ظل يربطني بباريس، هو وجود بياتريس، وفلوريان ومرسي. لو كان عليَّ أن أهرب، فإن ذلك يجب أن يتم بصحبة ذويَّ جميعاً.

أميل عادةً، أن أدع الناس، حتى أقربهم إلي، يميلون مع ميولهم، فاحترام الآخرين، واحترام حتى غواياتهم، كان دوماً دِيناً بالنسبة لي. مع ذلك، فقد صممت هذه المرة أن أخالف هذا الدين، أظهرت إلحاحاً، متحايلاً على جميع أوتار الحب والخوف، لكي أنتزع من ابنتي قراراً. كان مرسي يتعرض أيضاً لِمضايقة أبويه اللذين كانا يقترحان عليه وكذلك على بياتريس، عملاً في جنيف حيث سيكونان على بعد أقل من ساعة من أرافيس. لارتياحي الشديد انتهيا إلى النزول عند هذا الاقتراح. ولم أستعد طعم الحياة وأعود إلى عمل ما، إلا حين صارا قريبين مني جداً.

لم يكن لديَّ بعد، مشروع وضع هذا الكتاب ـ الشهادة. الوقت الذي لم أكن أكرسه لأسرتي، كنت أمضيه خاصةً قرب ميكروسكوبي ومجموعة حشراتي من مغمدات الأجنحة. وحين أكتشف أحياناً داخل العلب الكرتونية، رسالة من أندريه ڤالوريس، أو مقالاً مقتطعاً أو منسوخاً، كنت أرتبه في أحد الأدراج، دون أن أتأخر كثيراً في قراءته.

في أية لحظة جاءتني الفكرة المرتجَلة بأن أكون كاتبَ حَوْليَّات؟ ربما بسذاجة شديدة، حين عثرت على دفتر قديم سميك ولم يُمَسّ، يعود تاريخه ليوم مولد بياتريس بالذات. بقي هذا الشيء على طاولتي بضعة أسابيع دون أن أقرر التخلص منه، أو تصنيفه. ثم رحت يوماً أقلب صفحاته، ممسكاً بيدي قلم حبر، ووجدت نفسي قد بدأت أخط فيه مسودة الصفحات الأولى.

ما لبثتُ أن اعتدت، دون أن أكاشف أحداً بالأمر، حتى

كلارانس، ـ ربما لم أكن واثقاً، حتى هذه الأيام الأخيرة، من قدرتي على أن أنجز عملاً بعيداً بهذا القدر عن أشغالي كـ عالم حشرات ـ، اعتدت أن أغلق على نفسي ساعات طويلة لأكتب، صفحة بعد صفحة، على إيقاع الذكريات، مسترشداً، في تنسيق الفصول، بتسلسل الحروف وحده، من A إلى Z ...

هاأنذا الآن قريب جداً من نقطة النهاية، وأشعر أني تخلصت شيئاً فشيئاً من حِملٍ لم أكن أشك أنه قاهر إلى هذا الحد. هل سينشر هذا النص يوماً؟ هل سيوجد من يهتم به؟ وخلال كم من السنين؟ أرغب أن أقول بأن هذا لم يعد من شأني. أياً كان مصيره، فقد انتهى دوري الخاص. حين نلقي زجاجة في البحر، نتمنى بالطبع، أن يصيدها أحد، ولكننا لانرافقها سباحةً.

من ثم، لا أشعر في هذه اللحظة، بأي خجل من القول بأن همي الوحيد هو أن أنقذ قبيلتي من هيجانات العالم، أن أحفظها قدر المستطاع من العنف كما أحفظها من الوهن، وأن نخصص فسحة ما في مملكتي الصغيرة في أرافيس، لسعادة العيش.

أيام لا عدَّ لها من أوقات الفراغ المجِدَّة حولت عريني في السافوا إلى فسحة صالحة للسكن بشكل عظيم؛ صار في نظري يشبه الأرارات ـ تعرفون، ذلك الجبل في أرمينيا الذي يحتمل أن سفينة نوح رست بقربه ـ ؛ يرتفع الخوف في العالم مثلما يرتفع ماء الطوفان، ربما يبدو المشهد عظيماً بالنسبة لمن لم يطُلْه البلل.

عظيم، كم يفترض أن تبدو هذه الكلمة وقحة! كل مأساة هي عظيمة، مع ذلك فكلُّ نهايةِ عالم، عظيمة... ولكن من المؤكد أني كنت أنتظر أسباباً أخرى للافتتان والحماس لقرن شيخوختي.

كم من مرة تساءلت كيف وصلنا إلى هنا. في الصفحات التي سبقت، راصفتُ أحداثاً، وانطباعات، واحتمالات أسباب. وفي الوقت الذي أستعد فيه لمغادرة الخشبة، دونما استعجال، ولكن دونما أسف، أشعر بأنني مازلت عاجزاً عن معرفة، إن كان تغيير مجرى القدر، في لحظة ما، وجعله يصبُّ في اتجاه أكثر توافقاً مع أحلام البشر، ممكناً. عبثاً أعدت قراءة شهادتي ونصوصاً كثيرة أخرى تعود لهذه السنين الأخيرة، لكن حيرتي مقيمة، وأحياناً ملحَّة كالهاجس. هل كل ماحدث كان محتوماً إذن؟ يبدو لي أن لا، لاأستطيع منع نفسي عن الاعتقاد بأن سُبُلاً أخرى كانت موجودة...

كثيراً ما أفكر بهذه الأيام القادمة التي ولَّت. بل إنني أحياناً، أعود، أثناء نزهاتي اليومية في دروبِ جبلي، ستين عاماً إلى الوراء، إلى ما قبل قرن بياتريس بكثير، أحاول أن أتخيل الطرقات التي كان يمكن أن يسلكها النوع المثير للسخط، الذي أنتمي إليه.

عندئذ، وخلال الوقت الذي تستغرقه نزهة، أعيد بناء عالم مختلف. عالم تنتشر فيه الحرية والرفاهية رويداً رويداً مثلما الأمواج فوق سطح الماء. عالم لايعود فيه أمام الطب، بعد أن انتصر على جميع الأمراض وصرع الأوبئة، من تحد آخر سوى دفع الشيخوخة والموت إلى ما لانهاية. عالم أُقصي

منه الجهل والعنف. عالم تخلَّص من آخر بقع الظلام. نعم، إنسانية متصالحة، كريمة وغازية، تشخص عيونها نحو النجوم، والخلود.

هذا هو النوع الذي كنت سأفخر بالانتماء إليه.

في يوم آتٍ، لن أعود من نزهتي. أعرف ذلك، أنتظره، ولاأخشاه كثيراً. سأمضي في درب مألوف. ستطفُرُ أفكاري، جَموحةً. وفجأة، وقد أنهكتني تصوُّراتي، أثملتني وهيجتني، سيبدأ قلبي بالفواق. سأبحث عن متَّكأ عند شجرة بلوط أعرفها.

هناك، وفي تلك الحالةِ، التي هي مزيج من الخَدَر والصحو الأخير، سأمتلك، لِلَحظةٍ، أثمنَ وهم: سيظهر لي العالمُ الذي عرفته، كأنه كابوس فظ، وسيتخذُ عالم أحلامي شكل الحقيقة. سأعاود الإيمان به، إيماناً يزداد قليلاً كل لحظة. إنه هو العالم الذي ستحتضنه عيناي للمرة الأخيرة. ستأتي ابتسامة طفل لتضيء لحيتي التي بلون الجبل. وسأغمض عيني بهدوء.



القرن الأول بعد بياتريس

في أسواق الشرق هناك حبوب «فول» عجيبةٌ. تَنسِبُ إليها خرافاتٌ قديمة، القدرة على تسهيل ولادة الأطفال الذكور.

عندما استطاع راوي هذه الشهادة، وهو عالم فرنسي مختصّ في حشرة الجُعل، أن يمتلك بعض الفولات من ذلك النوع خلال رحلة له إلى مصر، لم يعد لديه شك بأن العالم قد دخل حقبة عسيرة من تاريخه. ففي كل مكان، بالفعل، ستصبح ولادات الإناث نادرة دون سبب واضح، فهل تكون تلك الفولات مصدر هذه اللعنة؟

حاول العالم ورفيقته، عبر رحلة مثيرة أوصلته إلى خط الاستواء، البحث عن تفسير لتلك الظاهرة.

كتاب أمين معلوف هذا، الشرس واللطيف، المرح والقاسي، يتفتح على أكثر من قراءة.

إنه رواية الحب «الأمومي» لأب نحو ابنته، رواية رجل متعلق «بأنوثة العالم»، رواية ذكر لا يمكن تحديده، يُلغي النساء ويقضم الرجال، رواية اقتسام كوكبنا بين جنوب يزداد بؤساً وشمال يزداد ازدهاراً، رواية اللقاء المرعب بين مساوئ الماضي البالي ومساوئ الحداثة.

لكنه قد يكون قبل أي شيء آخر رواية النهاية المُحيِّرة لقرننا، مع نظرة قلقة نحو القرن الواحد والعشرين، القرن الذي أصبح الآن حاضراً جداً بيننا، والذي يطلق عليه المؤلف، تلك التسمية الملغوزة «القرن الأول بعد بياتريس».